إدواردو غاليانو

أشباح الليل والنهار

سرديات





أشباح الليل والنّهار

الكتاب: أشباح الليل والنهار
المؤلف: إدواردو غاليانو
المترجم: مدى عطفة
الطبعة الأولى: 9/ 2015

يتضمن هذا الكتاب الترجمة الكاملة للنص الإسباني:

DIAS Y NOCHES DE AMOR Y DE GUERRA

By: Eduardo Galeano

ISBN: 978-9933-477-82-0



تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار



دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com
ص. ب 1018 اللاذقية، سورية،
هاتف وفاكس: 33 422 41 963+
البريد الإلكتروني daralhiwar@gmail.com
info@daralhiwar.com

إدواردو غاليانو

أشباح الليل والنهار

ترجمة: مدى عطفة

دار الحوار

إن النصوص النثرية القصيرة التي تؤلف هذا الكتاب ليست نصوصاً نثرية متفرّقة. ورغم أنها لا تنضوي على عقدة توحدها، فثمة سبب واحد يوحدها، هو الحاجة إلى تذكر النهارات والليالي في غواتيمالا وأوروغواي والأرجنتين؛ أيضاً في كوبا والبرازيل وفي كل مكان يؤكد فيه المنفيون أن الحب والحرب يعنيان كل شيء. في الواقع، ثمة ما هو أكثر من الحاجة للذكرى، وهو الذي يؤالف كل هذه النصوص النثرية القصيرة والدقيقة التي لا تنسى: إنه الفرح جراء تذكر الكثيرين الذين هم قتلى الآن وغيرهم ممن لا يزالون على قيد الحياة. في هذا الكتاب، يجمع غاليانو ذكريات - الكثير منها مرعب، والآخر رقيق، وبعضها هزلي، لكن كلها جميلة - لأناس وحالات أرادت آلة الموت لدى الديكتاتوريات أن تمحوها للأبد. إنه كتاب مؤثّر ومعتبر لسببين: لأن موضوعه هو مأساة قارة ولأنه احتفاء بالمقاومة والذكرى والحياة.

كل ما رُوي في هذا الكتاب حدث.
يكتبه المؤلف كما حفظته ذاكرته
ولم يغير إلا بعض الأسماء

هذا الكتاب مُهدى إلى
هيلينا فيلاغرا

في التاريخ، كما في
الطبيعة، التعفُّنُ
مخبر الحياة

كارل ماركس

الريح في وجه الحاج

في كراكاس، حدّثتني إيدا أرماس عن جدّها الأكبر، عن القليل الذي تَعرفُهُ، لأن القصةَ بدأت عندما كان يناهز السبعين عاماً ويعيشُ في قرية صغيرة في أعماق منطقةِ كلارينس. كانَ أبو الجدِّ بالإضافة إلى أنّهُ هرِم وفقيرٌ وسقيم، أعمى. وتزوج، لا أحد يعرف كيف، من فتاة في السادسة عشرة من عمرها.

وكان يهرب بلمح البصر: يهربُ منها ويصل إلى الطريق. هناك كان يقبعُ بين الأشجار وينتظرُ صوتَ حوافر أو عجلاتٍ. كان الأعمى يخرج إلى مفرق الطريق ويطلب أن يقلّوه إلى أي مكان.

هكذا كانت تتخيله حفيدةُ حفيده الآن: على ظهرِ بغل ميتاً من الضحك في الطرقات، أو جالساً في الجزء الخلفيّ من عربة، تلفّهُ سحب الغبار ويهزّ مبتهجاً ساقيه اللتين لعصفور.

أغمض عينيّ فأكون في عرض البحر

فقدتُ العديدَ من الأشياء في بوينس أيرس. لا أحد يعرف، بسبب العجلة أم بسبب سوء الحظّ، إلى أين انتهى بها الأمر. خرجت ومعي القليل من الملابس وحفنة من الأوراق.

أنا لا أشكو. البكاء على الأشياء، بعد كل الذين خسرناهم من أشخاص، إهانة للألم.

حياة غجرية. تُرافقني الأشياءُ وترحل. تكون معي ليلاً وأفقدها نهاراً. لستُ أسيرَ الأشياء؛ هي لا تقرر أي شيء.

حين انفصلتُ عن غراثييلا، تركتُ البيتَ في مونتيفيديو كما هو. بقيت هناك القواقع الكوبية والسيوف الصينية وطنافس غواتيمالا والأسطوانات وبقيّة الأشياء الأخرى، كلّها. لو أخذتُ معي شيئاً من المنزل لكان ذلك عملية نصب. كلُّ هذا كان لها، الزمن المشترك ، الزمن الذي أنا مُمتَن له؛ وخرجتُ إلى الطريق، إلى المجهول، نظيفاً، خفيفاً.

ستحتفظ الذاكرةُ بما هو جدير بالحفظ. الذاكرة تعرف عني أكثر منّي؛ وهي لا تضيع ما لا يستحق الضياع.

حرارة دواخلي: المدنُ والناس، مسلوخون عن الذاكرة؛ يبحرون نحوي: الأرض التي ولدتُ فيها، الأولاد الذين أنجبتهم، الرجال والنساء زادوني روحاً.

بوينس أيرس أيّار 1975: النفط موضوع مدمّر

1

عُثر أمس على صحفي من *لا أوبّينيون* (الرأي)، اسمه خورخِ مونِي، مقتولاً قرب إيزيزا. كانت أصابعه محروقة وأظافره مقتلعة.

في مكتب تحرير المجلّة سألني بيّار أراوخو وهو يعض على غليونه:

- ومتى سيأتي دورنا؟

ضحكنا.

في طبعة كريسيس (أزمة)؛ الموجودة الآن في الشارع، نشرنا الجزءَ الأخير من تقرير بيّار عن النفط في الأرجنتين. يُدينُ المقالُ النظام الاستعماري لعقود النفط السارية في البلاد ويسرد تاريخَ الصفقاتِ بإرث عارها وجريمتها كلّه.

يكتب بيّار: حين يدخل النفط في الموضوع، لا يعود هناك ميتات عرضيّة. في تشرين الأول من عام 1962 وفي فيلا في بيّا بيستا، تلقّى تيبور بيريني ثلاثَ رصاصات من زوايا مختلفة وفي مناطق متفرقة من جسده. كان هذا، وفقاً للتقرير الرسمي، عملاً انتحارياً. بطبيعة الحال لم يكن بيريني بهلواناً، بل مستشاراً رفيع المستوى في شركة شل. كان أيضاً على ما يبدو عميلاً مزدوجاً أو ثلاثياً للشركات الأميركية. وفي الآونة الأخيرة، في شباط من هذا العام، عثر على جثة أدولف غاباّيي. غاباّيي، الذي كان رئيس نقابة عمال النفط، وحلت به مصيبة. بفقدانه للسلطة صفا ذهنه. راح مؤخراً يوصي بتأميم شامل للنفط. كان له نفوذ كبير خصوصاً في المجال العسكري. لمّا درزوه بالرصاص في فيلا سولداتي، كان يحمل في يده حقيبة. الحقيبة اختفت. وذكرت الصحفُ أنّ الحقيبةَ كانت مليئة بالنقود. إذن كانت السرقة هي الدافع للجريمة.

يربط بيّار هذه الحالات الأرجنتينية مع غيرها من الجرائم الدولية التي تفوح منها رائحة النفط. ويحذر في مقاله: "إذا علمت أيها القارئ، بعد كتابةِ هذه السطور، أنّ حافلةً دهستني وأنا أعبر الشارع، فكّر بالسيّئ وستصيبُ".

2

مستجدات. بيّار ينتظرني مذعوراً جدّاً في مكتبي. لقد اتصل به شخصٌ وقال له بصوتٍ عصبي إن حقيبة غاباّيي لم تكن تحتوي على نقود بل على وثائق.

لا أحد يعرف ما هي طبيعة الوثائق. أنا فقط من يعرف. وأعرف لأنني أنا من أعطاها له. أنا خائف. أريدك أن تعرفَ أنتَ أيضاً بهذا يا بيّار. فالحقيبة احتوت... وعند هذه النقطة، كليك، قُطِعَ الاتصال.

3

ليلة البارحة لم يذهب بيّار أراوخو لينام في منزله.

4

قلبنا السماءَ والأرض. أعلن الصحفيون إضراباً. صحف الداخل لم تصدر اليوم. وعد الوزيرُ بأنه سيهتم بالموضوع شخصياً. الشرطة نفت وجودَ أي معلومات لديها. في المجلة تلقينا مكالمات مجهولة بمعلومات متضاربة.

5

ظهر بيّار أراوخو الليلة الماضية حيّاً على طريق خالية بالقرب من إيزيزا. وقد تُرك هناك مع أربعة أشخاص آخرين.

أمضى يومين دون طعام أو شراب ورأسه في كيس. استنطقوه بين أشياء أخرى عن مصادر المعلومات في مقالاته. لم يرَ من أولئك الرجال سوى أحذيتهم.

أصدرت الشرطة الاتحادية بياناً بشأن هذه المسألة، يؤكد أن بيّار كان قد اعتُقِلَ خطأً.

قبل عشر سنوات، حضرت التدريب العام على هذا العمل

1

كم عدد الرجال الذين سيُقتلعون من منازلهم الليلة ويُرْمَونَ في القفار وفي ظهرهم بضعة ثقوب؟

كم واحد منهم ستُبتر أعضاؤه، ويُفجّرُ ويُحرق؟

يخرجُ الرعبُ من الظلمة، يفعل فعلته ثم يعود إلى العتمة. عينان حمراوان في وجه امرأة، كرسي فارغ، باب تشظّى، أحدٌ ما لن يعود: غواتيمالا عام 1967، الأرجنتين عام 1977.

ذلك العام كان قد أُعْلِنَ رسمياً "عامَ السلام" في غواتيمالا. لكن لم يعد أحد يصيد سمكاً في منطقةِ غوالان، لأنّ الشباك لا تصطاد غير جثث بشريّة. يعيد المدُّ اليومَ أشلاء بشر إلى شواطئ نهر لا بلاتا. قبل عشر سنوات، كانت الجثث تظهر في مياه نهر موتاغوْا أو يُعثَرُ عليها فجراً في الجروفِ أو على أطراف الطرقات: هذي الوجوه التي لا ملامح لها لن يُعْرَفَ أصحابها أبداً. تلي التهديداتِ عملياتُ الخطفِ والتفجير والتعذيبِ والاغتيال. لا نوَا (المنظمة المناهضة للشيوعيّة)، كانت تُعلن أنّها تعمل "إلى جانب جيش غواتيمالا"، كانت تقتلع ألسنة أعدائها وتقطع أيديهم اليسرى. لامانو (الحركة القومية المنظمة المعادية للشيوعية) التي كانت تعمل ضمن نطاق الشرطة تُعلّم أبواب من تدينهم بصليبٍ أسود.

في قاع بحيرة سان روكي في قرطبة، تظهر الآن جثثُ شدّت بالحجارة، كما عثر الفلاحون الغواتيماليون بالقرب من بركان باكايا على مقبرة سِرِّيّة مليئة بالعظام والجثث المتَفَسِّخة.

2

في غرف التعذيب، يتناول القائمون بالتعذيب غداءهم أمام ضحاياهم. تتمّ مساءلة الأطفال عن مكان وجود آبائهم. يعذّب الآباء بالكهرباء ويُعلقون لكي يفصحوا عن مكان أولادهم. وقائع كل يوم: "أفراد يرتدون ملابس مدنية تغطي وجوههم قلنسوات سوداء ... جاؤوا راكبين أربع سيارات فورد فالكون ... كلهم مسلحون

بالمسدسات والرشاشات وبنادق الإيتاكا ... وصلت طلائع الشرطة بعد ساعة من المذبحة". السجناء الذين أُخذوا من السجون، يموتون بحكم قانون الهاربين أو في معارك لا يوجد فيها إصابات أو خسائر من جانب الجيش. فكاهة بوينس أيرس السوداء: "نحن الأرجنتينيين —يقولون– ننقسم إلى مذعورين وسجناء ومدفونين ومنفيين". أُلحقت عقوبة الإعدام بقانون العقوبات في منتصف 76؛ لكن القتلَ في البلاد يتمّ كل يوم دون محاكمة أو حكم. في الغالب، هم قتلى بلا جثث. الديكتاتورية التشيلية لم تتأخر في تقليد هذا النهجَ الناجح. إعدام واحد رمياً بالرّصاص يمكن أن يؤدي إلى فضيحة عالمية: بالنسبة لآلاف المفقودين، هناك دائماً استفادة من الشك. كما في غواتيمالا، الأقارب والأصدقاء يقومون بالتنقّل الخطير، بلا جدوى، من سجن إلى آخر، من ثكنة إلى ثكنة، بينما الجثثُ تتعفن في الجبال ومقالب القمامة. تقنيات الاختفاء: لا يوجد سجناء للمطالبة بهم ولا للسهر عليهم. تبتلع الأرض الرجال والحكومة تغسل يديها: لا يوجد جرائم ليتم الإبلاغ عنها وإيجاد تفسيرات لها. كل ميت يموت عدة مرات وفي النهاية لا يبقى في نفسك سوى ضباب من الرعب وعدم اليقين.

3

لكن غواتيمالا كانت أوّل مخْبَر أمريكي لاتيني لتطبيق الحرب القذرة على نطاق واسع. رجال دربتّهم ووجّهتهم وسلحتهم الولايات المتحدة يقومون بتنفيذ خطة الإبادة. كان العام 1967، ليلَ سانت بارولومي الطويل.

كان العنف قد بدأ في غواتيمالا قبل سنوات حين غطّت طائراتُ ب ـ 47 التابعة لكاستيّو أرماس السماءَ ذاتَ مساء من حزيران عام 1954. أُعيدَتْ بعدها الأرضُ إلى شركة يونايتد فروت وأُقِرّ قانون نفطٍ جديد مترجماً عن الإنجليزية.

في الأرجنتين، ظهر تامش (التحالف الأرجنتيني المناهض للشيوعية) للعلن في تشرين الأول من عام 1973. إذا كانت الحرب القذرة في غواتيمالا قد اندلعت لسحق الإصلاح الزّراعي بالدم والنار، وتضاعفت بعدها لمحوهِ من ذاكرة الفلاحين الذين لا أرض لهم، فإن الرعب في الأرجنتين بدأ عندما خيّبَ خوان دومينغو بيرون، وهو في السلطة، الآمال التي كان قد أيقظها خلال منفاه الطويل في السهوب. فكاهة بوينس أيرس السوداء: "السلطة كالكمان–يقولون– تؤخَذُ باليسرى وتُعْزَفُ باليمنى". ثم؛ وفي أواخر صيف 1967، استولى العسكر على لاكاسا روسادا (البيت الوردي). الآن الرواتب تساوي نصفَ قيمتها. تضاعفت أعدادُ العاطلين عن العمل. الإضرابات محظورة. عادت الجامعات إلى العصور الوسطى. استعادت الشركاتُ الكبرى متعددةُ الجنسيات توزيعَ المحروقات والودائع المصرفية وتجارة اللحوم والحبوب. القانون الجنائي الجديد يسمح بنقل الدعاوى القضائيّة بين الشركات والأمّة إلى محاكم بلدان أخرى. يُلغى قانونُ الاستثمار الأجنبي: صار باستطاعتهم أن يأخذوا ما يريدون.

في الأرجنتين تقام طقوس أزتيكية. لأيّ إله أعمى يُقدّم كل هذا الدم؟ هل يمكن فرض هذا البرنامج على الحركة العمالية الأفضل تنظيماً في أمريكا اللاتينية دون دفع الثمن خمسَ جثثٍ يومياً؟

الكون كما يُرى من ثقب الباب

طلبت باليريا من والدها أن يقلب الاسطوانة. يُوَضِّح لها أن *الأرز بالحليب* يعيش على الجانب الآخر.

يتحدَّث دييغو مع زميله الداخلي الذي اسمه أندرِس، ويأتي ليصير الهيكل العظمي.

تروي فاني أنها غرقت وصديقتها اليوم في نهرٍ المدرسة العميق جداً، وأنّ كل شيء من هناك من الأسفل كان شفافاً، وأنهما كانتا تُشاهدان أقدام الناس الكبار ونعالَ أحذيتهم.

يُمسك كلاوديو إصبع أليخاندرا ويقول لها: "أعيريني إصبعك" ثم يغطّه في وعاء الحليب الموجود على موقد الغاز، لأنّه يريد أن يعرف ما إذا كان الحليب غير ساخِن كثيراً.

من الغرفة تناديني فلورنسا وتسألني عمّا إذا كان باستطاعتي أن ألمس منخاري بشفتي السفلى.

يقترحُ سِباستيان أن نهربَ في طائرة، لكنه يُحذرني بأن علينا أن ننتبه إلى إشارات المرور والمروحة.

تدفعُ ماريانا الجدار في الشرفة، وهي طريقتها في مساعدة الأرض على الدوران.

يحمل باتريثيو عودَ ثقاب مشتعل بين أصابعه وطفله ينفخ وينفخ الشعلةَ الصغيرة التي لن تنطفئ أبداً.

من بقي حيّاً من الفتية الذين تعرفت عليهم حينما في الجبال؟

1

كانوا فِتيةً في نعومة أظافرهم؛ طلاب المدينة وفلاحو مناطق حيث كان لِترُ الحليب يكلف عملَ يومين كاملين. كان الجيش يتعقّبُهم وكانوا هم يحكون النكاتِ الرذيلةَ ويموتون من الضحك.

أمضيت معهم بضعة أيام. كنّا نأكلُ كعكَ الذرة. وكانت الليالي باردة جداً في أعالي أدغال غواتيمالا. كنا نفترش الأرض، الكلّ معانقاً الكلَّ، ملتصقاً به كي نشعرَ بالدفء فلا يقتلنا صقيع الفجر.

2

كان بين رجال حرب العصابات بضعة هنود. وكان كلّ جنود العدوّ هنوداً تقريباً. كان الجيش يصطادهم عند خروجهم من الحفلات وحين كانوا يصحون من سكرتهم يجدون أنفسهم باللباس الموحد وسلاحهم في يدهم.

هكذا كانوا يذهبون إلى الجبال، ليقتلوا من كانوا يموتون لأجلهم.

3

في إحدى الليالي أخبرني الفتيةُ كيف تخلّصَ كاستيلو أرماس من ملازمٍ خطير. كي لا يسرق منه السلطة أو النساء، أرسله كاستيلو أرماس في مهمة سرية إلى ماناغوا. حمَّلَهُ مُغَلَّفاً مختوماً للدكتاتور سوموزا. استقبله سوموزا في القصر. فتح المغلف، قرأه أمامه وقال له:

- سيكون ما طلبه رئيسك.

دعاه إلى وليمة مع الشراب.

بعد محادثة لطيفة، رافقه إلى المخرج. فجأة، وجد مبعوثُ كاستيلو أرماس نفْسَهُ وحيداً، والباب موصد خلفه.

كان فصيل الإعدام ينتظره مستعداً وركبه على الأرض.

أطلق الجنودِ جميعاً النار دفعة واحدة.

4

حديث لا أعرف ما إذا كنت قد سمعته أم تخيّلته في تلك الأيام:

– ثورة من البحر إلى البحر. البلد بأكمله ثائر. وأفكّر أن أراه بأمِّ عينيَّ هاتين...

– وهل سيتغير كل شيء، كل شيء؟
– حتى الجذور.
– ولن يكون علينا أن نبيع سواعدنا لقاء أي شيء؟
– ولا بشكلٍ من الأشكال.
– ولا أن يتحمّل أن يعاملوا الواحدَ منّا كبهيمة؟
– لن يكون هناك أحد مالكاً لأحد.
– وماذا عن الأغنياء؟
– لن يعودَ هناك أغنياء.
– ومن سيدفع لنا نحن الفقراء إذاً ثمن المحصول؟
– لن يكون هناك فقراء أيضاً. ألا ترى؟
– لا أغنياء ولا فقراء.
– لا فقراء ولا أغنياء.
– إذن ستصبح غواتيمالا بلا شعب. فهنا، كما تعلم، من ليس غنياً، يكون فقيراً.

5

كان نائبُ الرئيس يُدعى كليمنتِ ماروّكين روخاس. كان يدير صحيفة من النوع الصاخب. على باب مكتبه يقف حارسان سمينان برشاشين .استقبلني ماروكين روخاس معانقاً، وقدم لي القهوة. ربت على ظهري ونظر إليّ بحنان. أنا، الذي كنت في الجبل مع المقاتلين حتى الأسبوع الماضي، لم أفهم شيئاً. "إنه فخ"، فكرتُ، كي أشعر بأهميتي.

عندها شرح لي ماروكين روخاس بأن نيوبري، شقيق الطيار الأرجنتيني الشهير، كان صديقه الحميم في سنوات الشباب وبأنّني كنتُ صورةً حيّةً عنه. نسي أنه كان أمام صحفي. استمعتُ إليه وقد

تحوّلتُ إلى نيوبري، يزمجرُ ضدّ الأميركيين لأنهم لم يكونوا يعملون الأشياء كما ينبغي. سرب من الطائرات الأميركية، يقودها طيارون أميركيون انطلق من بنما وقصف بالنابالم الأميركي جبلاً في غواتيمالا. كان ماروكين روخاس غاضباً لأن الطائرات عادت إلى بنما دون أن تحطّ على الأرض الغواتيمالية.

– كان باستطاعتهم أن يهبطوا، ألا تظن ذلك؟ ـ قال لي، فقلت له: أجل أظن ذلك:

– على الأقل، كان باستطاعتهم أن يهبطوا.

6

كان رجال حرب العصابات قد حدّثوني بذلك.

كانوا قد شاهدوا النابالم ينفجر في السماء فوق الجبال المجاورة. وكثيراً ما وجدوا آثار الرغوة المراقة حديثاً: الأشجار محروقة حتى الجذور، الحيوانات متفحمة والصخور سوداء.

7

في منتصف عام 1954، كانت الولايات المتحدة قد ثبتت نغو دينه ديم على عرش سايغون، وصنّعت دخولَ كاستيلو أرماس منتصراً إلى غواتيمالا.

بضربة فأس قضت حملة إنقاذ شركة يونايتد فروت على الإصلاح الزراعي الذي انتزع أراضي الشركة البور ووزّعها على الفلاحين الفقراء.

أطلّ جيلي على الحياة السياسية وعلى جبينه تلك العلامة. ساعات الغضب والعجز... أتذكر الخطيب البدين الذي كان يحدثنا بصوته الهادئ، لكنه كان ينفث النار من فمه، في ليلة الصياح والغضب والرايات تلك، في مونتيفيديو. "لقد أتينا لنندِّدَ بالجريمة ..."

كان اسم الخطيب خوان خوسيه أريبالو. كنت في الرابعة عشرة من عمري ولم تُمحَ الصدمة من ذهني قطّ.

كان أريبالو قد بدأ في غواتيمالا دورةَ الإصلاحات الاجتماعية التي عمّقها جاكوبو أربينز بينما أغرقها كاستيلو أرماس بالدم. حكى لنا أنه خلال حكمهِ أفلت من اثنتين وثلاثين محاولة انقلاب.

بعد سنوات، تحوّل أريبالو إلى مُوظّف. خطير هذا النوع، نوع التائبين: صار أريبالو سفيراً للجنرال أرانا، صاحبَ صلاحيات كبيرة، مديرَ غواتيمالا الاستعماري، ومنظّم المجازر.

حين علمت بالأمر، كنت قد فقدت براءتي قبل سنوات، ولكني شعرت كأني ولَد مخدوع.

8

تعرّفتُ على ميخانغو في العام 67 في غواتيمالا. استقبلني في منزله دون أسئلة عندما نزلت من الجبال إلى المدينة.

كان يحب أن يغني ويشربَ الجرعات الطيّبة ويستمتع بالحياة: لم يكن لديه ساقان ليرقص، لكنّه كان يصفق لينعش للحفلات.

في وقت لاحق، بينما كان أريبالو سفيراً، كان أدولفو ميخانغو نائباً.

بعد ظهر أحد الأيام، ندّدَ ميخانغو بعملية نصب في مجلس النواب. شركة مانيلا للمعادن، التي أسقطت في البرازيل حكومتين، جعلتهم يُعينون مُوظّفاً من الشركة وزيراً للاقتصاد في غواتيمالا. وقّع آنذاك عقداً تقوم بموجبه شركةُ هانا بالشراكة مع الحكومة باستثمار احتياطيات النيكل والكوبالت والنحاس والكروم على شواطئ بحيرة إيزابال. بحسب الاتفاق، ستحصل الدولة على إكراميّة والشركة على مليارات الدولارات. وبوصفها شريكة البلاد، فإن هانا لن تدفع ضريبة الدخل وستستخدم الميناء بنصف السعر.

ميخانغو رفع صوته احتجاجاً.

بعد فترة وجيزة، عندما كان يصعد إلى سيارته البيجو، اخترق وابلٌ من الرصاص ظهره. سقط من على كرسيه المتحرك وقد ملأ الرصاص جسده.

9

كنت مختبئاً في أحدِ مستودعات الضواحي، أنتظر أخطر رجل مطلوب من الشرطة العسكرية في غواتيمالا. كان يُدعى روانو بينثون، وكان أيضاً، أو سبق أن كان شرطياً عسكرياً.

– أترى ذلك الجدار. اقفزْ. هل تستطيع؟

لويت رقبتي. جدار الدكان الخلفية كان لا ينتهي أبداً.

– لا: قلتُ.

– لكن إذا جاءوا، هل ستقفز؟

مرّة أخرى مع القفز. سأطير إذا هم أتوا. الذعر يجعل من أي شخص بطلاً أولمبياً.

لكنّهم لم يأتوا. وصل روانو بينثون في تلك الليلة واستطعتُ أن أتحدّث معه مُطولاً. كان يرتدي سترة جلدية سوداء وتوتره يجعل عينيه ترقصان. كان روانو بينثون قد انشقّ.

كان الشاهد الوحيد الذي لا يزال حيّاً، على مجزرة قرابة العشرين من القادة السياسيين الذين صُفّوا عشيةَ الانتخابات.

حدث ذلك في ثكنة ماتاموروس. كان روانو بينثون أحد رجال الشرطة الأربعة الذين حملوا الأكياسَ الكبيرة والثقيلة إلى الشاحنات. انتبه للأمر لأن كمّيه اصطبغا بالدم. في مطار لا أَوْرورا صعدوا بالأكياس إلى متن طائرة 500 تابعة للقوات الجوية. بعد ذلك، ألقوا بها في المحيط الهادئ.

كان قد رآهم يصلون أحياء إلى الثكنة محطّمين من الضرب. ورأى وزيرَ الدفاع نفسه يقود العملية.

من بين الرجال الذين حملّوا الجثامين كان روانو بينثو الباقي الوحيد. واحد منهم أصبح وخنجر في صدره على سرير في نزلِ لا بوسادا. وآخر تلقى رصاصة في ظهره في حانة في زاكابا، والثالث درزوه بالرصاص في البار الذي يقع خلف المحطة المركزية.

لماذا ينوح الحمام عند الفجر؟

لأن عُكليّاً (ذكر الحمام) ذهب ذات ليلة مع حمامة إلى حفلة راقصة، وقتلَ العكليَّ أحدٌ كان يكرهه في مشاجرة. كان الرقص لطيفاً جداً، ولم ترغب الحمامة أن تتوقف عن الانشراح. "سأغني هذه الليلة - قالت - وسأبكي في الصباح." وبكت عندما أطلت الشمس في الأفق. هكذا حكت لي مالينا أغيلار أنَّ جدتها حكت لها، وهي امرأة لها عينان رماديتان وأنف ذئب، كانت تسحرُ أحفادَها في الليالي حول موقد الفحم، بحكايات الأرواح المعذّبة والمذابح.

كانت المأساة نبوءة حقيقة

1

في منتصف عام 73، عاد خوان دومينغو بيرون إلى الأرجنتين بعد ثمانية عشر عاماً من المنفى.

كان أكبر تجمع سياسي في تاريخ أميركا اللاتينية كلّه. في مروج إيزيزا وعلى طول الطريق السريع احتشد أكثر من مليوني شخص مع الأطفال والطبول والقيثارات من جميع أنحاء البلاد. استعادَ الشعبُ ذو الصبر الطويل والإرادة الحديدية، زعيمَهُ وأعاده إلى وطنه فاتحاً له الباب الكبير.

كان هناك جو احتفالي. كان الفرح الشعبيّ، الجمال المُعدي، يُعانقني، ينهض بي، ويهدني الإيمان. كانت مشاعلُ الجبهة الواسعة في جادات مونتيفيديو طازجة في شبكيّة عينيّ. الآن، في ضواحي بوينس أيرس، التقى في مخيمٍ هائل بلا حدود العمالُ المتقدمون في السن، الذين كانت البيرونية بالنسبة لهم تمثل ذاكرةَ الكرامة الحية ، والشبابُ، الذين لم تكن لديهم خبرة ما بين العامين السادس والأربعين والخامس والخمسين، كانت البيرونية بالنسبة إليهم أملاً أكثر مِمّا هي حنين.

انتهى الاحتفال بمجزرة. في إيزيزا، في مساء واحد فقط، سقط بيرونيون أكثر مما سقط خلال سنوات المقاومة ضد الديكتاتوريات العسكرية السابقة. "والآن، مَنْ الذي يجب أن يُكرَهَ؟" كان الناسُ يتساءلون مذهولين. سلّح الكمينَ بيرونيون ضد بيرونيين. في البيرونية كان هناك عداوات، عمال وأرباب عمل؛ وفي هذا المسرح كانت القصّةُ الحقيقيّةُ تجري كتناقض مستمرّ.

كشف بيروقراطيو النقابات والسياسيون القذرون ووكلاء أصحاب السلطة في حقول إيزيزا عن عجزهم. باتوا مثل الملك في القصة، عراةً مكشوفين. واحتلّ القتلة المحترفون مكانَ الشعب الذي كان ينقصهم.

التجار الذين طُردوا بسرعة من المعبد، راحوا يتسلّلون من الباب الخلفي.

ما حدث في إيزيزا كان نذيراً لما سيأتي لاحقاً. "للّه هيبة لأنه قليلاً ما يظهر"، قال لي بيرون قبل سنوات في مدريد. استمرت حكومة هيكتور كامبورا مدة قصيرة. بعدها، انفصلت الوعود عن الواقع حتى غابت عن النظر. خاتمة حزينة لحركة شعبية. كانوا يزيدون الرواتب، لكن هذا كان يفيدهم للدلالة على أن العمال هم المسؤولون عن الأزمة. صار ثمن البقرة أقل من ثمن زوج من الأحذية، وبينما انهار المُنتجون الصغار والمتوسطون، راحت الأقلية الحاكمة الحصينة تلعب دور الضحيّة

وتظهر رثّة الثياب وترفع صوتها إلى السماء من خلال الصحف والإذاعات والتلفزيون. لم يكن الإصلاح الزراعي أكثر من فزّاعة من ورق واستمرّوا يفتحون الثقوب التي كانت تتسرّب وتتسربّ الآن عبرها ثروة البلاد. أصحابُ السلطة، كما هو الحال في كلّ أميركا اللاتينية، يؤمنون على ثرواتهم في زيوريخ ونيويورك. هناك يقفز المال قفزة سيرك ليعود إلى البلاد على نحو سحري وقد تحوّل إلى قروض دولية باهظة.

2

هل يمكن تحقيق الوحدة الوطنية من فوق وعبر ورغم الصراع الطبقي؟ كان بيرون قد جسّد هذا الوهم الجماعي.

ذات صباح، في الأيام الأولى من المنفى، وضّح الزعيمُ لمُضيفِهِ، في أسونثيون الباراغواي، الأهمية السياسية للابتسامة.

ـ هل تريد أن ترى ابتسامتي؟ قال له.

ووضع له طقم أسنانه الاصطناعية في كف يده.

دارت السياسةُ الأرجنتينيةُ ثمانيةَ عشرَ عاماً حولَ هذا الرجل معه أو ضده. لم تكن الانقلابات العسكرية المتعاقبة أكثر من تكريمِ الخوفِ للحقيقة: لو كانت هناك انتخابات حرة لفازت البيرونية. كل شيء يتوقف على بركات ولعنات بيرون، على إشارة بالإبهام إلى أعلى، إشارة بالإبهام إلى أسفل، وعلى الخطاباتِ التي كان يكتبها من بعيد، باليد اليسرى أو اليمنى، يُعطي أوامرَ دائماً متناقضة للرجال الذين كانوا يخاطرون بحياتهم من أجله.

قال لي بيرون في مدريد في خريف عام 66:

"هل تعرف ماذا يفعل الصينيون ليقتلوا عصافيرَ الدوري؟ يمنعونها من أن تحطّ على أغصان الأشجار. يضايقونها بالعصي ولا يتركونها تحطّ، إلى أن تموت في الهواء؛ تنفجر قلوبها وتسقط على الأرض.

يحدث للخونة ما يحدث لهذه العصافير. يكفي أن تضايقهم، ألاّ تسمح لهم بالراحة، لينتهوا بالسقوطِ على الأرض. لا، لا ... كي تستخدم الرجال تحتاج إلى تحليقُ النسر لا الدوري، إدارة استخدام الرجال فنٌّ بدقّةٍ عسكرية. الخونة يجب أن تتركهم يُحلقون، لكن بشرط ألاّ تمنحهم فرصة لأن يرتاحوا، وتنتظر بعدها العناية الإلهيّة لتفعل فعلها. يجب أن يُترك للعناية الإلهية أن تفعل فعلها ...

في لحظة الحقيقة، عندما استعادت البيرونية السلطةَ تشظّت، تشظّت قبل أن يُتَوفى الزعيم بمدّة.

3

كان خوسيه لويس نيل واحداً من ضحايا مذبحة إيزيزا. مزّقت رصاصةٌ عمودَهُ الفقريّ فأصيب بالشلل.

قرّر ذاتَ يومٍ أن يضعَ حدّاً لعجزهِ وعذابهِ.

اختار التوقيتَ والمكانَ: ممرّ على مستوى محطة قطارٍ بلا قطارات. جرّه شخص ما إلى هناك على كرسيّه المتحرك ووضعَ في يده مسدساً مُلقّماً.

وكان خوسيه لويس عسكريّاً جبّاراً، نجا من الرصاص والسجون وسنوات الجوعِ والتخفّي.

ولكنّه عضّ عند ذلك على السبطانة وضغط على الزناد.

توهج يتأخر بين الأجفان

حدث هذا المساء على رصيف السكة الحديديّة بينما كنت أنتظر القطار إلى برشلونة.

أنار الضوء الأرض بين السكك. اكتسبت الأرض فجأة لوناً فاقعاً جدّاً، كما لو أنّ الدمَ صعد فيها فانتفخت تحت السككِ الزرقاء.

أنا لم أكن سعيداً، لكن الأرض كانت سعيدة ودامت سعادتها ديمومةَ تلك اللحظةَ الطويلة، وكنت أنا من يملك الوعيَ ليعرف ذلك والذاكرةَ ليُسَجِّلَه.

وقائع الطارد وسيدة الليل

تعارفا فجراً في أحد البارات الفاخرة. في الصباح، يستيقظ في سريرها. إنها تسخّن القهوة. يشربانها من الفنجان نفسه. يكتشف أنّها تقضمُ أظافرها وأنَّ لها يدي فتاة صغيرة، جميلتين. لا أحد يقولُ للآخر شيئاً. بينما هو يرتدي ملابسه، راح يبحثُ عن كلماتٍ ليوضح لها أنه لا يستطيع أن يدفع لها. تقولُ لهُ، دون أن تنظر إليه، كمن لا يريد هذا الشيء:

– لا أعرف حتى اسمك. لكن ابقَ، إذا أردت. البيت ليس قبيحاً.

ويبقى.

لا هي تطرحُ أسئلةً، ولا هو.

في الليل، هي تذهب إلى العمل. وهو يخرج قليلاً أو لا يخرج.

تمر الشهور.

وذات فجر تجد السرير فارغاً وعلى الوسادة رسالة تقول:

وددتُ لو أحمل معي يداً من يديكِ. سرقت منك قفازاً. اغفري لي. أقولُ لك وداعاً وألف شكر على كل شيء.

هو، يَعبرُ النهرَ بوثائق مزورة. بعدَ أيامٍ قليلة، يُلقى القبضُ عليه في بوينس أيرس. يقعُ بمصادفة سخيفة. منذ سنة وهم يبحثون عنه.

يشتمه العقيد ويضربه. يرفعه من ياقته:

"ستقول لنا أين كنت. ستقول لنا كلَّ شيء".

أجاب أنه كان يعيش مع امرأة في مونتيفيديو. العقيد لا يصدّقُ. يريه صورتها: تجلس عارية على السرير، يداها على نُقرتِها، شعرها الأسود الطويل ينزلق فوق ثدييها.

– مع هذه المرأة – يقول– في مونتيفيديو.

ينتزعُ العقيدُ الصورةَ من يده ثمّ فجأة يغلي غضباً ويضرب بقبضته على الطاولة صارخاً، ابنة القحبة، الساقطة الخائنة، ستدفع لي الثمن، هذه البائسة، نعم ستدفع لي الثمن.

حينها انتبهَ. كان بيتها مصيدة رُتِّبَ لاصطياد أمثاله. يتذكر ما قالته له ذات ظهيرة بعد الحب:

– هل تدري؟ لم أشعر أبداً مع أي شخص بهذا...بفرح العضلات هذا.

ولأول مرة يفهم ما أضافته وظل غريب في عينيها:

– كان لا بدّ أن يحدث لي ذات مرّة، أليس كذلك؟ قال: اللعنة. أعرف كيف أخسر.

(حدث هذا في العام 1956 أو1957، عندما كان الأرجنتينيون المحاصرون بالديكتاتورية يعبرون النهر ويختبئون في مونتيفيديو.)

الكون مشاهد من ثقب الباب

في الصف، كانت إلسا وآل تجلسان معاً. في الاستراحة كانتا تتمشيان سويّةً في الساحة آخَذة الواحدة بيد الأخرى. تحلّان الواجبات معاً وتتقاسمان الأسرار والشقاوات.

ذات صباح، قالت إلسا إنّها تحدثت إلى جدتها الميتة.

من وقتها والجدة ترسل لهما الرسائل بين فترة وأخرى. كلما أغرقت إلسا رأسها في الماء، تسمع صوت جدتها.

مع الوقت، صرّحت إلسا:

– تقولُ الجدّةُ إنّنا سنطير.

حاولتا ذلك في ساحة المدرسة وفي الشارع. ركضتا في دوائرَ وخطوطٍ متوازية، إلى أن سقطتا منهكتين. وقد سقطتا على الأرض عدة مرات من على العوارض.

غاصت إلسا برأسها فأخبرتها جدتها:

– ستطيران في الصيف.

جاءت العطلة. سافرت الأسر إلى منتجعات مختلفة.

في أواخر شباط، عادت إلسا مع والديها إلى بوينس أيرس. جعلتهم يوقفون السيارة أمام منزل لم يسبق لها أن رأته من قبل.

فتحت آل الباب.

– هل طرتِ؟ سألتها إلسا.

– لا: ردّت آل.

– ولا أنا: أجابت إلسا. تعانقتا وهما تبكيان.

بوينس أيرس، تموز 1975، في العودة من الجنوب

سيقَ أن ذهبَ كارلوس بعيداً. كان طباخاً في الفنادق، مصوّراً على الشواطئ، صحفيَّ الفرصةِ، رجلاً بلا مأوى. أقسم ألاّ يعود قط إلى مونتيفيديو.

هو الآن في بوينس أيرس، لا يملك فلساً واحداً في جيبه وهويته ممزقة ومنتهية الصلاحيّة.

كان الواحد مّنا مديناً للآخر بكلمات كثيرة. سافرنا في عطلة نهاية الأسبوع إلى الساحل لتجديد أنفسنا.

تذكرتُ أنّني منذ عشرين عاماً وأنا أستمع باندهاش طفل إلى قصص تنقله بين كاراته (حِرفه) السبعة التي قام بها بين حقول الأرز الشرقية ومزارع قصب السكر في شمال الأوروغواي. حينها شعرتُ لأول مرة بأنّني صديق هذا الرجل. حدث ذلك في مقهى توبي نامبا في ساحة إندِيندنثيا (الاستقلال). كان لديه قيثارة. كان قوّالاً وشاعراً مولوداً في سان خوسيه.

مع مرور السنين، اشتُهر بالعربدة وصار منذ عودته من الباراغواي يسكرُ دائماً. أمضى عاماً سَجيناً في أحد معسكرات الاعتقال، في مقالِع

تاكومبو. لم تُمح من ظهره أبداً علامات الضرب بالسلاسل. نتفوا حواجبه وشواربه بالسكين. كان الجنود ينظمون كلّ يوم أحدٍ سباقات جري خيولها السجناء، بلجام وبكل ما يلزم لخيل السباق، بينما يشرب الكاهن المتةَ الباردة تحت شجرة الظلّ الجميل (أومبو)، ويضحك ممسكاً ببطنه.

كان كارلوس عدوانيّاً وصامتاً، يسيء معاملة نفسه في دخيلته. يمضي باحثاً بعينه عن أعداء في مقاهي وخمارات مونتيفيديو. في الوقت ذاته، كان يُشكّل عيداً بالنسبة إلى أولادي، ما من أحد يحكي لهم قصصاً وترهاتٍ بمثل تلك الظرافة. لم يكن يوجد في العالم مهرج قادر على جعلهم يتدحرجون من الضحك كما كان يفعل. كان كارلوس يأتي إلى البيت، يضع مئزراً ويطبخ فرّوجاً على الطريقة البرتغالية أو أطباقاً يخترعها كي نتلذّذ بها نحن، فهو كان دائماً رجلاً قليل الطعام.

الآن كنّا عائدين من الساحل باتجاه بوينس أيرس. ساعات طويلة في الحافلة بلا نوم ونحن نثرثر. كلمني عن مونتيفيديو. ما من أحد منّا أتى طيلة نهاية الأسبوع على ذكر مدينتنا. لم يكن باستطاعتنا أن نذهب إليها، لذلك كان من الأفضل لنا أن نسكت.

مسهباً في أحزانه حدّثني عن باتشا:

– وصلت ذات ليلةٍ متأخراً جداً وذهبت إلى الفراش دون أن أُحدث صوتاً أو أُشعل ضوءاً. لم تكن باتشا في السرير. بحثت عنها في الحمام وفي الغرفة حيث ينام ابننا. لم تكن هناك. وجدت باب غرفة الطعام مغلقاً. ذهبت لأفتحه وأدركت: على الجانب الآخر كانت البطانيات على الأرض. في صباح اليوم التالي انتظرتها في المطبخ كي نشرب المتة كما هي العادة دائماً. لم تعلّق باتشا بشيء.

كذلك أنا. ثرثرنا قليلاً عن الأشياء المعتادة، عن حلاوة أو بشاعة الطقس وعن كم هي شرسة يد السياسة، أو ناوليني المتة لأُقَلِّبها كي لا تفقد طعمها. وعندما وصلتُ ليلاً، وجدتُ السريرَ فارغاً. مرّةً أخرى كان بابُ غرفة الطعام موصداً. وضعت أذني وأظنُّني سمعت نَفَسَها. جلسنا في الصباح الباكر في المطبخ لنشرب المتة. لم تقل شيئاً وأنا لم أسأل. في الثامنة والنصف وصل طلابها كما في كلّ يوم. وهكذا لمدة أسبوع: السرير من دونها، الباب موصَد. إلى أن قلتُ لها ذات صباحٍ بعد أن شربت آخر كأس متة: "انظري يا باتشا، أعرف أن النوم على الأرض غير مريح جداً. لذا تعالي إلى الفراش هذه الليلة، ببساطة لأني لن أكون هناك." ولم أعد بعدها أبداً.

إنها ساعة الأشباح: أستحضرها، أطاردها ثم أصطادها

أرسمها بالتراب والدم على سرير الكهف. أُطِلُّ على نفسي بعينيٍّ الإنسان الأوّل. وأشعر طوال الاحتفالية بأنّ ذاكرتي تتّسع لكل تاريخ العالم، منذ أن حَكَّ ذلك الإنسانُ حجرين ليتدفأ بالنار الأولى.

النظام

كان عمري أربعةَ عشر أو خمسةَ عشر عاماً، أعملُ ساعياً في أحدِ البنوك. كنت أقضي فترةَ ما بعد الظهر أصعدُ وأنزلُ الأدراج بتلالٍ من السجلات بين ذراعيّ. أبقى واقفاً في الزاوية مثل جنديٍّ صغير، مشدوداً إلى الأجراس والأضواء أو الأصوات.

كان مجلس إدارة البنك يجتمع يوم الجمعة في الطابق العلوي. خلال الاجتماعات، يجعلك المدراءُ تسقيهم القهوةَ عدة مرات. كنت أركضُ إلى المطبخ لتسخينها. إذا لم يكن هناك شهود أتركها تغلي كي يصابوا بالإسهال.

ذات يومٍ جمعة دخلتُ حاملاً الصينية كالعادة فوجدت القاعةَ الكبيرة فارغة. على الطاولة المصنوعة من خشب الماهوغوني رُتبت المجلداتُ جيداً وعلى كلّ منها اسم كل مدير وحولها الكراسي الفارغة. وحده السيد ألكورتا كان يجلس في مكانه. عرضت عليه القهوة فلم يرد. كان قد وضع نظارته وراح يقرأ ورقة. قرأها عدة مرات. رحتُ أنظرُ من خلف ظهره إلى عروق رقبته الورديّة وأعدُّ النمشَ على يديه. كانت الرسالة نص استقالته. وقّعَها، رفع نظارته وظلّ جالساً ويداه في جيبيه يُحدق في الفضاء. سعلتُ. ثمّ سعلتُ من جديد. لكنني لم أكن موجوداً. الصينية المليئة بفناجين القهوة تُشنّج ذراعيّ.

عندما عدتُ لأجمع المجلدات وآخذها إلى السكرتارية، كان السيد ألكورتا قد غادر. أَرتجتُ البابَ وفتحتُ المجلدات كما كنتُ أفعل دائماً، الواحدَ تلو الآخر. في كل مجلد كان هناك طلب استقالة مثل الطلب الذي قرأهُ السيد ألكورتا وأعاد قراءته ثم وقّعَهُ. كل الطلبات كانت موقعة.

يوم الثلاثاء التالي أجرى مجلسُ الإدارة اجتماعاً استثنائيّاً. لم يتلق السيد ألكورتا دعوة للحضور. فقد قرر مجلس الإدارة بالإجماع، أولاً، سحب الاستقالاتِ المُقدّمة يوم الجمعة الماضي؛ ثانياً، قبول استقالة السيد ألكورتا وشكره على خدماته المقدمة، معربين عن أسفهم من أن التزامات جديدة تحتاج إلى إمكانياته التي لا تقدر بثمن.

قرأتُ القرارات في سجلّ المَحاضر عندما أرسلوني لأصعد به إلى الإدارة العامة.

النظام

الذي يبرمج الكمبيوتر الذي ينذر المصرفي الذي يحذر السفير الذي يتناول العشاء مع الجنرال الذي يجتمع بالرئيس الذي يُبلغ الوزير

الذي يهدد المدير العام الذي يهين مدير المؤسسة الذي يصرخ برئيس الدائرة الذي يخيف الموظف الذي يُحَقّر العامل الذي يُسيء معاملة المرأة التي تضرب ولدها الذي يركل الكلب.

النظام

كنا نمشي في جادة لاس رامبلاس، أنفاق صيف برشلونة الرطبة، حين اقتربنا من كشك لبيع الطيور.

هناك أقفاص لعدة طيور وأقفاص لواحد. شرح لي أدوم أنهم يضعون مرآةً صغيرةً في الأقفاص المفردة، كي لا تعرف الطيور بأنها وحيدة.

بعدها حكت غواياسامين أثناء الغداء أشياءَ عن نيويورك. تقول إنها رأت هناك رجالاً يشربون وحيدين على طاولات عرض البارات، وأنّ خلف صفّ القناني توجد مرآة يرميها الرجال أحياناً بالكؤوس في وقت متأخر من الليل فتتطاير مهشّمةً.

الأحلام

جسدانا المتعانقان يبدلان وضعيتهما أثناء النوم إلى هنا وإلى هناك، رأسكِ على صدري، فخذي على بطنك وحين ندير جسدينا يدور السرير وتدور الغرفة والعالم. "لا، لا" توضّحين لي، وقد ظننتك مستيقظة. لم نعد هناك. لقد انتقلنا إلى بلد آخر بينما نحن نائمون."

وقائع حمار بوبو كاتارينو، وكيف وصل القديس جورج خبباً على ظهر حصانه الأبيض وأنقذه من شرور الشيطان

1

تزدان السيارات بدروع بلاستيكية من ألوان (علم) الوطن: البرازيل: لا أحد يستطيع هزيمتك. كان بيليه قد أصبح مدير بنك. خارج المدن

كان المتسولون يتبعون الحافلات السياحية. كانت إعلانات الدودج دارتْ تَعِد: أنت ستغدو من الطبقة الحاكمة. ماركة جيليت تقول: البرازيل، أثق بـكِ. ظهرت جثث فريق الموت مبتورة في بايشا دافلومينسي. خشية أن يتعرف عليهم أحد، شوّهوا وجوههم بالرصاص وبتروا أصابع أيديهم. تعلنُ دو بونت، داو للكيماويات، وشركة شل وستاندرد أويل على صفحات المجلات وعلى الشاشات: جنرال إليكتريك تُخفِّفُ عن البرازيل. في الوهاد، ينام الأطفال على الأرض أو في صناديق من الورق المقوى: مِنْ هناك يشاهدون التلفزيون الذي تمّ شراؤه بالتقسيط. كانت الطبقة العليا تلعب بالإحصاءات؛ الطبقة الوسطى، بالحقيبة. والفقيرة بالرهان على يانصيب الرياضة. من ذا الذي سيستيقظ مليونيراً صباح يوم الاثنين؟ بنّاء عاطل عن العمل، غاسلة ملابس، ماسح الأحذية: سيتم اختيار شخص ما، من بين ثمانين مليون من المعذبين في الأرض ستشير إصبع الله إلى شخص ماصباح الاثنين.

2

كنت أبيتُ عندأرتور بويرنير.

كانت استوديوهات التلفزيون تبعد بضع بنايات عن المنزل. مساء كل يوم أحد، كان المرشحون للفوز بالمسابقات يملؤون الشارع: من يقدر على تناول أكبر كميّة من الموز في ساعة واحدة؟ من هو صاحب أطول أنف في البرازيل؟ ذات مرة احتشد جمهور من الأقزام وكانوا يتبادلون نظرات الكراهية. كان هناك ثروة تنتظر أصغر قزم في البرازيل.

مرة أخرى أجريت بمباراة طويلة للبؤساء. مرّ ركب المعجزات: عاهرات منذ أن كنّ في الثامنة، مشلولون هجرهم أبناؤهم. مكفوفون بسبب الجوع أو الضرب، بْرص، مصابون بالزهري، مدانون مدى الحياة

لجرائم لم يرتكبوها، أطفال قضمت الجرذان أذناً من آذانهم، نساء أمضين سنوات وهنّ مقيدات إلى قدم السرير. يعدون بجوائز رائعة للمنحوس الأكثر نحساً. بعضهم كان يحضر معه إلى القناة مشجعيه. المشجعون يهذون كما في كرة القدم: "فازَ! فاز! ،"كان الحشد يصيح من منطقته.

في الليل كنّا نسمع دويَّ الطبول في منزل أرتور. بوم بوم، إيقاع الحمى والرعد قادم من كوركوبادو. من القمّة يحمي المسيح المدينة بذراعيه. في غابات السفوح، تُقام قداسات وحشيّة. كانت الأشباحُ المنتقمة تأتي إلى هذه الأرض، تحت ضوء القمر والنيران، بالجنةَ التي وعد بها الأنبياء. الموت للمنفى: منازل من أربع علب ودعامتين خشبيّتين مغروستين سرقتا من الجبل. ملاحف من ورق الصحف، أطفال بطان سيقانهم كالدبابيس، وأعينهم مسكونة بالخوف.

في داخل المملكة: تضطرم النار على الأرضية الترابية. وتُسمع الطبول: يتمايل الرجال والنساء، يحلمون في صحوهم ، يطرقون أبواب الحب أو الموت.

دخلنا، مع أرتور، ووجدنا الشيطان في الأسمال.

– "لماذا أُريد الخلاص؟

كان قرناه القماشيان يتدليان فوق عينيه. كان يثب جالساً فوق كومة من زجاج مستعر، عرشه من أعقاب القوارير والقمامة، كان يخبط الأرض بصولجانه المعدني:

– "أنا لا أُريد الخلاص! – كان يشخر من بين النيران. في الجحيم نعيم. والجحيم بيتي. ما من وصيّ عليّ هناك.

كانت الكاهنات بملابسهنّ الحمراء يغنين:

ها هي الشمس قادمة،

ها هو الباهي قادم،

ها هي الشمس تغادر،

ها هو الباهي يغادر.

كان هناك مذبحان اثنان في معبد سيدتنا، سيدة الحبل بلا دنس، أم عيسى: في ذاك الذي في السماء، يتقدم القديس جورج الزنجي على صهوة حصان؛ وفي الآخر الذي في الجحيم، ضوء الشموع الواهن ينكش في الجماجم والصولجانات.

أمواج البحر تخبط...

كان طقس الشيطان عيد فابيلا.

الحياة من دون سحر لا تستوي، لا، لا تستوي

كان بوبو كاتابينو يكشط ديكاً حيّاً، أحمر وأسود الريش، على طول ساقيّ عاشق عاثر.

– فكر بها.

شحذ سكيناً بكراً بحجر المذبح. ونزع ببطء الريش عن عنق الديك. رفع السكين:

– فكّر بالفتاة.

العنق المقطوع تواً يتقدم وينكمش. يفتح العاشق فمه ويشرب.

– هذه الليلة – أعلن بوبو– سيكون على ملحفته بقعة دم. ولن يكون دم جرح أو حيض.

4

امرأة عجوز تنتظر دورها منذ المساء.

– من هو ربّ عملك؟

– بطل حرب.

– أسألك ما اسمه.

– تشارلز مان.

– هذا الاسم ليس من هنا.
– إنه من مكان يدعى الولايات المتحدة الأمريكيّة.
– وكيف حدث وجاء إلى البرازيل؟
– غرق مركبه فجاء إلى هنا.
– أيّ بطل هذا، ماذا يعمل؟
– لديه العديد من الميداليات.
– بطل خراء، هذا هو.
– لا تقل ذلك يا بوبو. ربّ عملي أدميرال.
– أدميرال حوض حمّام.
– ما هذا يا بوبو، لقد خسر إحدى عينيه في الحرب. له عين من زجاج.

– حين يفقد الزنجيٍ بصره – قال بوبو– يبقى بلا عين. لكن الأبيض الغني يشتري عيناً من زجاج. وهل تعرفون ماذا يحدث معه؟ ينقع العين الزجاجيّة في كأس عندما ينام. وفي صباح أحد الأيام يشرب الماء ويبلع عينه الزجاجية فتسدّ مؤخرته، فينظر من مؤخّرته إلى الخارج.

انفجرت الطبول والضحكات. توم انبسط أيضاً: كان احتفالاً ممتعاً. كان توم جدياً سميناً يرتدي زيّ عيسى، يدخن سيجارا و يقرع الطبل بقرنيه. أحضروه ليضحوا به، فأحبّه بوبو. هو الآن يرأس الشعائر: حين كان يهجم على الجدران أو على الناس بقرنيه، كان بوبو يدرك أن ثمة شيئاً غير صحيح يحدث؛ وكان يغادر.

5

يرسم بوبو بطبشورة حمراء وأخرى سوداء علاماتِ إيسو على الأرض الترابية. كبّ باروداً، فحدث انفجار بدخان أبيض.

– يدخل المرض من القدم ومن القدم يخرجِ –أخبرتني إيونيس، كاهنة بوبو– وإن كان يدخل من الفم أحياناً، حين يرسل الجاَر حلوى مسمومة.

كان المريض ، بوجهه الشاحب، وبطنه المنتفخة وقدَميه اللذين لفيل، يشتعل حرارة. رفعه إخوته بشقّ النفس إلى التلّ. أحضروا له زجاجة عرق.

غضب بوبو:

– عندما أقول: ائتوني بزجاجة، هذا يعني: أن تأتوا بسبع. ؟ هل تريد خدمة القديس دون مقابل؟

قام بفحصه وتشخيص ما به:

– يجب تحضير الكفن. هذا السحر مُحكم.

6

كان بوبو يشهر قبضته على الرب ويدعوه بالجلاد والجزار، لكنه في أعماقه كان يعرف بأنّ الأمر يتعلّق بزميل.

– لمَ كلّ هذا الحزن؟

حرّكت الزنجيّة وجهها الذي بللته الدموع. كان لها بطن هائل.

– لا يوجد طفل هنا –أوضح بوبو– هنا عشرون. عشرون توأماً.

لكنها لم تضحك.

– لِمَ كل هذا الحزن يا بنيتي؟

– على ابني يا بوبو.

– على العشرين الذين لديك هنا؟

– أعرف أن ابني سوف يولد ميتاً.

– كيف؟

– أجل يا بوبو.

– من قال لك هذا الهراء؟

– لم يَقُلْهُ لي أحد، لكنني أعرف. جارتي قطعت عهداً. إنها تكرهني. تريد أن تسرقني زوجي. قطعَت عهداً كي يولد ابني ميتاً.

– ومع من قطعت العهد؟

– مع الله.

– مع مَن؟

أمسك بوبو كرشه من الضحك.

– مع الله يا بوبو.

– لا يا ابنتي –قال بوبو، قال الشيطان– : ليس الله بهذه الوحشية كي يفعل ذلك.

7

قبل الفجر، كان بوبو كاتارينو يُغادر عائداً إلى أعماق الجحيم.

يعود إلى الأرض ليلاً، يدخل من قدم حماره، و كان الطبيبَ والمهرجَ، النبيَ ومنتقمَ العشوائيات. الرجل الذي يتلقاه في جسده، حمار بوبو، كان يعمل نهاراً في تنظيف الطائرات في مطار غالياو.

كنّا أنا وأرتورو نصعد إلى سفوح كوركوبادو. وحين يحلّ المساء نتجاذبُ أطراف الحديث مع الحمار، الرجل اللطيف والمتواضع الذي كان يدعونا لتناول القهوة. في منتصف الليل، كنّا نشرب بيرة أو نبيذاً من كأس بوبو. كنّا نَحْضر النشوات والأضاحي، وسمعناه وهو يشتم المؤسسات وحسن السلوك.

كانت له أصوات مختلفة وطرق مختلفة في تسميتنا. كان الـحمار يدعو أرتور بـ كاريوكا ويدعوني بالأوروغوائي؛ بالنسبة لبوبو كنّا

كوريبوكا وفوراغايو. كان بوبو يتحدث بصوت أجشّ للغاية فيه صدى عمرِه الذي يعود لآلاف السنين، والحمار لا يتذكر أي شيء مما كان يقوله ويفعله بوبو من خلاله.

عشية مغادرتي، ودون أن أطلب منه، أهداني بوبو دليل أمان. ألبسني قلادة التنك، كما لو أنه يُقلِّد فارساً وساماً: وضعت ركبة على الأرض ورفعت رأسي، دوّى طبل، غنّت الأصوات.

أغلقت القلادة صدري. لن تدخل صدري طلاقات ولا فجائع مدّة عام...

8

أُصيبت روكسانا ابنة إيونيسِ بالحمى بعد ولادتها بأيام قليلة. لم تتوقف الرضيعة عن البكاء ورفضَت أن تأكل. دثّرتها إيونيسِ وصعدت بها التل إلى ساحة بوبو.

– إنها تموت – قالت له.

– كلا.

مشيا باتجاه الغابة. عمّد بوبو روكسانا بجرحين صغيرين بالخنجر على جبهتها. جعل منها حفيدة له. ثم رمى اثنتي عشرة وردةً بيضاء في الشلال كي يأخذ معه الطاعون إلى أمواج البحر.

من يومها، انضمّت إيونيسِ إلى ساحة بوبو.

9

حكت لي قصة الحمار وبوبو.

كان الحمار صعلوكاً، يعيش مع غيره من المتشردين تحت جسر ريو. في إحدى ليالي الجوع اصطادوا فأراً، فشووه ثم أكلوه. شعر الحمار بشيء غريب في جسده وأغمي عليه. استيقظ وقد تحوّل إلى بوبو كاتارينو. قال:

– الآن أنا ذاهب لأساعد الجميع. عمري آلاف السنين. كي آتي إلى هذه الأرض، اخترت صاحب أكبر معاناة. وراح يغني.
– يسيء بوبو معاملة الحمار: أخبرتني إيونيس. بالأخص وقتَ الصوم الكبير. يحب بوبو أن يرتكب الشرور في أيام الصوم الكبير.
كان يُشَغّله إلى درجة أنّ الحمار لم يكن ينام. وكان يُجبره على أن يشرب البول في الاحتفالات – حكت لي إيونيس.
في يوم من الأيام، تمرّد الحمار:
– أنا لست كلباً لأتحمل هذه الحياة. أنهك نفسي وأشرب البول مقابل الجوع والعوز. لن أقوم بأيّ شيء لأيّ أحد. بالنسبة لي، ليموتوا.
انتهى قوله شعر بالدوار. وأسرّ له صوت في أذنه:
أنت لم تأكل أي شيء، يا سيدي. حتى أنك لم تتناول فطورك. فلنذهب إلى المقهى لنتناول شيئاً. أجل هيّا.
قطع الحمار الشارع وسقط بعنف إلى الخلف. شدّ ذراعه لينهض فسقط من جديد. حاول أن يسند نفسه بإحدى يديه، بوم مرةً أخرى. هشمت الضربات أنفه وفجّت رأسه. عاد إلى التل نازفاً وغاضباً:
– إيّاه أن يخطر له أن ينزل اليوم إلى الأرض. لن أبالي بهذا الشقيّ بوبو بعد الآن.
أنهى الجملة و خرّ أرضاً من الإنهاك غير قادر على أن يتحرك من شدّة الألم. بكى.
ثم هبط أوغورن، القديس جورج، القديس المحارب، ورفعه من إبطيه. من الغريب أن يظهر يوم ثلاثاء، فهو عندما يأتي، يأتي ليلة الجمعة. حكى الحمار له كل شيء وطلب منه أن يساعده. القديس جورج هو الوحيد الذي يُصغي إليه الشيطان.

في تلك الليلة شرب بوبو نبيذاً وبيرة. لم يعد ليطلب البول مطلقاً.
- أحياناً - قالت لي إيونيسِ بأن الحمار يستحق العقاب على عصيانه.

كان الحمار يرتب المذابح، وهو يُعدّ نفسه للذهاب إلى عمله في المطار حين اكتشف كأسَ نبيذ. لقد تركها بوبو له هناك ليغريه. لم يكن الحمار يقدر على أن يشرب سوى أثناء تأدية الشعائر، عندما يكون هو بوبو. تناول رشفة وتلقى صفعة هائلة على فمه. خسر سنّين من أسنانه.

نزل من الربوة ليستقلّ الحافلة فمرّ بعربة جنائزية. توقفت العربة. سمعهم الحمار ينادونه باسمه. وما إن اقترب قليلاً حتى أخذوه من رقبته، كمّموا له فمه وأدخلوه في العربة. بقي ثلاثة أيام وثلاث ليال في منطقة الموت. القديس جورج سحبه من هناك. أحضره على صهوة حصانه الأبيض وأعاده إلى بيته.

10

كان كارلوس ويدمان مراسلاً أجنبياً طلب مني أن آخذه إلى ساحة بوبو ليكتب مقالاً. كنت على وشك مغادرة ريو ولم يكن عندي وقت. لكنّني زوّدته بكلمات السر.

بعد ذلك تلقيت رسالة منه وأنا في مونتيفيديو.

أخبرني أنه كان عند بوبو كاتارينو يوم الجمعة العظيمة وأنهم شووا وأكلوا الجداء السود يومَ الصيام المفروض. استمرت الشعيرةُ حتى صباح اليوم التالي. وكان توم قد حضر وهو يُدخّن التضحيةَ بإخوته. ذبحوا الجداء ببطء كي تتعذّب كلّ العذابات التي خصّنا بها الله نحن البشر فأراحتنا. وكان المدعوون قد شربوا الدم الحار براحات أيديهم.

بعد الانتهاء من تناول الجداء المشوية، شرَّبَ بوبو ضفدعاً عملاقاً خمراً حتى الثمالة. أدخل كل واحد من الورعين في فم الضفدع اسمَ أو

صورة عدوِّه. كان الضفدع ينزلق من يد بوبو. بعد ذلك خاط له فمه بإبر غير مستعملة. صالب الخيط الأحمر بالخيط الأسود ثم أفلته عند الباب فابتعد الضفدع قافزاً كالمجنون.

كنت أعرف أن هذا يعني الموت البطيء. الضفدع يموت من الجوع. لو أرادوا موتاً سريعاً للعدو، لوضعوا الضفدع في نعش صغير ودفنوه تحت شجرة تين، الشجرة التي لعنها المسيح، ولمات الضفدع مختنقاً.

"طلب مني بوبو أن أضع اسماً –كتب لي كارلوس– لم يخطر ببالي أي اسم. لكنني كنت قد وصلت حديثاً من بوليفيا، وكانت صور المجازر بحق عمال المناجم محفورة عميقاً في ذاكرتي. لذا كتبت اسم الجنرال رينيه بارينتوس على قطعة من الورق، طويتها ووضعتها في فم الضفدع ".

عندما قرأت رسالة ويدمان، كان الدكتاتور البوليفي قد احترق حيّاً في واد كانيادون دِل أركِ، وقد لفّه لهب نيران المروحيّة التي أهدتها له شركة غلف أويل.

مدخل إلى الأمومة

في تلك الأيام اكتشفتُ ماريا باديلا.

وُلدَت في أقبية ريّو الفقيرة؛ وخلال بضع سنوات غزت الأحياءَ الفقيرة في شمال المدينة.

كانت بحجم امرأة.

ترتدي جوارب حريريّة وتنورة قصيرة جداً لها فتحة تكشف عن رباط الجوارب وتُعَرّي الفخذين وبلوزة ضيقة نصف مفتوحة عند الصدر.

تغطيها الأساور والقلادات التي قدّمها لها مَن يؤمنون بها. من بين الأصابع ذات الأظافر الطويلة الحمراء، ترتفعُ لفافة تبغ شقراء مفلترة.

كان تمثال ماريا باديلا الشمعي يقف حارساً على أبواب دكاكين الأومباندا. لكن المكان الذي تسكن فيه حقيقةً كان أجساد كاهنات أرضها. كانت ماريا باديلا تدخل في تلك النسوة لتقهقه ضاحكةً وتشرب وتدخن وتتلقى استشارات وتقدم مشوراتٍ وتصلح الأخطاء عبرهنّ حتى أنها كانت قادرة على إغواء الشيطان ليساعد من لديه حاجة.

كانت ماريا باديلا، الإلهة ملعونة، العاهرة المقدّسة تتقمص في الواقع النساء اللواتي امتهنّ العهر. وهنّ كنّ يتقمصن أنفسهنّ بطريقةٍ ما، ولكن بالعكس. كل شعيرة كانت طقسَ كرامة: هل يعتقدون بأني كلبة؟

كل هذا لم يعد موجوداً الآن

أُزيلَ العديد من الأحياء الفقيرة في ريو. ألقوا بها بعيداً عن أعين السياح.

وذهبت معها آلهتها. ما عادت الطبول التي تطلق اللعنات أو تقدّم المساعدةَ تُعَكّر صفوَ أحلام المواطنين.

أغلقت الشرطة أرض بوبو كاتارينو وطردته من المدينة.

مدخل إلى اللاهوت

1

قبل سبع سنوات، كنتُ أعبر ساحة ياياغوا الباردة جدّاً بخطوات بطيئة ويداي غارقتان في سترة سوداء عالية الياقة.

ـ أيها الأب! أيها الأب!

خرج رجل راكضاً من الظلام. أمسك بذراعي. كان باستطاعة أيّ شخص أن يقرأ تحت ضوء المصباح الوحيد السقيم، اليأسَ على ذلك الوجه الضامر. كان يعتمرُ خوذته الواقية ويرتدي سترته، سترة عامل المناجم؛ يُسمع صوته الساعل:

– عليك أن ترافقني أيها الأب، أرجوك.

أوضحت له مراراً أني لست كاهناً، دون جدوى.

– عليك أن تأتي معي أيها الأب، عليك أن تأتي معي.

وعلى الفور أردت أن أصير كاهناً ولو لبضع دقائق. ابن عامل المناجم كان يحتضر.

– إنه الصغير أيها الأب. عليك أن تأتي وتدهنه بالزيت المقدّس. الآن أيها الأب قبل أن نفقده. سمّر أصابعه في ذراعي.

2

هناك عدد قليل من الأطفال في المناجم البوليفية. ولا يوجد مسنّون. هؤلاءِ رجالٌ محكوم عليهم بالموت قبل أن يُتمّوا الخامسة والثلاثين حيث تتفحّم رئاتهم بسبب غبار السيليسيوم.

السماء وحدها لا تكفي.

قبل ذلك، كان إبليس شخصيّاً يفتتح كرنفال المنجم. يدخل راكباً علىَ صهوة حصان أبيض عبر شارع أورورو الرئيسي. اليوم، تجذب رقصات الشيطان غفراً من السياح من جميع أنحاء العالم.

لكن الشيطان لا يحكم المناجمَ في شباط فقط. عمال المناجم يلقّبونه بالعمّ، وقد نصبوا له عرشاً في كل نفق. العمّ هو مالك المنجم الحقيقي: يمنح أو يرفض أن يمنح عروق القصدير، يضلّل في المتاهات من يريد أن يُضلّله أو يرشد خفية أبناءه المفضلين إلى عروقها. يُنقذُ من الانهيارات الأرضية أو يُثيرها. لفظ اسم يسوع داخل النفق أمر قاتل،

مع أنّ استحضارَ العذراء ممكن دون مخاطر. أحياناً يُبرم العمّ اتفاقاً مع المقاولين أو المستأجرين: يبيعهم الثروة مقابل أرواحهم. إنه هو مَن غمز الفلاحين ليَهجروا زرعَهم ويغوصوا للأبد في هذه الكهوف.

يجتمع عمال المناجم حول تمثاله الطينيّ الضخم ليشربوا ويتجاذبوا أطراف الحديث. إنه طقس التشايّا. يضعون له الشموع مضاءةً بالمقلوب ويكرّمونه بالتبغ والبيرة والشيتشا. يستهلك العمّ السجائر ويترك الكؤوس فارغة. يترك عمال المناجم بضعَ قطرات من الخمر تسقط عند قدميه، إنها طريقة لتقديم الجرعة لإلهة الأرض.

يطلبُ عمال المناجم من الشيطان أن يُنعش المعادن.

– ساعدنا يا عمّ. لا تتركنا نموت.

التشايّا تعمل كجامعة سياسيّة. حظرها الطغاة. يتجمع هؤلاء الرجال حول العمّ في تجاويف النفق السريّة حيث يتحدثون عن مشاكلهم وعن كيفية تغيير الأشياء. يشعرون بأنهم محميّون فيشجع ويحمس بعضهم بعضاً. لا يركعون أمام الشيطان. عندما يغادرون، يلقون على عنقه بالشّرائط الملونة.

3

محظور على النساء أن يدخلن المنجم. هناك أسطورة قديمة تقول إنهنّ يجلبن الحظّ السيئ.

لقد أنقذتهنّ الأسطورة القديمة من الموت المبكر الذي تحتفظُ المناجم به لعمالها.

حرب الشارع، حرب الروح

لا يمكن لنصفي أن يوجد دون النصف الآخر. هل يمكن أن تحبّ الخلاء دون أن تكره القفص؟ أن تحيا دون أن تموت، أن تولد دون أن تقتل؟

في صدري ساحة ثيران، الحرّية تصارع الخوف.

النظام

تعلّم الآلة أنّ من يكون ضدها هو عدوّ البلاد. مَن يُدين الظلم يرتكب جريمة ضد الدولة.

أنا البلاد، تؤكد الآلة. معسكر الاعتقال هذا هو البلد: مكبّ النفايات هذا، وهذا القفر الشاسع الخالي من الرجال.

ابن ساقطة كل من يعتقد أن الوطن بيت للجميع.

دفنوه حيّاً في جبة

لا بدّأن الرّقة عصبٌ. عصب ينقطع ولا يُخاط. عرفت قلّة من الرجال الذين كان باستطاعتهم أن يجتازوا اختبارات الألم والعنف، مأثرة نادرة مع الرقّة التي لا تُهزم.

كان راؤول سنديك واحداً من هؤلاء الرجال.

أتساءل الآن، ما الذي تبقى منه يا ترى؟

أتذكر ابتسامة الطفل على وجهه الخشن، وجه الطين، وهو يسألني متمتماً:

– هل عندك شفرة؟

كان راؤول قد اشترى طقماً للتوّ من متجر تركي صغير يبيع الملابس المستعملة في المدينة القديمة وكان يشعر بأنه في قمة الأناقة وهو يرتدي ذاك الكيس البنّي المخطّط بخطوط من درجة اللون ذاته. لكن بنطلون الطقم خال من الجيب الصّغير الضروري جداً للنقود. هكذا، عمل هو الجيب بالشفرة والدبابيس الصغيرة.

كان عمري أربعة عشر عاماً، وكنت رساماً في الـ سول، وهي منبر أسبوعيّ اشتراكيّ. كانوا قد قدّموا لي طاولة في مقرّ الحزب، وهناك

كان عندي شفرة وحبر صيني وألوان وأقلام رصاص. كان عليَّ أن أرسم كاريكاتيراً سياسيّاً كل أسبوع. أفضلُ النكات كانت تخطر لراؤول، كانت عيناه تومضان وهو يقترب كي يهديها إلي.

كنّا نذهب معاً في بعض الليالي بعد اجتماعات الشبيبة الاشتراكية.

كنّا نعيش في مكان قريب. هو ينزل من شارع دويليو وأنا أتابع بعده بتقاطعين. كان راؤول ينام على الشرفة. لم يكن يتحمل سقفاً فوقه.

سألت نفسي عدة مرات بعد سنوات، ما الذي فعله راؤول كي لا يفقد عقله وقد قضى فترة طويلة مدفوناً في الآبار. من ثكنة إلى أخرى، وضعوه في حفرة في الأرض مغطاة من الأعلى، وكانوا يناولونه الماء والخبز بواسطة حبل كي لا يرى الشمس ولا يتحدث إلى أحد أبداً.

لا أستطيع أن أتخيله في تلك العتمة. أرى راؤول في العراء وسط الحقل، جالساً على جمجمة بقرة صارت كرسيه في مكتب المحاماة. لقد سمعَ عمال القصب، الذين كانوا يلقّبونه بالعادل، من شفتيه، وفهموا لأوّل مرة كلماتٍ مثل حقوق ونقابة وإصلاح زراعي.

أُغمض عيني وأعود لأرى راؤول قبالة النار على ضفاف نهر أوروغواي. يُقرِّب من شفتي، أنا المواطن الأخرق، قبساً، بعد أن انـطفأت من جديد لفافة تبغي الأسود المفروم.

بوينس أيرس، تموز 1975: الرجال الذين يعبرون النهر

علمتُ اليوم أنه في كلّ شهر وفي اليوم الذي تصدر فيه المجلة تعبر ثلّة من الرجال نهر أوروغواي ليقرؤوها.

حوالي العشرين رجلاً. يقود المجموعة أستاذ يزيد عمره على الستين عاماً قضى مدّة طويلة في السجن.

في الصباح يخرجون من بايساندو ويعبرون إلى الأراضي الأرجنتينيّة. يشترون فيما بينهم نسخة من مجلة كريسيس (الأزمة) ويشغَلُون المقهى. واحد منهم يقرأ للجميع بصوت عال، صفحةً صفحة. يستمعون ويناقشون. تدوم القراءة اليوم بطوله. حين تنتهي، يتركون المجلة هديةً لصاحب المقهى ويعودون إلى بلدي حيث هي محظورة.

– حتى لو كان من أجل ذلك فقط –أفكّر– فإنّ الأمر يستحق العناء.

مزّقته (بوركي) هذا المساء ورميته بقصاصاتها في القمامة

رافقتني إلى كل مكان. تحمّلَت إلى جانبي تقلباتِ الطقس وسوء المعاملة والسقطات. فقدت سلكها الحلزوني وانفرطت أوراقها. لم يتبقَ من غلافها الشمعي اللون غير مزق. وبوركي، التي كانت يوماً مفكرة فرنسيّة أنيقة، صارت كومة من الورق والوريقات المربوطة بمطاطة، تجوب الشوارع مهلهلةً وممزقة ومتسخة بالحبر والتراب.

صعُبَ عليّ أن أتّخذ قراراً. كنت أحبّ تلك المفكرة الممزقة. كانت تنفرط بين يديّ في كل مرة أبحث فيها عن عنوان أو هاتف.

لا يمكن لأي كمبيوتر أن يجاريها. كانت بوركي بمأمن من الجواسيس والشرطة. كنت أجد فيها ما أريد دون عناء: كنت أعرف كيف أفك شيفرتها بقعةً بقعة وقطعةً قطعة.

كانت بوركي تحتوي بين ألفها ويائها على عشر سنوات من عمري.

لم أبيض محتواها قط. بسبب الكسل، كنت أقول؛ لكنه كان بسبب الخوف.

اليوم قتلتُها.

هناك عدد قليل من الأسماء التي آلمتني حقيقةً. لم أعد أميّز أغلبها. كانت مليئة بالموتى؛ وأيضاً بالأحياء الذين لم يعد لهم أي

معنى بالنسبة لي. تأكّدت أن من مات ووُلد عدة مرات خلال هذه السنوات، هو أنا.

هكذا كان موتي الأول

1

كنت أقضي الليالي جالساً على السرير أملأ المنافض بأعقاب السجائر.

كانت سيلفيا البريئة تنام فوراً. كنت أكره النوم اعند الفجر. كنت أوقظها، أهزّها من كتفيها، أريد أن أقول لها: هذه هي الأسئلة التي لا تتركني أنام. أردت أن أقول لها: أشعر بأني وحيد، أنا المطاردُ، الكلبُ الذي ينبح على القمر، لكنّني لا أدري أيّ لغو كان يخرج من فمي بدل الكلام. أعتقد بأني كنت أهمهم بترهات مثل: طهر، مقدس، شعور بالذنب، جوع للسحر. أصبحت مقتنعاً بأني وُلدت في القرن أو الكوكب الخطأ.

كنت قد أضعت الله قبل بضع سنوات. انكسرت مرآتي. كان لله الصفات التي أُطلِقُها عليه وكان يقول الكلمات التي كنت أنتظرها. حين كنت طفلاً، أنقذني من الشك والموت. كنت قد أضعت الله، ولم أعد أميّز نفسي في الآخرين.

لم يكن العمل السياسي يُخفّف عنّي، مع أنّني في أكثر من مناسبة غطاني غراء الملصقات من أعلاي إلى أسفلي، لم أستطع أن أشعر بتعب مفرح ولا بإحساس معركة يستحق العناء. كان العالم من حولنا هادئاً ومُدجّناً على الطاعة، يمثل فيه كل مواطن شخصيته (كان للبعض فريق كامل) وكلاب بافلوف تفرز لعابها بدقّة.

حاولت أن أكتب عدة مرات. انتابني حدس بأن هذا يمكن أن يُخرج من داخلي الوحش الشرير الذي نما فيه. كنت أكتب

كلمة، عبارة أحياناً، ثم لا ألبث أن أشطبها. بعد بضعة أسابيع أو أشهر تخرّبت الورقة التي بقيت ساكنة في مكانها على الطاولة ولا تقول شيئاً.

2

أردت أن أبكي. بكيت. كنت قد أكملت توّاً تسعة عشر عاماً، وفضلت أن أُفكّر بأن دخان كل الأشياء التي كنت أُحرقها هو سبب بكائي. كي لا يبقى مني شيء أشعلت حريقاً كبيراً في الأوراق والصور والرسوم. ملأ الدخانُ البيت وأنا جلست على الأرض وبكيت. بعد ذلك خرجتُ أجوب الصيدليات واشتريت حبوباً مخدرة تكفي لقتل حصان.

كنت قد اخترت الفندق مسبقاً. أحسستُ، بينما كنتُ أسير في شارع ريو برانكو نزولاً، بأنّني ميتٌ منذ ساعات أو سنوات، ليس لديّ أيّ فضول أو رغبة، وبأنّه لم يبق لي سوى أن أكمل الإجراءات. لكن، عندما وصلت إلى تقاطع شارع سان خوسيه دهمتني سيارة فقفز جسدي، الذي كان حيّاً، قفزة خارقة إلى الرصيف.

آخر ما أتذكره من حياتي الأولى هو شق الضوء في الباب المغلق. بينما كنت أغرق في ليل ساكن ما كانت حياتي لتنتهي أبداً.

3

استيقظت بعد غيبوبة دامت أياماً في غرفة السجن في مستشفى ماثيل. كانت بالنسبة لي سوق كالكوتا. رأيت أشخاصاً نصفَ عراة بعمائم يبيعون حِلياً رخيصة. عظامهم بارزة من شدّة نحولهم، يجلسون القرفصاء. وآخرون يُرقِصون الثعابين على أنغام نايهم.

عندما غادرت كالكوتا لم يكن في داخلي قذارة ولا ظلال. كنت تالفاً من الخارج، بسبب حمض البول والفضلات التي واصل جسدي

طرحها تلقائيّاً، بينما كنت أنامُ موتي في الفندق. جسدي لم يسامحني قط. بقيت الندب: جلدي الذي صار برقة ورق البصل يمنعني الآن من ركوب الحصان العاري كما كنت أريد، لأنه ينفتح وينزف، وعلى الساقين علامات الجروح التي بلغت العظم. أراها كل صباح عندما أنهض وأرتدي جواربي.

لكن ذلك لم يكن المهمّ في أيام المستشفى تلك. انغسلت عيناي: رأيتُ العالمَ لأول مرة وأردتُ أن آكله. كل ما تلا ذلك من أيام كان بمثابة هدية لي.

كثيراً ما أنسى، وأعطي للحزن هذه الحياةَ هديةً مجانيّة. وكثيراً ما أترك هذا الرب المعاقِب، الذي لايغادر داخلي وينتهي، يطردني من الفردوس.

4

وقتها تمكنت من الكتابة وبدأت أوقع المقالات والكتب بكنيتي الثانية، غاليانو.

حتى وقت قريب كنت أعتقد بأني قرَّرت ذلك نظراً لصعوبة لفظ كنيتي لأبي في الإسبانيّة. ولهذا السبب قمت في نهاية المطاف بأَسْبَنَتِها: وقّعت باسم خيوس بدلاً من أوخس على الرسومات التي رحتُ منذ كنتُ طفلاً صغيراً جداً، أنشرها في الـ سول.

والآن فقط، في إحدى الليالي، أدركت بأن تسميتي لنفسي إدواردو غاليانو منذ أواخر عام 1959، هي طريقة لأقول فيها: أنا آخر، أنا حديث الولادة، لقد وُلدت من جديد.

رقم 6

في الجوهر كلّ شيء مسألة تاريخ

كان الأتروسكيون قبل الميلاد بقرون عديدة يدفنون موتاهم بين جدران تتغنى بفرح الحياة.

في عام 1966، نزلنا برفقة غراسييلا إلى المقابر الأتروسكيّة وشاهدنا رسومات تمثّل عشاقاً يستمتعون بالحب بكل الوضعيات، أشخاصاً يأكلون ويشربون، بالإضافة إلى مشاهد احتفال موسيقيّة .

كنت قد رُوّضت كاثوليكيّاً على الألم وقد أذهلتني هذه المقبرة التي كانت تمثّل الفرح.

وقُبلة

في إحدى الليالي منذ سنوات خلت، وفي مقهى ميناء مونتيفيديو، بقيت حتى الفجر وأنا أشرب الخمر برفقة صديقة عاهرة، وقد أخبرتني:

هل تعلم؟ أنا لا أنـظر في عيني الرجال في السرير. أقوم بعملي مغمضةَ العينين. لأنني لو نظرت إليهم لعميت، هل تعلم؟

لكن لا بدّ للمرء أن يعرف كيف يختار

كم مرة اختلطت علينا الشجاعة بالرغبة بالموت؟

الهستيريا ليست التاريخ ولا الثائر عاشق الموت.

الموت، الذي خطفني مرتين وتركني، ما زال يناديني في كثير من الأحيان وأنا أرسله إلى الساقطة التي أنجبته.

هكذا كانت ميتتي الثانية

1

استيقظت وتعثّرت وأنا في طريقي لأنير المصباح الوحيد الموجود في الغرفة. كانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف مساءً. فتحت الباب على مصراعيه وكان يُطل على الشرفة الخشبيّة فوق الشاطئ. القمر المكتمل يحرّض الكلاب. لم أستطع النوم، لكن ليس بسبب النباح.

شعرت بالدوار وأنا واقف. عدت لأستلقي، طويت الوسادة؛ أردت أن أقرأ. كان الفراش يغلي. هبت نسمة دافئة في الخارج حملت معها إلى عند قدمي أوراق أشجار اللوز.

كان ذاك اليوم مهماً بالنسبة لي. لدى مغادرتي للمستشفى، أعطوني وثيقة انبعاثي.

مشيت خطوتين وأنا مصاب بالدوار وفتحت الدوش. نظرت في المرآة، رأيت كومة من العظام والهالات السوداء.

كنت بائساً. كانت ركبتاي من هلام. ذقني ترتجف وأسناني تصطك. استجمعت كل ما بقي من قوّتي وضغطت على ذقني بكلتا يديّ. أردت أن أوقف هذه الطقطقة المستمرة. لم أنجح في ذلك.

جلست على السرير والمنشفة على ركبتيّ. المياه تضرب بقوّة على أرضية الحمام الإسمنتية. بقيت جالساً برهة طويلة، لا أفكر في أي شيء وأنا أنظر إلى أصابع قدميّ. أنهار من العرق تنزلق من جسدي العاري. مسحت العرق وارتديت ببطء البنطلون والقميص.

كان الدوش ما يزال مفتوحاً. انتبهت إلى أنني لم أستحم بعد. كنت أكسل من أن أخلع ثيابي. أغلقت الصنبور وخرجت.

مشيت حافي القدمين تحت أشجار زيتون ماكوتو.

2

كانت كراكاس سوقاً عملاقة. وحدها السيارات تستطيع أن تعيش هناك دون أن تتعفن روحها أو أن تتسمم رئتها. هكذا كنت قد حجزت غرفة في هذا الفندق الصغير على الشاطئ قبالة البحر. لم يكن بعيداً. كنت أذهب وأعود كل يوم عبر الجبال.

كان ذاك مكاناً جيداً. هواؤه نظيفٌ دائماً وشمسه تدخل الغرفة باكراً وبإمكان المرء أن يسبح برهةً قبل أن يبدأ يومه.

في الساحل، تصطف العديد من المقاهي والمطاعم بطاولات صغيرة تحت الأشجار على حافة الشاطئ. كان هناك الكثير من الحمام. هناك أدركتُ، إذ أني لم أكن أعرف من قبل، أنه عندما تفتح الحمامة منقارها وتضعه في منقار فراخها، لا تفعل ذلك لتقبلها، بل لتسقيها الحليب الذي تدرّه حوصلتها.

3

عند الغسق، وقت الهدنة، خرّجوني من المستشفى.

الطبيب اليخاندرو موندولفي ربت على ظهري وقال لي:

- سأخرِّجك

وأكد لي:

- أُصبت بالملاريا مرّتين في شهر واحد. إمّا أن تعتني بنفسك أو أن تنتهي جثّة. عليك بأكل الكثير من العدس. ها هي حبوب دوائك: الكينين، والحديد.

بتّ أعلم الآن أن بعوضة يمكن أن تكون أسوأ من أفعى، كذلك عرفت بأنّ الذعر من الانتكاس بلهب وجليد الحمى سيُطاردني إلى آخر أيامي. في الغابة يُطلقون عليها اسم (الاقتصادية) لأنّها تقتلك في يوم واحد دون أن تنفق المال على العلاج.

بقينا سجناء الأمطار، برفقة دانييل باتشيكو وأرنالدو مندوزا، في مناجم الماس في غابة غوانيامو. استحقّت الكارثة العناء. هناك، ينام المرء مليونيراً لكنه يُصَبِّحُ ميّتاً أو ليس معه ما يكفي ليشتري قطعة بسكويت. الزنجي باراباس كان قد أسس سلالة من عمال المناجم. كان قد عثر على قطعة ماس بحجم بيضة الحمامة، فقلع كل أسنانه واستبدلها بطقم أسنان من الذهب الخالص. انتهت به الأيام في منجم ضائعٍ على الحدود، يستدين كي يفطر.

في مخيمات المناجم كنّا ننام على الأسرة المعلّقة بين الأشجار. كل سرير معلق كان بمثابة منزل، لكننا كنّا نتناول ويسكي البالانتين والكونياك الفرنسي. كان ثمن فنجان القهوة يعادل عشرة أضعاف ما يعادله في كراكاس وفي غضون أيام قليلة أفلسنا. لقد أنقذتنا الطفلة. قَدِمت من لا غوايرا. كان عمرها تسعة عشر عاماً، وفي ليلة حب واحدة كانت تكسب أكثر مما كنت أكسبه من عملي في شهر. عندما نظرت إلى ساقيها، فكرت: "هذا عدل." قدمت لنا الطفلة البيرة والطّعام؛ وأخيراً تمكنا من أن نركب طائرة صغيرة أخرجتنا من الغابة. كان البعوض قد أكلنا وكنا نحن الثلاثة نحمل الملاريا في دمنا. أصبت بنوعي الملاريا: الحميد ثم الخبيث مباشرة.

كان رأسي عبارة عن قرحة مفتوحة عندما وصلت إلى المستشفى، تحفر فيه الحمى بالخناجر وتلتهب فيه النار. من بين شفتيّ المتشققتين يخرج أنين وهراء. شعرت بأنني أحتضر، ولم أتوقع من أحد أن يظهر وسط الهذيان ويفتح لي ذراعيه لينقذني من طعنات وغليان الحمى: كان الألم من الشدّة بحيث لم أعد أتسع لشيء سواه، ببساطة أردت أن أموت لأن ألم الموت أهون.

لكن أحببتُ، صباحَ اليوم التالي، أن أستيقظ حيّاً. كانت الحرارة قد انخفضت. رمشت: تجولت بين أسرّة جيراني، فركت عينيّ. كنت محاطاً بوجوه شوّهتها الليشمانيا. نهش الجذام آذانهم وشفاهم وأنوفهم، فبانت عظامهم ولثاتهم.

قضيت بعض الوقت في الحجر. أعتقد أنني كنت الحالة الوحيدة المصابة بالملاريا. الفلاحون المصابون بالجزام لا يتكلمون. تقاسمت معهم التفاح الذي جلبه لي أصدقائي. كان معهم جهاز راديو وكانوا يسمعون البوليرو.

حقنوني في أوردتي بجرعة كينين تكفي لحصان، أنقذتني. كنت أتعافى شيئاً فشيئاً. صدمت حين رأيت أن لون بولي أسود، دمي الميت، وزاد خوفي حين عادت إليّ الحمى. ضغطت على ذراع الطبيب، وطلبت منه ألا يدعني أموت، لأنني لم أعد أريد أن أموت، فضحك وقال لي أن أكفَّ عن الحماقة.

4

أتذكر المدة التي قضيتها في المستشفى كما لو كانت رحلة طويلة. كنت أركب قطاراً، وأجوب فيه العالم، ومن سديم الليل تنبعث مدن وأضواء ووجوه حبيبة: كنتُ أقول لها وداعاً.

كنت أرى البحر وميناء مونتيفيديو ومواقد النار في بايساندو، والزوايا والسهول حيث كنت طفلاً صغيراً وسعيداً. رأيت المهر يعدو. رأيتُ مزارع الخيول الترابية وقرى الأشباح. عصافير على ظهر بقرة مستلقية. هيكل غرفة خربة. رأيت نفسي أدخل مصلى غزته الأعشاب. أدخلتُ المفتاح الهائل فطقطق الباب وصرّ. كان يصل من الخارج صخب القبرات والكروان. ينفذ الضوء من النوافذ، فيكسب

وجهي حمرة، بينما أشقّ طريقي بين الأعشاب. أصل إلى المذبح وأتحدث إلى الرب وأضيِّعُهُ.

رأيت أخي يوقـظني تحت الأشجار وهو يهزّني فجرَ اليوم الثالث من رحلتنا على الحصان عبر الحقل المفتوح. أيقظني وسألني: "هل كنت مع امرأة يوماً؟"، تمطيت وكذبت عليه.

رأيتُ بحاراً وموانئ. حانات ضواحٍ، مليئة بالدخان وتنبعث منها رائحة طعام ساخن، سجوناً، مناطق بعيدة، قرى ضائعة في الجبال، مخيمات فيها مواقد نار، رأيت نظرات، بطوناً، سطوعاً: نساء محبوبات تحت المطر العنيف أو في البحر أو في القطارات، نساءً يتكئن في منتصف الليل على شجرة في الشارع؛ خنافس تتعانق وتميد مع رمل الكثبان . رأيت أبنائي والأصدقاء الذين لم أعد أعرف عنهم قطّ شيئاً.

أمضيتُ حياتي كلها وأنا أقول وداعاً. اللعنة. طوال حياتي وأنا أقول وداعاً. ما الذي حدث لي؟ بعد الكثير من الوداعات، ما الذي تركته؟ وماذا بقي فيّ؟ كان عمري ثلاثين عاماً، لكن بين الذاكرة والرغبة في الاستمرار تجمّع الكثير من الألم والخوف. كنت عدة أشخاص. كم بطاقة هوية كان لدي؟

كنتُ على وشك الغرق من جديد. لقد نجوتُ من ميتة لم أخترها بعيداً عن ناسي، وكانت تلك الفرحة أشدّ من أي ذعر أو أسف. فكرت أنّه لم يكن من العدل أن أموت. لم يكن هذا القارب الصغير قد وصل إلى أي ميناء. لكن ماذا لو لم يكن هناك أي ميناء لهذا القارب؟ في قارب من هذه القوارب أبحرت لمجرد متعة أن أبحر أو بسبب جنوني في مطاردة ذلك البحر أو السماء المشرقة التي أضعتها أو اخترعتها.

الآن لو متّ لكان ذلك خطأً. أردتُ أن أهب كل شيء قبل أن أموت، وأن أبقى فارغاً، حتى لا تجد تلك الساقطة شيئاً تأخذه.

كنت لا أزال نافعاً! كان هذا ما قد بقي لدي بعد الوداع: حيويّة كثيرة ورغبة في الإبحار ونهم للعالم.

5

أقلّني أصدقائي في سيارة من المستشفى. وصلنا إلى ماكوتو قبيل الغروب. جلسنا في مقهى وطلبنا بيرة.

من ضياء الشفق كانت تخرج أماس من أزمنة ماضية. عندما كنت صغيراً كنت أذهب لصيد السمك، لا لأصيده، في الحقيقة لم يكن يستهويني الصيدُ لأنني أشعر بالأسف على الأسماك، بل من أجل فرحة أن أكون هناك على أرصفة الميناء أتأمل كيف يبتلع البحر الشمس شيئاً فشيئاً. مرّت السنون، ولم يتغيّر شيء. شعرتُ بالشيء ذاته في صدري. فكّرتُ أن شيئاً ما جوهريّاً في داخلي لم يتغير.

ضحكتُ مع أصدقائي. عرضوا عليّ عكازات، قالوا لي إنّ الملاريا قد تسبّبت لي بمرض هانتينغتون، واقترحوا عليّ أن أبدأ بإجراءات التقاعد.

عندما حلّ الليلُ، عادوا إلى كاركاس. وأنا صعدتُ إلى الغرفة لأستلقي. أردت أن أنام. لم أستطع.

بعدها نهضتُ ومشيت. شعرت بالرمل في باطن قدميّ الحافيتين وكانت أوراق الأشجار تلامس وجهي. كنت قد غادرتُ المستشفى وقد صرتُ كالخرقة، لكنني غادرتها حيّاً، ولم تكن رجفة ذقني وارتخاء ساقيّ يعنيان لي شيئاً مطلقاً. قرصت نفسي، ضحكت. لم يكن لدي شكوك ولا خوف. كان الكوكب بأسره أرضي الموعودة.

فكّرت بأنني أعرف بعض القصص الجيدة كي أقصها على الآخرين، واكتشفت أو تأكدت بأن ما أريده هو أن أكتب. كثيراً ما

أقنعتُ نفسي بأن هذه المهنة الانفرادية لا تستحق العناء، إذا ما قارنها، مثلا، بالانتماء إلى حزب ما أو بالمغامرة. كنت قد كتبت ونشرت الكثير، لكن كانت تنقصني الشجاعة كي ألامس أعماق ذاتي وأكون مفتوحاً بكليّتي لأفعل ذلك. كانت الكتابة أمراً خطيراً، مثل الحب عندما تمارسه كما ينبغي.

في تلك الليلة أدركت أنني صيادُ كلام. خلقت لهذا. هذه ستكون طريقتي في التواجد مع الآخرين بعد الموت وهكذا لن تموت الأشياء ولا الناس الذين أحببتهم.

كي أكتب كان عليّ أن أحسّن سمعي. كنت أعلم. أتحدى ذاتي، أحرّضها وأقول: "لا تستطيع، أليس كذلك. "كذلك كنت أعرف أنه كي تتوالد الكلمات عليّ أن أغمض عينيّ وأفكر ملياً بامرأة.

7

حينئذ شعرت بالجوع فدخلت إلى مطعم ماكوتو الصيني . جلستُ بجانب الباب كي يصلني نسيمُ البحر الرطب.

في آخر المطعم كان هناك فتاة تأكلُ وحدها. رأيتها جانبيّاً. لم أدقّق النظر فيها كثيراً. فضلاً عن أنني أعاني قصراً في النظر، ولم أكن أضع نظارات.

لا أذكر ماذا أكلتُ. لفافات، على ما أظنّ، وحساء ودجاجاً مقليّاً أو شيئاً من هذا القبيل. شربت بيرة، تبقى دائماً أفضل من النبيذ السيئ. شربت البيرة مثلما اشتهيها، حيث يمرّ السائل الذّهبي عبر الرغوة المثلجة على شفتيّ ببطء ويغسل أسناني.

نسيت رجفة ذقني خلال تناولي طعامي. كانت يدي تحمل الشوكة بثباتٍ إلى فمي.

رفعت نظري. كانت الفتاة تقترب شاحبةً وبخطوات بطيئة قادمة من عمق المطعم.

تناولتْ عن الأرض سهماً ورقيّاً ومزّقته إرباً. نظرتُ إليها، نظرتْ إليّ.

– أرسلت لك رسالة: قالت.

ابتلعت ريقي وابتسمت معتذراً.

– تفضلي: دعوتها– لم أنتبه: أجبتها.

سألتها عن محتوى الرسالة.

– لا أعرف: ردّت.

– اجلسي: قلتُ وسحبتُ كرسيّاً.

هزت رأسها. ترددت. ثم جلست أخيراً. كانت تنظر إلى الأرض غير مرتاحة.

أردت أن أستمر في الأكل، لكن ذلك كان صعباً.

– يبدو أنك لا تتشمسين: خاطبتُها.

هزّت كتفيها.

برد ما تبقى من طعام في الصحن.

مدّت يدها باحثةً عن سيجارة. تمكنت من رؤية ندوب الجروح على معصمها. أشعلت لها السيجارة. سعلت.

– إنها ثقيلة: قالت.

تفحّصت علبة السجائر وقلّبتْها في يدها:

– ليست من هنا: قالت.

كان الضوء يلعقُ وجهها. كانت جميلة على الرغم من شحوبها وهزالها. حدقَت في عيني. أردتُ أن أبتسم ولم أعرف كيف.

– هل تعرف لماذا رميتُ السهمَ عليك؟ –سألتْ ثم أجابت–: لأن لك وجه مجنون.

أعتقد أنه كان هناك موسيقى صينية، حزينة وخافتة. صوت امرأة، إذا لم أكن مخطئاً، يتقطّع في منتصف كل شكوى.

– أنا لا أتشمّس أبداً: قالت. أقضي اليوم بطوله حبيسة غرفتي.

– وماذا تفعلين حبيسة؟

– أنتظر –أجابت.

8

في النهاية أطفؤوا الأضواء، وهذا لم يكن أسلوباً صينيّاً لطردنا. مشينا بضع خطوات على الرمال وجلسنا.

رفعت نظري إلى سماء ذلك البلد. كانت مختلفةً عن سمائنا. أخذتُ أتصيّد النجوم. فوجئت حين اكتشفت كوكبة الصليب الجنوبي (نُعيم) في الأفق. أخبرتني الفتاة الشاحبة أن كوكبة الصليب الجنوبي لا تظهر في أيار.

تحدثت كما لو أنها لم تتحدث منذ سنة. كانت تتكلم وتقضم أظافرها. كل أظافرها متآكلة.

كانت ركبتاي مرتخيتين وعيناي يثقلهما النعاس. عادت لترتجف ذقني من جديد. لكنني شعرت بأنّني مرتاح هناك.

لا أعرف لماذا قلت لها إنها لطيفة ولكن نحيفة، فدافعت عن نفسها. رفعت تنورتها كي ألمس ساقها.

ثم مشينا بضعة تقاطعات في الشوارع تحت الأشجار. وأشارت على نحو مبهم باتجاه المنازل، الأسطح الحمراء في شارع صغير ضيق ينتهي إلى الشاطئ.

– أنا أعيش هنا: قالت.

كذلك راقني صوتُها الأجش.

توقفَت، واستندت بظهرها إلى الجدار.
كان الجو حاراً و هناك بعوض حول ضوء المصباح.
- اعذرني لكثرة ما تكلمت: قالت وعضّت على شفتيها. سالت قطرة دم صغيرة على ذقنها.

9

راقني أن أراها تتعرّى تحت ضوء القمر الأزرق. لم تكن تكذب عندما قالت إنّ هزالها خادع.
أعتقد بأنّني لم أفعله قط بمثل هذا السوء. أن أحرّك ذراعي كان بمثابة انتصار لي. خرجتُ منها ثم انهرت.
أيقظتني هزّاً:
- ما هذا؟
التفت حولي؛ فركت أجفاني. في زاوية من زوايا الباب المفتوح تبرق عينان ذهبيتان، تتلألآن في الظلام.
- لا أعرف - قلت لها - قِطّ.
كدت أغطّ من جديد في النوم عندما ضغطت على ذراعي.
- انظر: قالت لي.
- ماذا؟
- ما يزال هناك.
عيناه لا ترفّان ولا تتحركان.
حينها أنا أيضاً لم أستطع أن أنام.
أنرت الضوء ولم أر لا قطاً ولا أيّ شيء. أطفأته واستدرت باتجاه الجدار. لكنني شعرت بشيء كلسعة كهرباء تسري في رقبتي.
نهضت الفتاة الشاحبة ومشت.

– اتركيه: قلتُ لها.

رأيتها تنحني، تكهّنت بتمتماتها التي طغى عليها صخب البحر. وقف جسدها بين العينيَن الذهبيتين وبيني. وفجأة أطلقت صرخة.

10

أشعلت الشمعة. كانت تتفحص يدها مذهولةً. رأيت علامات العضة.

– هذا القط مصاب بالكلب: قالت، وراحت تبكي.

أجبرتُ حنجرتي على الكلام. أعتقد أنّني كنتُ صادقاً. قلتُ: إنّ الكلاب هي التي تنقلُ داء الكلب، وليس القطط.

كان النوم يشدّني. بدأت يدها تنتفخ.

– نعم – شدّدَت هي– كان هذا القط مسعوراً. أنت لا يهمّك أن أموت ـ تأوّهت.

قررَت أن تخرج وتسأل. لمّا وقفتُ دار بي العالم دورةً كاملة. لا أعرف كيف ارتديت ثيابي، وبقيت دائخاً عندما خرجنا.

التقينا أحد البحارة وكان نائماً على ظهره على سور الشاطئ الحجري. أجابنا دون استعجال أو حنق، وهو ينفث أولى سحبات سيجارته: كان علينا أن نلاحق القط ونمسكه، كي نعرف.

هناك مشينا محنيّيّ الـظهر ننادي القطط في الظلام. كان معنا مصباح يدوي واحد. رأينا قططاً من جميع الألوان والأحجام. كنّا نقلد أصواتها فتستجيب لنا، تسترق النظر إلينا ثمّ تنزلق على الحواف وتهرب.

كنت أجلس على الأرض كل بضع خطوات لأستجمع قواي للخطوات المقبلة. لم أكن ألهث، فلا هواء لديّ حتى لذلك. كذلك لم أكن أرف: لو سمحت لأجفاني بأن ترف لغفوت.

11

صار لون يدها أرجوانياً وشُلّ ذراعها، لكنها كفت عن التذمّر. لا بدّ من التوجّه إلى المستشفى. أرادت أن تذهب بمفردها. كان جسدي قد أعلن إضرابه ضدّي: كنت أعطيه الأوامر لكنه لا يستجيب. "طلبت منه: أيها الجسد، يا رفيق، لا يمكنك أن تخيّبني."

كان لا بدّ لنا كي نذهب إلى المستشفى أن نصل إلى الطريق السريع وننتظر أن ترسل العناية الإلهية لنا سيارة أجرة. الطريق السريع يقع على الجانب الآخر من منحدر قاس وطويل.

حقنوها بالمصل في المستشفى. خرجت الفتاة الشاحبة ويدها مضمدة. أخبرتني بلهجة جافة بأن عليها أن تذهب إلى كاراكاس إلى معهد داء الكلب كي تأخذ حقنة يوميّة لمدّة أربعة عشر يوماً. أخذت الحقنة الأولى في الساعة الثامنة. وعدتها بأن أرافقها. لم تقل شيئاً.

عندما عدنا، كانت غشاوة الفجر الأولى قد لاحت في الأفق. ومع أول شعاع نور، بان قارب صيد وحيد مقابل الشاطئ.

صعدت الدرج كمن يسير في نومه، وغصتُ في الفراش. أعتقد أنني استطعتُ أن أضع عقرب المنبه على الساعة المطلوبة، لكنني لم أقرنه.

استيقظت في الرابعة بعد الظهر.

12

بحثت عنها.

طفتُ على البيوت بيتاً بيتاً في الحي الذي قالت لي إنّها تعيش فيه. لم أكن أعرف اسمها. كنت أصفها بقدر استطاعتي: وجهها، بياض بشرتها، ملابسها؛ والمنديل الذي على عنقها، صندلها. لم يكن أحد قد رآها أو سمع عنها.

مشيت على طول الشاطئ. سرت، سألت، أصررت.
اضطررت لأن أذهب إلى كاراكاس. كان الوقت قد تأخّر لمّا عدت.
كان نادل المطعم الصيني يُنظّف الأرض بالنشارة. استندَ إلى المكنسة. ابتسم لي وهزّ رأسه موافقاً. لم يقل لي شيئاً.

كانت الشمس تمحو الألوان وأشكال الأشياء

عدت إلى ماكوتو بعد خمس سنوات.
لم يعد فندق ألمانيا هو نفسه. وجدتُ كراسي الخيزران مضعضعةً على الشرفة، وشبك الأبواب الذي يحمي من البعوض ممزّقاً؛ لكن في الخارج كان كلّ شيء على حاله: الشمس والحمام والناس.
كانت غرفتي شاغرةٍ. نمت على السرير نفسه الذي استهلكته أجسادٌ أخرى. استيقظت باكراً وسبحت. بعدها لم أجد المنشفة التي تركتها لتجف على الشرفة. لعلّه كان لصاً لم يجد مكاناً يدخل منه ولا يستحقّ العناء؛ أو لعلّها الريح، التي لم تكن موجودة. ربما كان على ماكوتو أن تنتزع شيئاً مني.
أمضيت النهار أمشي على الشاطئ.
كان الحرّ شديداً، والضوء يغلي ويفور؛ تحدّق بأيّ نقطة في الجوّ فينفجر حريق أبيض. أحْسَن لويس بريتو عندما قال إنّ الضوء على خطّ الاستواء جيش من النمل يلتهم ما يلمسه. ضوء ماكوتو خناجرُ عينيْ الرب: الرسام ريفيرون، الذي بنى هناك بيته الحجريّ، جُنّ وهو يطارده ومات دون أن يفلح بالإمساك به.

لكنني أفضّل بريق الناس

1

"خائن"قلتُ له. أريته قصاصةَ صحيفة كوبية: كان يظهر بثياب رامي الكرة وهو يلعب البيسبول. أتذكّر بأنه ضحك، ضحكنا. لا أدري

ما إذا كان قد أجابني بشيء. كان حديثنا يقفز مثل كرة الطاولة، من موضوع إلى آخر.

– أنا لا أريد أن يطمح كلّ كوبي لأن يكون روكفلر –قال لي. يكون للاشتراكية معنى إذا ما نقّت الناس، إذا ما حملتهم إلى ما هو أبعد من الأنانية، إذا ما أنقذتهم من المنافسة والجشع.

أخبرني أنه عندما كان رئيس البنك المركزي، كان يُوقع على الأوراق المالية بكلمة تشي، للسخرية، وقال لي لابد أنّ المالَ، الصنمَ المقزّز، قبيح.

كانت عينا تشي غيفارا، ككل العيون، تفضحانه. أتذكر نظرته الصافية، كما لو أنها بزغت للتوّ: أسلوب النظر هذا الخاصِ بالرجال الذين يُؤمنون.

2

لم يكن ممكناً للمرء أن ينسى وهو يثرثر أن هذا الرجل كان قد وصل إلى كوبا بعد رحلة شملت جميع أنحاء أمريكا اللاتينية. كان موجوداً، ليس كسائح، في إعصار الثورة البوليفية وفي خضم الثورة الغواتيمالية. حمل الموز في أمريكا الوسطى والتقط الصور في ساحات المكسيك ليكسب لقمة عيشه ويُغامر بحياته، وانطلق في مغامرة يخت غرانما.

لم يكن رجل مكاتب. كان عليه عاجلاً أو آجلاً، أن يفجّر توتره، توتّر لأسد المحبوس في قفص والذي كان من السهل تخمينه حين قابلته في منتصف عام 1964.

كانت حالة غير معهودة أن يترك شخصٌ الثورةَ التي قام هو بها مع حفنة من المجانين، كي ينطلق ويَبدأ ثورة أخرى. لم يَعِش من أجل النصر بل من أجل القتال، القتال الضروري دائماً من أجل كرامة الإنسان.

اعتاد كانديلا، السائق الذي رافقني في تلك الجولة الأولى في كوبا، أن يُسميه جواداً. وكان لا يطلق هذا المديح الرفيع علىِ الطريقة الكوبية، إلا على ثلاثة أشخاص: فيدل، تشي وشكسبير.

3

بعد ثلاث سنوات، بقيت أحدق في الصفحة الأولى من الصحف اليوميّة. تُظهر الصورُ الشعاعيّة الجسدَ الساكن، من جميع الزوايا. ديكتاتورية الجنرال بارينتوس عرضت للعالم انتصارها العظيم.

نظرت مطولاً إلى ابتسامته الساخرة والحنونة في آن معاً، واسترجعت في ذهني جملاً من حوار 1964، كيف عرّف العالم (ناس يملكون الحقّ وناس يملكون الأشياء)، والثورةَ ("كوبا لن تكون خزانة عرض للاشتراكية، بل نموذجها الحيّ) ونفسَه (لقد اقترفت الكثير من الأَخطاء، لكنني أعتقد أن ...).

فكرت: "لقد فشل. إنه ميّت."ثمّ فكرت، "لن يفشل أبداً ولن يموت مطلقاً". وفيما كانت عيناي تحدقان في هذا الوجه الذي ليسوع ريو دِ بلاتا، انتابتني رغبة بأن أهنّئه.

بوينس أيرس، تشرين الأول 1975، حياة الآلة اليومية

كان أورلاندو روخاس باراغوائياً، لكنه يعيش في مونتيفيديو منذ سنوات.

أخبرني أن عدداً من رجال الشرطة داهموا منزله وصادروا كتبه. كل الكتب: كتب عن السياسة والفن والتاريخ والحيوان والنبات. كان بين المجموعة شابٌ صغيرٌ لا يرتدي اللباس النظامي، شحب لونه وأخذ يصرخ حين رأى بعض العناوين، مثلَ محقق أمام عصابة من السحرة.

وبّخ ضابطٌ أورلاندو:

– أنتم تسببون الكثيرِ من المتاعب، لكنكم عشرة.

– نحن عشرة. حاليّاً نحن عشرة، أكد الباراغوائي، الذي كان يتكلّمُ ببطء شديد– لكن عندما نصير أحد عشر ...

أخذوه أيضاً. اعتقلوه وأطلقوا سراحه. وبعد أسبوع عادوا وسجنوه:

– خسر التصريح.

أساؤوا معاملته وطردوه من الأوروغواي. في بوينس أيرس، كانت الشرطة بانتظاره. جرّدوه من وثائقه.

– حالفني الحظّ –يقول أورلاندو.

– كفاك –أجبته– سوف يقتلونك.

2

التقيت بآنا باسوالدو. هي أيضاً حالفها الحظّ. عصبوا عينيها وجرّوها من منزلها في بوينس أيرس. لا تعرف أين أخذوها. ربطوا يديها وقدميها بحبل، وعقدوا حول عنقها خيوط النايلون. تعرضت للضرب والركل بينما كانوا يحققون معها حول مقال كانت قد نشرته.

– هذه حرب مقدسة. لقد قاضيناكِ وحاكمناكِ . سوف نعدمك رمياً بالرّصاص.

عند الفجر، أنزلوها من سيارة وربطوها إلى شجرة. كان ظهرها إليهم وكانت معصوبة العينين، لكنها شعرت بأن عدداً من الرجال اصطفوا واتّخذوا وضعية الرامي جاثياً. سمعت صوت تلقيم الأسلحة. قطرة عرق سالت إلى أسفل رقبتها. ثم خرجت الطلقات.

اكتشفت آنا بعد ذلك أنها حيّة. تحسست نفسها؛ كانت سليمة. سمعت ضوضاء الدراجات النارية وهي تبتعد.

تمكنت من تحرير نفسها وسحبت العصبة. كانت تمطر ورأت أنَّ السماء مُطبقة الظلمة. كلاب تنبح في مكانٍ ما. كانت محاطة بأشجار طويلة ومعمّرة.

– إنّه صباح خلق للموت: فكّرت.

بوينس أيرس تشرين الأول من عام 1975، هي لم تمت أبداً مع أنها كانت على علم بأنها مُدانة.

1

إنها التاسعة والنصف ليلاً. لا بدّ وأنّ الحارس قام بفصل الكهرباء عن المصعد. تُغلَق نافذة في مكان ما. يسمع من قريب وبعيد صوت تلفازات ودراجات نارية. نباح وأصوات بشريّة: أحد ما يلعب، أحدٌ يحتجّ، ينادون على الطعام، سيبرد الطعام. عبر الكوة، تغزو رائحة القلي واللحم المشوي الهواء المكتظّ بدخان التبغ.

أفكر في إلدا. أدخلوها المستشفى. وخدّروها كي لا تتألّم أو لا تعرف أنها تتألّم. يكتّف الأطباء أيديهم: ليس هنالك ما يمكن فعله. عليّ أن أذهب إلى المستشفى. يصعب عليّ.

آخر مرة، لم تقل لي إلدا:

– هل ستأخذني، عندما أخرج مما أنا فيه، لتناول العشاء في منزلك؟ أشتهي الطعام الصيني والنبيذ.

مضت عدّة أيام دون أن تقول لي إلدا: "عندما أخرج من الذي أنا فيه"، أو "عندما أتعافى."

كانت من قبل تطلب أو تَعِدُ بالذهاب إلى السينما أو إلى شاطئ البحر أو إلى البرازيل، لكنها الآن لا تستطيع الكلام ولا تقول أيّ شيء.

تعرّفتُ عليها يومَ اختفى بيّار أراوخو. سحرتني عيناها الواسعتان ورموشها الكبيرة وكأنها قادمة من الألم.

ثم ظللنا نلتقي.

– من أين جئت بكل هذه العذوبة؟

عندما كنت صغيرة أطعموني الكثير من الشمندر. في تشيبيلكوي، هل تعرفها؟

كنا نلتقي في مقهى تولون أو في مقهى راموس.

2

كان المرض قد نهش صدرها عندما كانت في السادسة عشرة من عمرها. مضى عليها ثماني سنوات وهي تصارع المرض وبدت وكأنها لا تُقهر، لكن الكوبالت والعمليات والأخطاء الطبية نكلت بطريقة بوحشية بجسدها. لم تكن تتكلم في الأمر، أو أنها كانت قليلة الكلام. لقد تعلمت كيف تتفاهم مع لعنتها ولم تكن تكذب: أبقت على قصّة مرضها في الخزانة.

عندما رأيتها في المنزل قبل أن يُدخلوها المستشفى، لم تكن تستطيعُ الكلام، فصدرها كان يقفز بجنون مع كل كلمة: تناولت رشفة من الماء وهزت يدها تطلب قناع الأكسجين. تحلّق الأقارب والأصدقاء الذين لم أكن أعرفهم حول سريرها. كانت إلدا شاحبةً جداً وجبينها رطباً؛ وجهها جاثٍ على الوسادة وقد انحنت رقبتها وانقسم شعرها من الأمام. الطقس مشمس في الخارج. ضوء ما بعد الظهيرة يتسلل عبر الستائر. كان ثوب النوم الأزرق يليق بها وأخبرتها بذلك. ابتسمت، حزينة. حينها دنوت منها ورأيت أولى علامات الموت على وجهها. رَقَّ أنفها وجلدها مضغوط قليلاً على لثتيها. نظرتها المطفأة، تتوه في الفراغ. وميض فَرور يعبر بؤبؤيها عندما كانت تُبعد بيدها أعداءً أو سحباً أو ذباباً. قبلتها. كانت شفتاها باردتين.

3

قصّت عليّ ذات مرة حلماً كان يطاردها منذ طفولتها. يخرج المترو عن سكّته ويسحق الناس وهو يتقدم على الرصيف. هي كانت هناك ومرّ من فوقها. ركضت وتمكنت من أن تتفاداه و صعدت الدرج قفزاً. خرجت إلى الهواء الطلق، سعيدةً بنجاتها. ثم أدركت، فجأة، أنها نسيت شيئاً هناك في الأسفل. كان ضرورياً أن تعود إلى أسفل.

4

أصل إلى المستشفى. هناك عالم من البشر. بعضهم يبكي. أسأل عن إلدا. يفتحون لي الباب لأطلّ وأراها بثوب نومها الأزرق، لكنه غيّر لون بشرتها التي ملأتها الإبر والمجسات بالثقوب. كان هناك أنبوب في فمها. من فمها يخرج خيط دم. ينتفض جسدها من شدّة التشنجات رغم الحبوب المنوّمة والمسكنات.

أفكّر في أن ليس للرب الحق بأن يفعل شيئاً كهذا. ثم لا أفكر بأي شيء. أنزل الدرج مسرنماً، متعثراً. أسمع صوت صديقة إلدا المقربة، تنده اسمي. بقينا لوقت طويل واقفين وجها لوجه، صامتين، نتبادل النظر. يخرج الناس ويدخلون من باب المستشفى.

تقول:

– هل تتذكر... ذاك الأحد؟

لم يمض قرن على ذلك. بالكاد عشرة أيام أو أسبوعان. لم يعد بمقدور إلدا أن تنهض من سريرها. أخذت رئتاها تموتان تدريجياً. لم تعد تتنفس: كانت تلهث. طلبت مني أن أخرجها من هناك. كانت حماقة، لكنّ أحداً لم يعترض. ألبسوها ثيابها وسرّحوا لها شعرها. بصعوبة شديدة وصلنا إلى سيارة أجرة.

كنّا نسير بخطوات قصيرة تخللتها استراحات كل متر أو متر ونصف المتر. كانت تختنق. أمسكتها من ذراعها كي لا تقع. اقترحت عليها أن نشاهد عرضاً مسرحياً أو فيلماً سينمائيّاً. كانت تريد الذهاب إلى البيت. في ليلة الأحد تلك، كان لإلدا ثلاث رئات. غمزتني فجراً وتمكنت من أن تقول لي وهي تبتسم: "أبرمت اتفاقاً مع الشيطان."

والآن أعزّ صديقاتها تقول لي:

— أريدك أن تعرف ما قالته لي عندما عادت. عندما عادت إلى البيت، قالت لي: "هل تعرفين؟ لقد وعد الشيطان ووفى بوعده؟.

فتاة تبحر مُغنّيةً بين حشود الناس

في محطة المترو، تشقّ الحشود الطريق أمام الفتاة المغنيّة.

تتبختر بحلاوة.

تعلّق إلى الغيتار سلّةَ قشّ صغيرة، يرمون لها فيها بالنقود.

للفتاة وجه مهرج، وبينما تمشي وتغني، تغمز الأطفال. تغني ألحاناً شبه سريّة، وسط ضجيج المحطّة.

أنشؤوني من طين، ومن وقت أيضاً

مذ كنت طفلاً، عرفت أنّ في الجنة لا توجد ذاكرة. لم يكن لآدم وحواء ماض.

هل يمكن للمرء أن يعيش كلّ يوم كما لو أنّه أوّل يوم؟

لأجل أن تُفتح دروب الصور العريضة

1

لم أتذكّر صوتها ولا اسمها. قالت لي إنها التقت بي عام 1971 في مقهى سبورتمان في مونتيفيديو عندما كانت على وشك السفر إلى تشيلي. كنت قد كتبتُ لها مقدمة من بضعة أسطر عن سلفادور الليندي. "هل تذكر؟"

— أريد أن أراك الآن. يجب أن أراك في أقرب وقت ـ أضافت. وأكدت أنّها جاءت لي معها لي برسالة منه.

أغلقت الهاتف. بقيت أحدّق في الباب المغلق. منذ ستة أشهر سقط الليندي صريعاً بالرصاص.

لم أستطع مواصلة العمل.

2

في شتاء عام 1963، أخذني الليندي إلى الجنوب. معه رأيت الثلوج لأوّل مرّة. تجاذبنا أطرافَ الحديث وشربنا كثيراً في ليالي بونتا ارينـاس الطويلة جداً، بينما كان الثلجُ يهطل على الطرف الآخر من النوافذ. رافقني لأشتري سراويل داخلية صوفيّة طويلة. يسمّونها هناك قاتلة العواطف.

في السنة التالية، رُشح الليندي لرئاسة تشيلي. رأينا ونحن نعبر معاً الشريط الساحليَّ لافتةً كبيرة تقول: "مع فري، سيكون للأطفال الفقراء أحذية." شخص ما خربش في الأسفل: "مع الليندي، لن يكون هنالك أطفال فقراء." أعجبه ذلك، لكن كان يعرف أنَّ آلةَ الخوف جبّارة. أخبرني أن الخادمة قامت بدفن الثوب الوحيد الذي تملكه، في الجزء السفلي من منزل سيّدها كيلا ينتزعه منها اليسار في حال فاز بالانتخابات. عانت تشيلي من طوفان من الدولارات، وعلى جدران

المدن تقرأ أنّ الملتحين يخطفون الأطفال من أحضان أمهاتهم ليأخذوهم إلى موسكو.

في انتخابات عام 1964 تلك، هُزمت الجبهة الشعبية.

مر الزمن؛ وبقينا نلتقي.

في مونتيفيديو، رافقته إلى الاجتماعات السياسية واللقاءات. ذهبنا معا لحضور مباراة كرة قدم؛ تشاطرنا الطعام والشراب واستمعنا إلى الميلونغا. فرحة الجماهير في المدرجات والطريقة الشعبية بالاحتفاء بالأهداف والتسديدات الجيدة، ضجيج الطبول ووابل الألعاب النارية الملونة، كان يثير عاطفته. إنه يعشق فطائر التفاح في مطعم موريني القديم. كان يتلمّظ بلسانه حين يشرب نبيذ كابيرنيه سانتا روزا، من باب المجاملة الخالصة، لأنه يعلم جيداً أن النبيذ التشيلي أفضل بكثير. كان يرقص برغبة، ولكن على طريقة فارس قديم وينحني ليقبل أيدي الفتيات.

3

رأيته للمرة الأخيرة قبل فترة وجيزة من توليه الرئاسة في تشيلي. تعانقنا في شارع من شوارع بالبارايسو، محاطين بالجماهير التي كانت تحمل المشاعل وتنادي باسمه. في تلك الليلة أخذني إلى كونكون ومع حلول الفجر كنا وحدنا في الغرفة. تناول قارورة ويسكي. سبقَ وكنت في بوليفيا وكوبا. لم يكن الليندي يثق بالعسكر القوميين البوليفين، رغم معرفته بأنه سيكون بحاجة إليهم. سألني عن أصدقائنا المشتركين في مونتيفيديو وبوينس أيرس. ثم قال لي إنه لم يكن مُتْعَباً. كان النوم يثقل عينيه ومع ذلك ظلّ يتحدث ويسأل. فتح النافذة قليلاً ليتنسم رائحة البحر ويسمع هديره. بقي القليل على بزوغ الفجر. لديه صباحاً اجتماع سري هناك في الفندق، مع قادة البحرية.

بعد بضعة أيام، تناولنا العشاء في منزله، برفقة خوسيه توها، وخورخي تيموسّي. أخبرنا الليندي أنه سيتم طرح تأميم النحاس في مجلس النواب. كان يُفكّر بإجراء استفتاء كبير. بعد راية النحاس من أجل التشيليين، ستقوم الوحدات الشعبية بكسر قوالب المؤسسات البرجوازية. تحدّث في هذا الأمر. ثم أفادنا بجزء من المحادثة التي أجراها في ذلك الصباح مع كبار قادة البحرية في كونكون بينما كنتُ نائماً في الغرفة المجاورة.

4

ثمّ صار رئيساً. مررت بتشيلي عدّة مرات. لم أجرؤ قط على أن أضيّع له وقته.

جاءت أوقات حملت تغييرات كبيرة وحماساً شديداً، ثم أشعل اليمين الحرب القذرة. لم تسر الأمور كما ظنّ الليندي. أعادت تشيلي سيطرتها على النحاس والحديد والنترات. تم تأميم الاحتكارات وكان الإصلاح الزراعي يقصم ظهر الأوليغاركية. لكن أصحاب السلطة، الذين خسروا الحكم، أبقوا على العسكر والقضاء والصحف والإذاعات في أيديهم.

كفّ الموظفون عن العمل، أخذ التجار يقومون بعمليات الاحتكار والصناعيون بالتخريب، وراح المضاربون يتلاعبون بالعملة. اليسار، وهو أقليّة في البرلمان، كان يناقش مسألة العجز، أما الجيش فيتصرف على هواه. كان هنالك حاجة على جميع المستويات: الحليب والخضروات وقطع الغيار، والسجائر، وطبعاً، على الرغم من قوائم الانتظار والغضب، اصطفّ ثمانمائة ألف عامل في شوارع سانتياغو، أسبوعاً قبل السقوط، كي لا يظنّ أحد أن الحكومة كانت وحدها. أيادي هذه الحشود كانت فارغة.

5

انتهى الآن صيف عام 1947 ، اجتاحوا قبل ستة أشهر قصرَ لا مونيدا ، وهذه المرأة كانت تجلس أمامي، في مكتبي في مبنى مجلة بوينس أيرس، وكانت تحدثني عن تشيلي وألليندي.

– سألني عنك. وقال لي: "أين إدواردو، قولي له أن يأتي إليّ، أخبريه بأني أدعوه؟".

– متى كان هذا؟

– قبل الانقلاب بثلاثة أسابيع. بحثت عنك في مونتيفيديو ولم أجدك. كنتَ مسافراً. ذات يوم اتصلت بك إلى المنزل وأعلموني بأنك انتقلت لتعيش في بوينس أيرس. ثم فكرت أنه لم يعد للأمر أدنى أهميّة كي أخبرك به.

سيهنه ll 42

قبل سنوات، في كييف، أخبروني لماذا استحقّ لاعبو الدينامو تمثالاً.

حكوا لي قصة تعود إلى سنوات الحرب.

كان النازيون قد احتلوا أوكرانيا. نظم الألمان مباراة لكرة القدم. منتخب قواتهم المسلحة الوطني ضد دينامو كييف الذي كان يتألف من عمال مصانع الألبسة: الرجال الخارقون ضد المتضورين جوعاً.

الملعب مكتظ. تنكمش المدرجات ويسودها الصمت عندما يُسجِّلُ الجيشُ المنتصر هدفَه المسائيّ الأوّل. تلتهبُ حين يتعادل مع الدينامو. تنفجر عندما ينتهي الشوط الأول بهزيمة الألمان باثنين مقابل واحد.

يرسل قائد قوات الاحتلال مساعدَهُ إلى غرفة الملابس. يستمع لاعبو فريق الدينامو إلى التحذير:

– لم يسبق للاعبينا أن هُزموا قطّ في أراضٍ محتلة –ويتوعّد:
– أن فزتم، سنعدمكم رمياً بالرصاص.
يعود اللاعبون إلى الملعب.
وبعد بضع دقائق، يسجل الدينامو هدفه الثالث. يتابع الجمهور اللعبة واقفاً بصرخة واحدة طويلة. الهدف الرابع: ينهار الملعب.
فجأة، وقبل انتهاء الوقت، يعلن الحكم انتهاء المباراة.
يعدمونهم رمياً بالرصاص بملابس فريقهم في أعلى أحد الجروف.

أقوى من أي حزن أو دكتاتورية

في مونتيفيديو، في أيام المنفى الأولى، كان لدى دارسي ريبييرو ببغاء يقف على كتفه ويقتلع شعراً عن صدره. كان الببغاء ينام على الشرفة. رياح الساحل شديدة في مونتيفيديو. في صباح أحد الأيام، طلع الفجر على الببغاء وقد غرق في مسبح تروفيل.

عندما عدت لألتقيه في ريو، لم يكن عند دارسي أيّ ببغاء. لكنه استقبلني قافزاً والجمر في عينيه؛ وناداني كما كان يناديني عادةً، "الخلاسي الإيديولوجي". سألني كيف هي أعمالي وأيامي، وقصّ عليّ، دون شكوى، قصة طوافه من بلد إلى بلد. حدثني عن البرازيل، وقال لي إنّ جمهورية الفولكس فاجن لا تختلف جوهرياً عن جمهورية الموز، وخلال دقائق قام بتحليل كامل للأزمة الهيكلية في الأرجنتين وشرح الأسباب التي أدت إلى مأساة تشيلي، وأكّد لي أنه تمّ ما كان بالإمكان القيام به في الأوروغواي.

كنت أستمعُ إلى نظرياته، الجريئة وتعريفاته المبهرة مسحوراً. دماغ دارسي يشبههُ، لا يهدأ أبداً، تستحقّ معرفة هذا الذكاء المُتَيَقّظ الألمَ حتى عندما يُخطئ أو عندما يسعى وراء الحقيقة بجنون.

لسبب ما، لا يستطيع تحمّله أولئك الذين جعلوا الماركسية كتاب تعليم أصول الدين ولا علماء الاجتماع المتخصصون في إضجار الغير.

ثم سألته عن السرطان.

خلع دارسي قميصه وأراني الندبة. كانت حفرة رهيبة علي شكل L، تحيط ظهره.

— انظر ـ قال وهو يضحك. أنا بقية قرش.

كان يريد أن يجروا له العملية في البرازيل. أعطاه الجيش إذناً كي يموت في بلده. كانوا بانتظاره. أخذوه من المطار إلى المستشفى. لم يبق لدارسي سوى القليل من النفس. وبما تبقى له من قوة، كان يلمس مؤخّرات المرضات. استأصلوا له إحدى رئتيه وبقي على قيد الحياة. شعرت الحكومة بأنّها خُدِعت.

في تلك الليلة في ريو، عشية الرحيل إلى ليما، كان دارسي يضحك طوال الوقت، لكنه اعترف لي بأن فكرة ترك التدخين كانت تزعجه.

— خطير، أليس كذلك؟ أنا الذي كنتُ أدخن خمس علب.

— هل تعلم ما الذي اكتشفته؟ -قال لي- اكتشفت أنّ المرء في واقع الأمر إنما يفعل كل الأشياء لأجل متعة التدخين. لِماذا ينزل المرءُ إلى البحر؟ لماذا يتحدث مع الأصدقاء؟ لماذا يقرأ ؟ لمَاذا يكتب؟ لماذا يمارس الحب؟

المتعة في السيجار -كان يقول- هي الاحتفال.

وكان يضحك.

الصوت الأخير

في إحدى ساحات أسونسيون في الباراغواي، رفع دون خوبر بيرالتا قبضته التي بدت كغُصَيِّنٍ جاف، ضد الدكتاتور ستروسنر.

– سنطيح بهذا الفوهرر الأميّ! – هتف بما بقي من صوته– بالحقيقةِ يجب أن نطيح بهؤلاء المجرمين!

كانت رائحة البول تفوح من العجوز بيرالتا، كان مجرد عظام عندما سمعته يلعنُ لساعات.

أخبرني بأنه كتب رسالة إلى الطلاب، يوضح لهم فيها أن عليهم أن يكافحوا من أجل أمريكا الوطن الواحد، سيّد ثرواته ودون أي جانكي؛ لكنه سلّمها لأحد الأشخاص كي يضعها في البريد ثم اتّضح أنه كان جاسوساً.

حدثني عن سولانو لوبيز وطريقة موته النبيلة وعن حرب التحالف الثلاثي.

ـ لقد أضرّت بنا أوليغاركية بوينس أيرس كثيراً ـ همس. جعلتنا غير واثقين، مرتابين. لقد دمرت نفسياتنا.

– أغبياء: صرخ، كي يتمكن المرء من سماعه عليه أن يشنّف أذنيه.

كان الجسد الصغير ساكناً تحت الشجرة الوارفة. لم يكن دون خوبر يستطيع أن يحرّك سوى شفتيه، لكنّ يديه وقدميه كانتا تهتزّان من السخط. قدماه كانتا متورمتين، بلا حذاء ولا جوارب. نام عند هبوط الليل.

كان خوبر بيرالتا قد كتب عدّة كتب، وحياته كانت سيرة نضال طويلة كي ينال الباراغوائيون حريتهم.

بعدها مات.

أصعب مهمة في حياتي

كنتُ أُفكّر:

– أنت أفضل مني. أعرف أن باستطاعتك مقاومته. إنّك صلب. لا بد لي من فعل ذلك، وأنا أطلب منك مساعدتي.

كان ذلك الرجل قد تحمّل حربَين في الجبال. لما أنزلوه على المحفة مغمياً عليه، كان الشيء الوحيد الثقيل في جسده هو حذاؤه المُهترئ المليء بالوحل. عذبوه بأن علقوه بالسقف. وكانوا يضربونه على كليتيه لأنهم يعرفون بمرضه ويعرفون أنه يبول دماً. لم يفتح فمه. عندما تمكن من النهوض في وقت لاحق، دخل إلى زنزانة الخائن وفزر له رأسه.

– ساعدني ـ كنت أفكرـ ساعدني على أن أهينه.

انضم للقتال عندما كان في الرابعة عشرة من عمره. ومنذ ذلك الحين عاش لأجل الثورة ولأجل امرأة واحدة. كنت سأطيح بنصف إيمانه.

– مهمّة خراء: فكرت.

في السجن، كان يصنع مَحافظ جلدية. وبما كان يكسبه يرسل ليشتري لها جوارب نايلون وأحذية. كان هنالك صندوق يزن ثلاثين كيلوغراماً مكدساً بملابس جديدة يريد أن يأخذها لها عند عودته، لأنها كانت ستنتظره في محطة القطار.

لكنّ هذه المرأة تعيش مع رجل آخر.

كان الحزب قد قرّر إخباره بأنها طلبت الطلاق. أراد الحزب أن يكون أول من يخبره بذلك، ليسبق العدو. يمكن للعدو أن يستخدم هذا الوضع ليضعف من وعيه ويجعله يشعر بأنّه وحيد.

كنت قد دخلت السجن بذريعة ما، وكانت مهمتي أن أخبره بذلك.

2

– إذاً فهي تعيش مع آخر_ أجابني.

– لا، الأمر ليس كذلك: قلت له، لكنها تريد.. في حال حدث.. تريد أن تكون حرة. معها حق. مضى وقت طويل ومن غير المعروف كم سنة بقي كي... معها حق. ألا تظن بأن معها حق؟ هي لم تلعب لعبة قذرة معك.

– إذاً هي تعيش مع آخر: كرّر علي. كان رجلاً قليلَ الكلام.
– إذا لم تكن تعيش مع آخر، فلماذا تريد الطلاق؟ وهذا الرجل، كيف هو؟ ألم تنجب منه ولداً بعد؟

3

في وقت لاحق سلمني رسالة، ملفوفة مثل سيجارة، كي أوصلها إلى أمّه.

لطالما كنت غير كتوم بما يخص الرسائل. وقد جاء في الرسالة:

"أمي:

كنت غبية حقاً. تركت نفسك تنخدع بتلك الصعلوكة. كنت أعرف من البداية أنها ستنتهي إلى هذه الصعلكة. أخبريها بأني لا أريدها أن تأتيني باكية فيما بعد.

أريدك أن تأخذي كل أغراضي، دون أن تتركي شيئاً. خذي الميدالية، والملابس والأحذية. استلمتُ صورة للأولاد. خذي الأولاد معَك أيضاً. لم يعد لها أي حق الآن ثمّ إن عليها ألا ترفض.

اطلبي من الزنجي أن يذهب إلى سانتا ريتا وعلى الطريق الرئيسي، مقابل المستشفى، ستكون أماليا هناك في المحطة، وإذا لم يجدها فليسأل الصيني عنها. شعرها أسود وتضع سواراً بزهور مطلية بالمينا كنت قد أهديته لها. ليقُل لأماليا أن تُحضّر نفسها لعودتي بعد وقت طويل.

أيضاً أخطري كلارا، ابنة عم أرنستو، أن تنتظرني. إنها تعيش خلف مقبرة إنرامادا، حيث الأكاسيا الكبيرة.

تحية طيبة للجميع، بوركتم."

(حدث هذا قبل عدة سنوات في أماكن لا أستطيع تسميتها).

بوينس أيرس، تشرين الأول 1975، ضوء المجد العنيف

جاء البيدنيت (ذو السنَّين)اليوم ليراني. حكى لي عن هروبه من الأوروغواي وأطلعني على أحدث المغامرات. أخبرني بأنه سيذهب قريباً ليزور حفيده في داكار.

البيدنت (ذو السنَّين)، يسموبه بهذا الاسم لأنّ له سنّين، يُتم عامه الأربعين في هذا الأسبوع. حذّرني: "في الأربعين يمكن للمرء أن يصبح قدّيساً أو ماجناً. لكن صرفاً".

البيدنت (ذو سنَّين) حكواتي باهر. أنا أحسده. يعرف كيف ينقذ نفسه عن طريق الخيال. وغالباً ما تكون دعوته جيدة. يُجلسكَ أمامه ويسافر بك:

في الحرب العالمية الثانية كان جزءاً من قيادة شتيرن، التنظيم الذي كان يُجلي اليهود عن طريق شبكات الصرف الصحي في وارسو.

يعثر على الحرية في باريس وهناك يتعلم أسرار الحب. تكشف له امرأة يابانية في فراش الحبّ الطويل لغة الأنامل واللسان السرية، وتعلمه اكتشاف عالم الشامات والمسامات والغضاريف. البيدنت (ذو السنَّين) بطل في الجودو والكاراتيه في باريس. يتعاقد معه شيخ عربي ليجهّز له جيشاً من المرتزقة. الحرب ضد الجمهوريين طويلة وصعبة.

البيدنت (ذو السنَّين)يجرجر نفسه في الصحراء مع الجندي الوحيد الناجي. يتقاسمان العطش والأمل لأيام وليال: يتقدمان بصمت عبر الكثبان الرملية، يضحكان ويبكيان سويّةً. لا يستطيعان الكلام لأنهما لا يفهمان لغة بعضهما. يصلان إلى مكة بعد رحلة مروعة عبر الصحراء. في تلك الليلة وفي هيلتون مكة يُقام عشاء على شرفهما. استحمّا، حلقا، وارتديا جلبابين نظيفين. العربي يقول كلاماً على

شرفهما والمترجم يترجم. العربي يؤكد أنه لم ير قط رجلاً بمثل تلك الشجاعة ويطلب منه راجياً أن يقبل استضافته هذه الليلة.

في الأمازون، قضى البيدنت (ذوالسنَّين) عامين مع هنود البورورو. اجتاز اختبارات المحارب التسعة. أصعبها كان اختبار النمل على الجسم المدهون بالعسل. قبلته القبيلة واعتبرته ابناً لها. لم يمارس الحب مع أي هندية. لو فعل ذلك لكان عليه أن يبقى إلى الأبد: لا أحد يستطيع الهرب من تلك القرية. في الغابة المحيطة عدَّ البيدنت (ذو السنَّين) ثمانية آلاف نمر واحداً واحداً.

في ماناو ستتعاقدُ معه عالمة إناسة أمريكية. يبحران في زورق. إنها شقراء فاتنة. البيدنت (ذو السنَّين) يدلك لها ظهرها العاري بدهن السلحفاة لإبعاد البعوض. حين يصلان أخيراً إلى قرية من قرى السكان الأصليين، بعد بضع حالات غرق وكمائن، يقترح زعيم القبيلة:

– أبادلها معك بابنتي.

– هي ليست زوجتي: يوضح البيدنت (ذو السنَّين).

– غبيّ: يقول زعيم القبيلة. ألا ترى أن هذا يناسبك أكثر؟

يزرع البيدنت (ذو السنَّين) النهرَ جيئة وذهاباً.

ذات مرة يصل منهكاً إلى محميّة من محميات السكان الأصليين في الألتوكسينغو. يلتقي هناك براهب يقدم له سريراً معلّقا لينام فيه في كوخه. يأكلان الفاكهة ويشربان الخمر. يتحدّث الكاهن أكثر من اللازم. يقص على البيدنت (ذي السنَّين) كيف كان يستغل الهنود، وذلك بأن يعطيهم صور العذراء مقابل تحف فنيّة قيِّمة. يرتابُ البيدنت (ذو السنَّين). يدرك أنّه أصبح شاهداً خطيراً. يتصنّع السكر. يترنّح نعِساً. لكنه ينام وقد شدّ الشبكة جيداً، كي تهتز

أرجوحة النوم مع أي خطوة. عند منتصف الليل، يدنو منه الكاهن على رؤوس أصابعه مصوِّباً عليه البندقيّة. يقفز البيدنت (ذو السنين) ويقطع له رأسه بالمنجل.

يغادر البيدنت (ذو السنَّين) مع تيار النهر. في أول مركز للشرطة، يلتقي بالمأمور سِو ثاكرياس، وهو صديق قديم له. يروي له ما حدث. سِو ثاكريا سيذهب إلى الزورق، يمسك رأس الكاهن من شعره ويلقي به في النهر.

– ستكتب أسماك البيرانيا تقريرها —يقول ويدعو البيدنت (ذا السنَّين) لتناول القهوة.

في العام التالي، في كولومبيا ...

ريو دي جانيرو، تشرين الأول 1975. في ذلك الصباح خرج من منزله ولم يره بعدها أحد حياً

1

نحن في مطعم لونا، نشرب البيرة، ونأكل الكاسكيناس دِ سيري.

حذائي أبيض من البودرة وأصدقائي يحاولون إقناعي بأن البودرة توضع أولاً.

مساء هذا اليوم أجرت معي صحفية مقابلة، في منزل غالينو دي فريْتاس. سجلت ساعتين أو ثلاث ساعات من المحادثة. آلة التسجيل لم تسجل شيئاً. الشيء الوحيد الذي بقي هو الطنين. اقترح زي فرناندو مقالا عن الحياة الجنسية للنحل.

يُعلن زي عن مأدبة، قصعة كبيرة من سمك السنوك، يوم الأحد المقبل، في منزله في نيتِروي.

أطلب مزيداً من الكاسكيناس دِ سيري، ثم المزيد؛ يصفونني بأني من الأسماك المفترسة.

هذه الليلة ضحكنا من كلّ شيء في مطعم لونا، ضحكنا من كلّ شيء؛ ونخرس حين تظهر من الباب امرأة بعينين كبيرتين وبشرة بلون الزيتون، تضع على رأسها وشاحاً أحمر معقوداً، مثل غجرية. تتركنا نراها للحظة، وللحظة تبدو إلهة، ثمّ تتبخّر.

2

نحن في مطعم لونا حين يأتي آري بالخبر:

– أجبروه على الانتحار: يقول.

حكى له تورِّس ذلك على الهاتف. أخبروه من سان بابلو.

ينهض إريك، شاحباً فاغر الفم. أضغط له على ذراعه؛ يعود ويجلس.

أعلم أنه كان على موعد مع بلادو لكن الأخير لم يحضر ولم يتصل به.

– لكنّه لم يكن له علاقة بأي شيء: علّقَ.

– قتلوه لأنّه لا يعرف– يُعقّب غالِنو.

– الآلة مجنونة: أُفكّر أو أقول.

لا بدّ وأنه منسوب إليه حتى ثورة الـ 17.

إريك يقول:

– اعتقدتُ أنّ هذا قد انتهى. يسقط رأسه بين يديه.

– أنا... يشكو.

– لا، يا إريك: أقول له.

– أنت لا تفهم: يقولُ لي– أنت لا تفهم شيئاً. أنت لا تفهم البتة.

الكؤوس فارغة. أطلبُ المزيد من البيرة. أطلب أن يملؤوا لنا الصحون. يرمقني إريك بنظرة غاضبة ويدخلُ إلى الحمام.

أفتح الباب. أجده وظهره إلى الجدار. وجهه مكفهر وعيناه رطبتان. قبضتاه مشدودتان.

– اعتقدت أن الأمر قد انتهى. اعتقدت أن الأمر برمته قد انتهى: يقول.

كان إريك صديقاً لبلادو وهو يعرف بما قام به وبالكثير من الأشياء التي كان سيقوم بها، ولم يقدر.

3

منذ وقت ليس ببعيد، وُلد ابن إريك. اسمه فيليب.

– بعد عشرين عاماً سأروي له ما يحدث الآن. سأحكي له عن أصدقائي الذين ماتوا والذين أُسروا وكيف كانت الحياة صعبة في بلدنا، وأريده أن يُحدِّق في عينيّ، فلا يصدقني ويقول لي إني أكذب. الدليل الوحيد سيكون هو أنه كان هنا، لكنه لا يتذكر شيئاً من هذا. أريده ألا يستطيع أن يصدق أن كل هذا كان ممكناً في يوم من الأيام.

4

ولد فيليب في الساعة الخامسة والنصف من صباح الرابع من أيلول. اتصل إريك بصديقه الحميم من سان باولو:

– مارتا تضع وليدها. أشعرُ بالوحدة. أشعر بأني لست بخير.

أكد الصديق بأنه سيحضر خلال نصف ساعة، لكن بقي نائماً ولم يحضر.

خرج إريك إلى الشارع. اشترى الجريدة اليومية. أعطى البائع ورقة نقدية من فئة المئة كروزيرو.

– لا: قال له بائع الجرائد– ليس لديّ صرافة.

رفع إريك يده وأشار إلى مبنى التوليد.

– هل ترى ذاك الشبّاك هناك؟: قال، زوجتي تلِدُ الآن ولداً. تعال واشرب البيرة معي. تدعوني بهذه الورقة النقدية.

5

فيليب في مهده وإريك يحكي له أشياء:

– هل تعلم أنني لا أجيد التعامل بالمحروقات ؟ عادت ونفدت مني اليوم. عليك أن تنبهني حين نمر بالمحطة.

يقول له:

– ولدتَ وكل شيء مقرّر. لك أب لن يفتر أبداً ولن يكون صاحب مال أبداً. لقد دمّروا أصدقاءَ والدك. سنذهب الآن إلى بوينس أيرس. عذراً؛ فأنا أتحوّل إلى ظالم. سآخذك معي وأنت لا تستطيع أن تُقرِّر.

ويفكر:

– ماذا لو فكّر غداً أنَّ العالم ليس على خطأ؟ وماذا لو فضّل أن يكون ابنَ مُضارب في سوق أوراق مالية؟

يرفعه، يحمله إلى الشرفة، ويريه النباتات:

ـ انظر. هذه ثاني ياسمينة لدينا خلال أربع سنوات. الأولى لم تزهر قط وهذه أعطتنا أربع زهرات. كنت في الخارج حين أزهرت. آلمني أني لم أشهد ولادتها. قتلت حشراتها وتمكنت من رؤية البراعم. الآن عليّ أن أنتظر سنة . كان علي أن أذهب، هل تعلم؟ لم يكن هناك خيار آخر. اضطررت للعمل.

في الحقل، يتسلق إريك الأشجار، كي يراه فيليب وهو يفعل ذلك.

6

استحمَّ بلادو إرثوغ، حلقَ؛ قبّل المرأة. هي لم تنهض وترافقه إلى الباب.

– ما من داع للخوف: قال– سأمْثُلُ أمامهم وأوضح كلَّ شيء ثم أعود إلى البيت.

نشرة الأخبار في تلك الليلة حملت توقيعه. عندما شاهد الناس الأخبار، كان هو قد مات.

البيان الرسمي صرّح بأنه قد شنق نفسه. السلطات لم تسمح بتشريح آخرَ للجثة.

لم يدفن بلادو في جناح المنتحرين.

صرّح رئيس الأمن العام في سان باولو: "هذه معركة شرسة، هي حرب مكشوفة، حرب علينا، إذا كنا نريد ألّا نُهزم، أن نستخدم فيها أساليب أعدائنا ذاتها. سنتغدّى بهم قبل أن يتعشوا بنا".

7

هل تعرف كيف هو الفجر من نافذة منزلك في ريّو، يا أخي؟ هناك صفاء في السماء يرتفع تدريجياً خلف الأسطح، والتلالُ تصبحُ شيئاً فشيئاً أرجوانية. تهربُ الغيوم المحملة بالمطر. يمرُّ عصفور بالقرب منك، مثل ضربة سوط: إنه علامة اليوم الجديد. يرتعش جسدُك من الهواء العليل ويشرح لك صدرك. بيتُك، بيتي: البحر في البعيد، لم يعد يُرى بسبب المباني الجديدة اللعينة، لكنني أشعر به، برائحة المحار، بهدير الموج، أعلم أنه سيبتلعني ذات يوم، هناك، هو، الإلهُ الشرهُ، مرتدي البياض، هناك سيأخذني.

8

نذهب لزيارة لاماس القديمة كي نودّعها. قريباً سيهدمونها ولن يكون هناك مكان نستنشق فيه طِيْبَ الفواكه المختلط والتبغ والأزمنة الغابرة. ندخل لاماس بعد أن نعبر جبال البرتقال والموز والأناناس والجوافة والماراكويا.

نشرب البيرة بصمت وحزن، كأساً تلو الآخر. من طاولة في آخر البار، كانارينو، حاجّ حانات ريّو، يشتم الناس.

– أنا قرأت نيتشه بينما أنتم لا تعرفون شيئاً: يهاجم.

إنه صغير جداً ونحيف، وحيد وثمل للغاية. يخرج من حوصلته في نهاية كل جملة، صفير. صفير كناري صغير:

– وسنتكلم دائماً. يعتقدون بأنهم سيُخرسوننا؟ لا، لا! جبناء!

يَصفُرُ الكنارينو.

– كلهم شباب! إنهم يكرهون الشباب!

ويصفر.

– سان باولو لا تستطيع أن تتوقف عن القتل. لا تستطيع أن تتوقف عن القتل.

ويصفر.

النظام

نصف مليون أوروغوائيّ خارج البلد. مليون باراغوائيّ، نصف مليون تشيلي. تبحر السفن غاصّةً بالفتيان الذين يفرون من السجن، حفرة الجوع. من الخطر أن تكون حيّاً؛ التفكير؛ خطيئة؛ الأكل؛ معجزة.

لكن، كم عدد المهجّرين داخل حدود البلد نفسه؟ أي إحصائيّة تدوّن من حكم عليهم بالإذعان والصمت؟ جريمة الأمل، أليست أسوأ من جرائم الناس؟

الديكتاتورية هي عادة من عادات العار: إنها آلة تجعلك أصم وأبكم، غير قادر على أن تسمع، عاجزاً عن أن تتكلم و أعمى عن كل ما هو ممنوع النظر إليه.

أثار أول قتيل تحت التعذيب فضيحةً في البرازيل عام 1964، فضيحة وطنية. بالكاد ظهر القتيل العاشر تحت التعذيب في الصحف. القتيل الخمسون قُبلَ كأمر "طبيعيّ".

يعلِّم النظامُ تَقَبّل الرعب، كما يُتَقَبّل البرد شتاءً.

بوينس أيرس، تشرين الثاني 1975: أحبّ أن أشعر بأنني حرّ وأن أظلّ حراً في حال أردت

1

تنزلق حبات العرق وتسقط، طَقْ، طُقْ، بين الأوراق المبعثرة على الطاولة. هذا المكتب حظيرة. تتقدم الأوراق، تأتي إليّ، تقترب مني. تختلط الرسائل التي عليّ أن أردّ عليها بالمقالات التي عليّ أن أراجعها وأعنونها مع الأعمال التي لم أقرأها بعد. أمدّ يدي إلى الأمام. تخترق يدي جبل الأوراق: أتلمس، أتحسّس. لا أعثر على المنديل. أعثر بدلاً عنه على السجائر. أنهض لأسرق كبريتاً. يحرقني ما بين ساقيّ بينما أمشي.

تطلّ رسالة مارتا من بين الأوراق، أرملة رودولفو خيني. قاموا بتصفيته قبل نحو سنة. سحبوه فجراً من منزله في وانغويلين، ثمّ ألقوا بجثّته على قارعة الطريق، على بعد خمسة أميال، وقد خرّم الرصاص جسده. ومنذ ذلك الحين، وزوجته تُحضر أو ترسل إلي ما تجده من الأشياء التي كتبَها. صرتُ صديق هذا الرجل الذي لم يسبق لي أن عرفته. الكلام الذي تركه يقربه مني. "هل من الممكن أن يحب المرء النهر دونَ البحر؟" كتب. "الرب لا يعيش لأنه لا يمكن أن يموت، لذلك فإنّه لا يعرفك ولا يحبك."

كان خيني معلماً. جريمته الوحيدة هي أنه علَّم طلابَهُ أن ينظروا إلى الأمور مباشرةً في هذا المستنقع.

"كل ليلة أعتقد بأنها ستكون ليلتي الأخيرة –تكتب لي مارتا– لا أخشى على نفسي بل على الأولاد."

(في تلك الليلة، فكت الكمامة بأسنانها وراحت تشد حتى سحبت العصابة عن معصميها، وصرخت وركضت في الظلام.)
ابنها ابن العشر سنوات سألها في ذلك اليوم، وهو ينظر إلى المسيح المصلوب:

– أمي، هل كان هنا عندما دخل هؤلاء الرجال؟ كنت أظنّ أن هذه الأمور لا تحدث حيث يكون.

2

رسالة من خوان غيلمان من روما. كان نائب رئيس تحرير المجلة. تمت إدانته منذ فترة. ركب طائرة وأنقذ نفسه.

"منذ ثلاثة أسابيع وأنا أعاني من عدم انتظام في دقات القلب– كتب لي– وليس باستطاعتي التخلص منه. ليس لأنني أشعر بالذنب بل لأنني بعيد، وقبل كل شيء، لأنّ خطورة ما حدث هناك يصطدم هنا بجدار مطاطيّ. تصيبني حالات لا تطاق من الغضب والحزن، والنتيجة النهائية هي إصابتي بعدم انتظام دقات القلب التي لا تتركني ولا تدعني أتنفس.

"اعذرني على جديتي. لم أتمكن من أن أفرّغ ما بداخلي منذ فترة. أجد صعوبة كبيرة في الكتابة إلى ـ بوينس أيرس. لا أدري ما إذا كان دفاعاً عن النفس أو رغبة في أن أتفادى، ليس الألم، بل الحديث عنه . أعلم أن هذا سيّئ، وهذا ما يُسَبِّب لي الكوابيس الليليّة.

"كما ترى، أنا في وضع سيّئ كيما أحب. أكتفي بممارسته في معظم الأوقات. أعرف أن هذا لا يكفي. كثيرون نحن الذين نمضي معطوبي الحب، لكن لا بدّ من التحلي بالشجاعة لإخراجه من الداخل بأعطابه وكلّ شيء. يبدو لي الآن أنه شيء يجب تعلّمه مثل

أشياء كثيرة في الحياة. سنموت ونحن نتعلم، إذا أردنا أن نعيش غافلين عن الموت".

بدا لي أني أرى خوان في الصباح الذي ترك لي على طاولة المكتب طرداً ملفوفاً بورق الجرائد ومربوطاً بخيوط قنب. كل ملابسه وأمتعته كانت هناك. قال لي:

– اضطررت لأن أنتقل من المنزل. لا أعرف إلى أين. أنا خارج للبحث. احفظ لي أشيائي.

التفت ويده على مقبض الباب ثمّ أضاف:

– لكن قبل ذلك، احكِ لي قصّة الدجاجة، فأنا حزين.

إنها قصة لباكو اسبينولا. كان خوان يعرفها عن ظهر قلب، لكنه كان يختنق من الضحك في كل مرة أكررها له. لقد طهّر باكو شرف العائلة بأن ذبح دجاجة باتاراتا* كانت قد لعنت أنفاسه.

من بعيد، أكتب له رسالة مزعجة الآن.

يقول خوان إنّ الأمر صعب عليه، لكنّه يستطيع أن يفتح صدره ويدعوهم إلى وليمة، إذا أحبوا "كالخبز للفم –عرف كيف يكتب لامرأة– كالماء لليابسة، ليتني أفيدك بشيء"، وعرف أن يطلب منها: "قدماك تسيران في قدميّ، قدماك. أنت فيّ كالخشب في العصا". لأنّ الشاعر خوان أراد أن يكون جسدُها البلدَ الوحيد الذي يهزمونه فيه.

3

أغوص بيديّ في جيبيّ. أمدّ ساقيّ. أرتعش في كَبْوَتي متعةً أو تَعَباً. أحسّ بالليل وقد دخل المدينة. لقد تأخر الوقت وأنا وحدي.

عليّ ألاّ أبقى هنا وحدي. بتُّ أعلم. لكنني في هذه الليلة سمحت لنفسي بذلك، ظللت لا أفعل شيئاً أو أفتح بُوَيّبات الخيال أو الذاكرة.

كسول. التصقتُ بالكرسيّ، لا بدّ أن يكون بسبب الحرّ؛ أو لأنّني أردت، لا أكثر.

أشعر بالكثير من الناس، أعرفهم أو أخترعهم، يصفرون في رأسي. بداخلي تتقاطع وتختلط الوجوه والكلمات. تولد، تكبر وتطير. هل أنا هذا السمع الذي يسمع أم أنّني اللحن؟ لست العين التي ترى: أنا الصور.

4

يرن الهاتف فأنتفض. أنظر إلى الساعة. إنها التاسعة والنصف مساءً. أجيب أم لا؟ أجيب. إنه قائد التحالف الأرجنتينيّ المناهض للشيوعية، خوسيه روتشي.

– سنقتلكم يا أولاد العاهرة!

– توقيت التهديدات من السادسة حتى الثامنة أيها السيّد: أردّ

أُغلق وأهنّئ نفسي. أنا فخور بها. لكنني أُريد أن أنهض ولا أقدر: ساقاي خرقتان. أحاول أن أشعل سيجارة.

بوينس أيرس، تشرين الثاني من عام ١٩٧٥: استيقظ في الوحل

أيقظه المطر الذي راحَ يسوطُهُ بشدة، في مكان ما في الدلتا. كان النمر بنّيّاً وكان هو يعتقد أن تلك كانت أنهار الجحيم. مشى مترنّحاً في الجزُر. دخل نزلاً وجلس قرب النار. أحضروا له النبيذ ودعا امرأة إلى طاولته. عندما دعاها، كانت شقراء؛ ولكن مع مرور الساعات، راح لونها يتغيّر وكبرت سنين كثيرة. شدّ على مخالب الساحرة بين يديه وأخبرها بأنّ شقيقه مات في مونتيفيديو، ميتةً غبيّة، وأنه لم يكن بوسعه الذهاب، لم يستطع، لكن ذلك لم يكن الأسوأ. كان الأسوأُ شيئاً آخر، كان يقول: هي أرادت أن تذهب، وهو لم يسمح لها. كان

الأسوأ أنه لا يستطيع أن يتذكر المرةَ الأخيرةَ التي التقيا فيها ولا ما قالاه ولا أي شيء.

إميليو كاسابلانكا يحكيه لي ولا يدري ما إذا كان ذلك قد حدث بالأمس أو قبل عام، وأعتقد أنني أراه في تلك الخمارة من شارعٍ سوريانو، ذات ليلة من ليالي الغضب، عندما وضع مقابل الجدار صفاً من زجاجات النبيذ الأحمر وراح يفجرها الواحدة تلو الأخرى ضرباً، وبقي بعد ذلك وقتاً طويلاً لا يستطيعُ أن يرسم.

التقينا مصادفة في زاوية من زوايا بوينس أيرس. الآن سنتناول شيئاً من الطعام معاً. سنذهب غداً إلى المعرض. سنذهب في مشوار مع الفتاة الصغيرة، ففي السماء الكثير من النجوم ومن الثابت أن اليوم سيكون لطيفاً.

النظام

يتعرف المقنعون على بعضهم عن طريق السعال.

يُنكّلون بشخص ما شهراً ثمَّ يقولون لما تبقى منه: "كان خطأ". حين يخرج، يكون قد خسر عمله، ووثائقه أيضاً.

يمكن أن تتمّ إقالة أي معلم أو مُدرّس لمجرد أنه قرأ أو تفوّه بعبارة تُثير الشك، ويصبح عاطلاً عن العمل إذا تمّ إيقافه، ولو لمدة ساعة وعن طريق الخطأ.

الأوروغوائيّ الذي يُنشِد بنوع من الحماس، أثناء الاحتفالات العامة، مقطعَ النشيد الوطني الذي يقول: ارتعدوا أيها الطغاة! يُطبق عليه "القانون الذي يدين الاعتداء على الروح المعنوية للقوات المسلحة": بالسجن من ثمانية عشر شهراً إلى ست سنوات. وإذا ما خربش على جدار: عاشت الحرية أو قام برمي منشور في الشارع،

فعلى الرجل أن يقضي في السجن، إذا نجا من التعذيب، جزءاً كبيراً من حياته. إن لم ينجُ، فإن شهادة الوفاة ستُصرح بأنّ قدمَه زلت وهو يرمي بنفسه في الفراغ في محاولة للفرار، أو أنه شنق نفسه، أو أنه قضى نحبه نتيجة نوبة ربو. لن يكون هناك تشريح للجثة.

يُدشّن سجنٌ كلَّ شهر. هذا ما يسميه الاقتصاديون بخطة التنمية.

لكن، ماذا عن الأقفاص غير المرئية؟ في أيّ تقرير رسمي أو إبلاغ بالمعارضة يظهر أسرى الخوف؟ الخوف من فقدان الوظيفة، الخوف من عدم العثور عليها، الخوف من الكلام، والخوف من الاستماع، الخوف من القراءة. في بلد الصمت، يمكن أن ينتهي بك الأمر إلى مُعسكر اعتقال بسبب بريق عينيك. طرد عامل ليس بالأمر الضروري: يكفي أن يجعلوه يعلم أنّه يمكن أن يُقال من عمله بلا سبب ولن يوظفه أحد بعدها أبداً. تنتصر الرقابة حقاً عندما يصبح كل مواطن رقيباً لا يرحم على تصرفاته وكلماته ذاتها.

تحوّل الدكتاتورية الثكنات ومراكز الشرطة، وعربات القطار المهجورة والقوارب التي ما عادت تستعمل، إلى سجون. ألا تحول أيضاً كلَّ بيت إلى سجن؟

النظام

كان عيد ميلاد والد كارل. سمحوا له لمرة واحدة أن يبقي مع الناس الكبار بعد العشاء. ظلّ جالساً في زاوية من الزوايا، صامتاً، ينظر إلى الأصدقاء والأقارب وهم يشربون ويتجاذبون أطراف الحديث. حين نهض، اصطدم كارل بطاولة ورمى على الأرض قدحاً من النبيذ الأبيض.

– لا تقلق ـ قال الأب.

كنست الأم الزجاج ونظّفت الأرض بخرقة. رافق الوالد كارل إلى غرفة نومه، وقال له:

-في الساعة الحادية عشرة، عندما يكون الضيوف قد غادروا، سأضربك.

بقي كارل لأكثر من ساعتين معلّقاً في سريره بالأصوات وبمرور الدقائق.

في تمام الحادية عشرة ليلاً جاء الأب، خلع حزامه وجلده.

- أفعل هذا من أجل مصلحتك، كي تتعلم - قال الأب، كما كان يقول دائماً، بينما كارل يبكي، عارياً، دافناً رأسه في الوسادة.

قبل بضع سنوات، حكى لي كارل، في مونتيفيديو، هذه القصة من طفولته هذه في ألمانيا.

بوينس أيرس، كانون الأول من عام 1975: قرابين

أجمع الحطب، وأجلب الماء من الجدول.

- ذُقْ يا معلم. لا ينقصها شيء.

- امم.

- هل أعجبتك حقا؟

- رائعة يا أخي.

حصلنا على بعض السجق الخالية من الدهون واللذيذة جداً. يستحق لحم صدر الخنزير أن يبقى فترة في الفم، بعدها نتناول الشرائح السميكة المشوية، نقطعها ضلعاً فضلعاً على المشوى وعلى مهل، ونأكلها أيضاً على مهل كما ينبغي. نُتخم قليلاً، لكن من الضحك.

- السجق ناشفة جداً. يصدر عنها صوت طقطقة.

- قمت بثقبها قبل أن أضعها على النار. هنا يكمن السرّ.

تركنا النبيذ يتنفّس، زجاجتين من نبيذ كاركاسون الأحمر، استمتعنا وتلذذنا به وهو ينزلق، فاتراً، سميكاً، في الأحشاء والأوردة.

أكلنا وشربنا حتى لم يبقَ ضلعٌ واحد على المشوى. يمسك إدواردو باللقمة الأخيرة برأس السكين. أنظرُ إليه. بعيْنَيْ كلب أنظرُ إليه وأُفَكّر: "سيتأثّرُ"، لكنه يبلعها دون اكتراث.

ثم نرتمي على العشب، والشمس في وجوهنا والجزيرة بكاملها لنا. ندخن. لا يوجد بعوض. النسيم يصفر في رؤوس أشجار الكازورينا. بين الفينة والأخرى نسمع في البعيد صوت المجاذيف.

لو كنت وحدي، لفقد هذا الشواء مع إدواردو ميغنوغنا الكثير من متعته أو لانعدمت. بطريقة أو بأخرى، معاً نضفي على اللحم والنبيذ مذاقاً رائعاً. نأكل ونشرب كما لو أننا نحتفل بالفم والذاكرة معاً. في أي لحظة يمكن أن ينتهي المرء برصاصة، أو أن يبقى وحيداً تماماً بحيث يتمنى لو يحدث هذا، لكن لا شيء من هذا له أدنى أهمية.

حين أستيقظ من قيلولتي، يكون إدواردو جالساً على رصيف الميناء مُدلّياً ساقَيْه. ضوء المساء يقرص مياه نهر غامبادو.

– رأيت ليلةَ أمس حلماً: قال لي – نسيتُ أن أحكيه لك. حلمت بأننا قادمان إلى هنا على متن زورق ركاب. كنا نثرثر جالسين وجهاً لوجه في مؤخرة الزورق. في ذلك الجانب لم يكن هناك سوانا. كان الركاب الآخرون جميعاً على مقاعد القيدوم، بعيدين عنا جداً. إذ ذاك نظرت إليهم ولاحظت أمراً غريباً. كانوا هادئين جداً، خرساً ومتشابهين تماماً. قلت لك: "انتظرني"، ومشيت إلى الطرف الآخر. لمست أحد الركاب وطَقْ... سقط على

الأرض. إثر السقوط انفك رأسه الذي كان من جص. صحت لك، "اقفز، اقفز!" وغطست أنا أيضاً. سبحنا تحت الماء. عندما رفعتُ رأسي، رأيتك. عدنا لنغوص ونسبح بقوة. كنا بعيدَين جداً عندما انفجر القارب. شعرت بالانفجار وأخرجت رأسي: رأيت الدخان واللهب. كنت بجانبي. احتضنتُك واستيَقْظَتُ.

بوينس أيرس كانون الأول من عام 1975: قرابين

اتصل بي خايرو. أمس من بورتو أليغري. سيقضي بضعةَ أيّام في بوينس أيرس. دعاني إلى العشاء.

لم نر بعضنا منذ خمس أو ست سنوات. يفاجئني، وأُخفي ذلك. وجهه مشوه، إحدى عينيه نصف مُتهدّلة، ويبتسم وارباً فمَهُ. يده اليسرى مخلبٌ، قلّما تتحرك، يحميها قفّازٌ من برودة الليل.

مشينا في مركز المدينة. جسد خايرو يهتزّ، يدفعني من غير قصد. يتوقف. يتنفس بعمق. تضايقه وخزاتُ الألم في خاصرته. إنّهُ عصبيّ. يمشي ويبصق.

لا أطرح عليه أسئلة. هو يذكر أحياناً الحادث: "حين وقع معي الحادث"، يقولُ، أويقولُ: "منذ أن وقع معي الحادث."

يحكي لي عن أبحاثه التاريخية، عن الوثائق المثيرة التي اكتشفها في البرتغال، الحياة في الموكامبوس، في بالمارس، عن تمرُّدِ العبيد في مدينة سلفادور؛ ويشرح لي أطروحتَهُ عن العبودية كمركز لتاريخ البرازيل.

دخلنا مطعماً بينما كنا نواصل النقاش. دَرَسَ خايرو الباراغواي خلال الدكتاتورية الفرنسية دراسةً وافية. نختلفُ. أيضاً لا نتفق على زعامات المونتونيرو في أرجنتين القرن الماضي.

ولكن ليس هذا ما يُريد أن يُحَدّثني عنه. أشعرُ طولَ الوقت أنّ الصوتَ صوتٌ آخر، وأنّ اللحن لحنٌ آخر.

نطلبُ المزيدَ من النبيذ.

أخيراً يُحَدّثني عن تلك المرأة. يكلمني عن الحب المتأجِّج ويقولُ لي إنّها باغتَتْهُ ذاتَ ليلة مع أخرى. بعد عشرة أيام ذهب خايرو ليطلب عفوها. هي لم تقل له شيئاً. قبلها وداعبها. سألته:

– هلِ ترغب في ممارسة الحب معي؟

قالت له:

– إذا كنت تريد، فعليك أن تدفع لي.

جلس ونظر إليها. سألها:

– كم تقبضين؟

– ثلاثة آلاف كروزيْرو—ردّت

ملأ الشيك على مهله. وقّعه، نفخ عليه و سلمه لها.

خبأت الشيك وقالت:

– انتظرني، سأنزل لأشتري تبغاً.

عندها بقي وحده. هجم على زجاج النافذة وقفز. بقي ممدداً على الرصيف. شقتها كانت في الطابق الثالث.

ثم قضيا وقتاً دون أن يلتقيا. حين فعلا كان هو على عكازين. تعانقا وهما يتبادلان الشتائم.

يطلبُ زجاجةَ نبيذٍ أخرى.

– تعِبتُ من الكذب– أسرّ لي خايرو– الجميع يسألونني ما الذي حدث لي وأنا أقول لهم إنّه كان حادثاً. كنتُ في السيارة على الطريق و ... في الآونة الأخيرة، أحكي حتى التفاصيل.

بوينس أيرس، كانون الأول من عام 1975: قرابين

لويس سابيني، مدير إنتاج المجلة، اختفى.

لدينا أمل في أن يكون سجيناً، لكن الشرطة تُنْكِرُ ذلك. قلب كلّ من فيكو وأنيبال السماء والأرض، منذ أكثرٍ من أسبوعٍ وليس لدينا أخبار عنه.

في بعض الأحيان، بعد العمل ليلاً ، كان لويس يطيل الحديث عن الأب الذي وصلَ إلى مونتيفيديو من إحدى قرى بارما والتي كان فيها مئة منزل وكنيسة.

عندما كان لويس صغيراً، كانوا يصنعون النبيذ في منزله في مونتيفيديو. يسحقون العنب بأقدامهم الحافية فيصل العصير حتى أفخاذهم. كانت الأبخرةُ تسكرهم جميعاً. كان القمرُ يتحَكّمُ بوقت نقلها بين براميل خشبِ البلوط.

كلُّ نبيذٍ وله اسمه. قبلني وسترى أنّ النبيذَ الورديّ قوي؛ الأسود مجنون، نبيذ المائدة؛ أمّا غرينغيولي، الأحمر، فقد كان من السماكة إلى حد أنّك تغرز فيه ملعقة فتبقى واقفة.

حلّ العامَ الجديدَ في قطار خالٍ من الناس

غادر أريبيل منزلَ رجلٍ تشيليٍ كان قد توفي تَوّاً، قضى بعيداً عن وطنه.

بعد قليل من الآن، سيصبح الهواء رمادياً، مُعلناً عن اليوم الأول من 1976. كذلك أريبيل كان بعيداً عن وطنه، ولن يكن لفجر اليوم التالي في فرنسا أي معنى بالنسبة له. في وطن أريبيل كان الوقت آخر، وقت تشيلي؛ كانت هناك أمامٍ الطاولات كراسٍ فارغة والناجون يرفعون أقداحَ النبيذ فقد بدؤوا توّاً احتفالهم بنهاية سَنة خراء.

كان أربيل دورفمان يسير ببطء في شوارع هذه الضاحية النائية من باريس.

غاص في محطة القطار. كان يسمع صدى خطواته، ويبحث عن كائن بشري في العربات الفارغة.

وجد الراكب الوحيد. جلس قبالته.

أخرج أربيل رواية المهرج من جيبه وشرع يقرأ.

انطلق القطار، وعلى الفور أخبره الرجل بأنه يود أن يصبح مهرجاً:

– أُحب أن أصبح مهرجاً : قال، وهو ينظر من مربع النافذة الأسود.

لم يرفع أربيل نظره عن الكتاب.

– لا بدّ أنها مهنة حزينة: قال

ردّ الرجل بأنها كذلك فعلاً، وأنه هو نفسه كان حزيناً.

– أجل، لكن أنا حزين.

حينها تبادلا النظر.

– أنا حزين، أنت حزين: أردف أربيل.

أضاف الرجل أنّ من شأنهما أن يشكلا معاً ثنائيّاً جيداً من المهرجين. سأله أربيل: أين؟ في أي سيرك؟

– في أي سيرك كان –أجاب الرجل– في أي سيرك من بلدي.

– ومن أيّ بلدٍ أنت؟

– البرازيل: عقّب الرجل.

– يا إلهي! إذاً أستطيع أن أكلمك بالإسبانية!

وأخذا يتحدثان عن وطنهما المفقود بينما راح القطارُ يتقدّم باتجاه باريس.

ـ أنا رجلٌ حزين –قال الرجل– لأنني أريد أن نفوز، ولكنّني أعتقدُ في أعماقي أننا لن نفوز.

بعد ذلك ودّعَ كلٌّ منهما الآخر بقبضة مرفوعة.

بوينس أيرس، كانون الثاني من عام 1976. مدخلٌ إلى الموسيقى

1

خوليو في المنزل. اضطُرَّ لأن يُغادرَ مونتيفيديو. اعتقلوه للمرة السابعة واضْطُرَّ لأن يُغادر. يذهب وليس معه نقودٍ ولا رغبة؛ لا يعثر على عمل.

هذه الليلة أكلنا شرائح لحم مع سلطة، حضَّرها بنفسه، وشربنا نبيذاً.

يستلقي خوليو على السرير ويُدَخِّن. وددتُ لو أسمعه وأساعده، لكنه التزم الصمت، رافضاً أن يدعوني وهو يتألم. أنا نفسي صرتُ شبحاً أبله. لا أوقظ الأشياء حين ألمسها: تسقط من يدي.

أختار أسطوانةً إيطاليةً من العصر الباروكي. لا أعرف متى اشتريتها، ولامع من؛ لا أذكر أني استمعتُ إليها.

يصل ألبينوني في اللحظة المناسب.

نحتفي باللحن، ندندن به بصوت عال؛ وفجأة تغمرَ الغرفةَ أخبارٌ سارة.

2

تحضرني إحدى قصص باكو اسبينولا.

يبدو لي أني أسمعه، أسمعُ باكو: صوته المبحوح المُجرجر، وعقب لفافة التبغ غير المشتعل يتدلى من شفتيه خلال حلقات النار أو القهوة حتى الفجر. في محيط سان خوسِهْ هناك معالج زنجي، أُمّيٌّ، كبير في السن، كان باكو قد تعرّف عليه منذ أيام الطفولة. كان الرجلُ يعالج

الناس جالساً تحت شجرة أمبو ويضع نظارةً كي يفحص مرضاهُ بِعَيْنَي طبيب وكي يبدو أنّه يقرأ الصحيفة.

كان أهل القرية جميعاً يحبونه ويحترمونه. كان الزّنجيُّ يعرف كمعالج شرعيّ جيد، كيف يشفي الناس بالأعشاب والأسرار.

ذات مساء أحضروا له مريضة كانت حالتها في غاية البؤس. كانت الفتاة مجرّد جلد وعِظام: شديدة الشحوب، لا ضوء في نظرتها، فاقدة الشهيّة، لا تقوى على الكلام ولا علىَ المشي.

أومأ الزنجي فدنا كلٌّ من والديها وشقيقها من الشجرة.

كان هو جالساً يتأمل؛ وكانوا هم واقفين ينتظرون.

– أيتها العائلة: لقد تمَّ، أخيَراً تشخيص حالتها: روح هذه الفتاة مُفكّكة تماماً.

وأعطى الوصفة:

– إنها بحاجة إلى الموسيقى لإعادة ضبطها من جديد.

كان صباحاً رماديّاً والبرد فيه قارساً

وصلت في فجر أحد أواخر أيام حزيران من عام 1973 إلى مونتيفيديو على متن باخرة تعبر النهر من بوينس أيرس.

كنت واقفاً في مقدمة الباخرة ممعناً النظَر في المدينة وهي تقترب ببطء في الضباب.

حلّت مصيبتان في بلدي وأنا لم أدر بهما. لقد مات باكو اسبينولا وقام انقلاب عسكري كما تمّ حل الأحزاب والنقابات وكل شيء آخر.

لم أكن أرى النور كما لم أكن قادراً على أن أسير أكثر من ثلاث خطوات

قبل الانقلاب بفترة وجيزة، بينما أنا عائد من سفرة أخرى، وصل إلى علمي أن الشرطة بحثت عني في بيتي في مونتيفيديو.

مثلت أمامهم بمفردي. شعرت بالخوف حين دخلت. أُغلق الباب خلفي بصوت مجلجل كما لو أني وقعت في شرك. عشّش الخوف فيّ ساعة من الزمن. ثم غادر جسدي. ما الذي يمكن أن يحدث لي، أسوأ من الموت؟ لن تكون الزيارة الأولى.

أنا بمواجهة الجدار في الفناء. كان الطابق العلوي مركزاً للتعذيب. من ورائي يمرّ السجناء. كانوا يسحلونهم في الفناء. بعضهم كان يعود مكسّراً؛ يلقون بهم على الأرض. في منتصف الليل كان يُسمع دوي صفارات الإنذار من جهاز الإرسال. سمعت الجلبة والشتائم، وهيجان قطيع الكلاب التي انطبقت لاصطياد الرجل. عادت الشرطة عند الفجر.

بعد يومين وضعوني في سيارة ونقلوني، ثم حبسوني في زنزانة.

خططت اسمي على الحائط.

في الليل كنت أسمع صراخاً.

بدأت أشعر بالحاجة إلى الحديث مع أحد. بنيت صداقة مع جرذ صغير. لم أكن أعلم ما إذا كانوا سيحبسونني لأيّام أم لسنوات، وسرعان ما تتوه في العدّ. كان لأيام. دائماً كنتُ محظوظاً.

ليلة أخلوا سبيلي سمعت لغطاً وأصواتاً بعيدة، ضوضاء معادن، بينما كنت أسير وحارس على كلّ جانب منّي في الممرات. أخذ السجناء يصفرون، بهدوء، كما لو أنّهم ينفخون على الجدران، راح الصفير يعلو حتى انفجر الصوتُ، كلُّ الأصوات معاً، بالغناء. هزت

الأغنية الجدران. مشيت إلى منزلي. كانت ليلة دافئة وهادئة. بدأ الخريف في مونتيفيديو. علمت أن بيكاسو توفي منذ أسبوع.
مضى زمن قصير وبدأ المنفى.

بوينس أيرس، كانون الثاني عام 1976: عودة اللقاء

1

تحكي لي كريستينا عن طقوسها في طرد الأرواح الشريرة. حبست نفْسها في منزلها نهاراتٍ وليالٍ واستدعت الأحياء والأموات والمنسيين. سوّت حساباتها، تقول لي، مع الجميع. شتمت بعضهم؛ وأخبرت آخرين لأوّل مرة أنها تحبهم.

فتح أحدُهم باب الزنزانة وقدّم لها البرتقال. ثم عاد وأغلق الباب.

خيم الليل وهي تغني:

أنتِ طويلة ونحيلة ...

– غنِّها من جديد: طلب منها صوتٌ من الزنزانة في الأعلى، فغنتها من جديد.

– شكراً: قال لها الصوت.

في كل ليلة كان يطلب منها أن تغنيها، وهي لم تستطع أن ترى وجهَهُ قط.

2

منذ عدة ليال تقولُ لي: وأنا لا أحلم بالآلة. منذ أن رأيتك. هل تعرف؟ أحياناً أخافُ أن أنام. أعرف أنني سأحلم بذلك وهذا يخيفني. كذلك تخيفني الخطوات على الدرج. كنت مستيقظةً عندما جاؤوا. لم أخبرك بهذا قط.

سمعت خطواتهم وودت لو تنفتح الجدران وفكّرت، سأرمي بنفسي من النافذة. لكنني تركتهم يأخذونني.

– هل ستتكلمين أم لا؟ سألوني .

– ليس عندي ما أقوله.

– جرّدوها من ملابسها.

عرّضوني لصدمات كهربائية في فمي حتى ارتخت أسناني. وهنا، وهنا، وهنا. ولكن حوض الحمّام كان أسوأها على الإطلاق. الكهرباء في الماء هو الأسوأ . هل تعرف؟ لم أقوَ بعدها على السباحة تحت الماء. لا أستطيع تحمل انعدام الهواء تحت الماء. انتزعوا قلنسوتي.

يقول الفتية إنّك لذيذة جداً: قال المدير– وأنا سأُرضيهم.

دخل شخص ونزع ملابسه. نطّ فوقي وبدأ يجهد. كنت أنظر إلى ما يحدث، كما لو أنّني شخصٌ آخر. كان باليتو أورتيغا –أتذكّر– يغني في الراديو. قلت له:

– أنت شخص بائس. لا تستطيع ولا حتى بالقوة.

صفعني عدة صفعات.

جاء آخر وكان سميناً ضخماً. نزع قميصه المنقّش وقميصه الداخلي.

– يبدو أنكِ فظّة. لن يفيدك أن تتشاطري علي.

انتهى من خلع ملابسه وارتمى فوقي. عضّني من رقبتي وثديي. كنت أنا في مكان بعيدٍ جداً. شعرت بنفَس جليديّ يخرج من مساماتي.

عندئذ حضر المدير وكان غاضباً. مرّغ بي الأرض وهو يركلني. جلس فوقي وأدخل فوهة المسدس بين ساقيّ.

بعدها سمّاني عاهرة لأنّني لم أبكِ.

النظام

التنديد بجرائم الدكتاتورية لا ينضب من قائمة المعذبين والمقتولين والمختفين. تعلّمك الآلة إتقانَ الأنانية والكذب. التضامن جريمة. كي تنقذ نفسك، تُعلمك الآلة أنّ عليك أن تصبح منافقاً أفّاقاً. من يقبِّلك هذه الليلة، سيبيعك غداً. كل إحسان يولد انتقاماً. إذا قلتَ رأيك، يقضون عليك؛ وليس هناك ما يستدعي المخاطرة. ألا يتمنى العاطل عن العمل في سره أن يقوم المصنع بطرد آخر ليحل هو محلّه؟ أليس الآخر منافساً وعدواً؟ مؤخراً، في مونتيفيديو طلب طفل من والدته أن تعيده إلى المستشفى لأنه يريد أن يعود من حيث أتى.

دون قطرة دم واحدة، حتى دون دمعة واحدة، يُقتل يوميّاً أفضل ما في داخل كل شخص منّا. انتصار الآلة: الناس يخافون من أن يتكلموا أو أن ينظروا. يريدون أن لا يلتقي أحد بأحد. عندما ينظر شخص ما إليك ويمعن النظر، تفكر: "سيلعن أنفاسي". يقولُ المديرُ للموظف، الذي كان صديقه:

– اضطُرِرتُ لأن أشي بك. طلبوا القوائم. كان عليّ أن أعطي اسماً. اعذرني إن استطعت.

من بين كل ثلاثين أوروغوائي، يوجد واحد وظيفته مراقبة وملاحقة ومعاقبة الآخرين. لا يوجد أي عمل خارج الثكنات ومراكز الشرطة؛ وفي كلّ حال، للحفاظ على الوظيفة لا بدّ من وثيقة إيمان ديمقراطي تمنحها الشرطة. يُطلب من الطلاب أن يبلّغوا عن أقرانهم، ويحرضوا الأطفال على التبليغ عن معلميهم. في الأرجنتين، يسأل التلفزيون، "هل تعرف ما الذي يفعله ابنك في هذه اللحظة؟

لماذا لا تظهر الوقائع الحمراء قتل الروح بتسميمها؟

بوينس أيرِس، كانون الثاني من عام 1976، مدخلَ إلى الأدب

قضينا بضعة أيام مع إدواردو وأولادي. أكتب أحزاناً. ذات ليلة، أريت ما أكتب لإدواردو. أبعده ممتعضاً:

- ليس من حقك: يقولُ وأغضبُ.
- كيف لا؟

يحكي لي إدواردو أنه نزل يوم الجمعة ليشتري جامبو وسلامي من الدكان التي تقع في زاوية منزله. صاحبة الدّكان امرأة سمينة تقضي أيامها وهي تقطّع السجق إلى شرائح، وتُعلبها، وتجري الحسابات، تقبض؛ تقوم بالعمل لوحدها، وحين يحلّ الليل وتغلق الباب المعدني، تحسّ بوخزِ إبرٍ في كليتيها وساقيها. انتظر إدواردو دوره، طلب ودفع. عندها لَمحً تحت درج الصندوق الصغير كتاباً مفتوحاً كانت صاحبة الدكان تقرؤه خلسة بينما هي تعمل. كان كتاباً كتبته أنا.

- قرأته عدة مرات ـ قالت صاحبة الدكان ـ أقرؤه لأنه يفيدني. أنا أوروغوائيّة، هل تعرف؟

وها هو إدواردو يقول لي الآن: "ليس من حقّك"، بينما تضع جانباً الأشياء الصغيرة المحزنة، ربما المشينة، التي كتبت عنها في هذه الأيام.

بوينس أيرس كانون الثاني 1976، لا أحد يستطَيع أن يفعل شيئاً ضدّ كلّ هذا الجمال

مع حلول المساء، أجلس قبالة طاولة في مقهى موسيقي.

فونغ، الصينيُّ الذي وصل تواً من كاراكاس، يريني صوراً للوحة جدارية ولبعض اللوحات التي رسمها ويعيد فيها وجوه ومواضيع

ليوناردو، فان كوخ وماتيس. يريني أحدث رسوماته وتصميماته. يحدثني عن مشروع معرض له.

– إنها قصة أمريكا ـ يقول الصيني– مرئيّة عبر لوحة الربيع لبوتشيللي. أستمرُ في النظر إليه.

هل فهمت؟ كل تاريخ النهب والقتل من خلال تلك المرأة. لأن تلك المرأة العارية هي أمريكا. هل فهمت؟

ويُردف:

– عندما أنظر إلى الجوكاندا الموناليزا، أراها تشيخ. أستطيع أن أعهّرها، أن أخترع لها ذاكرة أخرى. لكن يحدث معي العكس مع امرأة بوتشيللي تلك. إذا ما جعلتها تشيخ فلا وجود لها. أفصل اليدين والعينين وإحدى القدمين، وما من مجال : لا أستطيع أن أؤذيها ولا من أي جهة.

أفكر بدهشة أمريكا في عيون الفاتحين.

ـ كارلوس الخامس كان لحظةً صغيرة في التاريخ. وفي الحقيقة لم يستطع أن يفعل لها شيئاً ـ أردف الصيني: تيدي روزفلت لم يستطع أن يفعل لها شيئاً. أيضاً الحاليون لا يستطيعون.

– طاردها الجميع – يضحك الصيني– وكولومبوس، الذي كان أول من دخلها، مات دون أن يعرف ذلك.

الكون كما يُرى من ثقب الباب

كل يوم – يحكي فريدي– أساعده في تحضير شرائح المعجون التي يستخدمها في الكتابة. إنه لا يستخدم الورقة والقلم. إنه يكتب بحفر رموزٍ على المعجون. ليس بمقدوري أن أقرأ ما يكتب. ما يكتبه لا يُقرأ بالعينين. يُقرأ بالأصابع.

تعلمت معه أن أُحسَّ بورقة. لم أكن أعرف. هو علمني، أغمض عينَيْك، قال لي. علمني بصبر أن أحسّ بورقة شجرة بأصابعي. استغرق مني العلمُ وقتاً، لأنني لم أكن مُعتاداً. بت الآن أحب مداعبة الأوراق، حيث تنزلق الأصابع على الجانب العلوي الأملس جداً، أشعر بزغب جانبها السفلي وبالخيوط الرقيقة مثل عروق داخل الورقة.

في ذلك اليوم أحضروا إلى المدرسة أسداً حديث الولادة. ما من أحد استطاع أن يلمسه. لم يسمحوا لغيره. طلبت منه بعدها:

- أنت، يا من استطعت أن تلمسه، قُلْ لي، كيف كان الشبلُ؟
- كان دافئاً، -أجابني- ناعماً. وسألني:
- أنتَ، يا من استطعت أن تراه، كيف كان؟ أجبته بأنه كان أصفر.
- أصفر؟ كيف كانت الصفرة، يافريدي؟
- مثل حرارة الشمس: أردفت.

كيتو، شباط 1976، أول ليلة

أُشعِلُ الشمعةَ للمرة الألف. ما من شيء في غرفة الفندق هذه غير عدوّ. أتقلّب بين الشراشف. أدفن وجهي في المخدة الدافئة. ليس هناك مكان لأيٍّ يقين في جسدي، مهما كان صغيراً.

أنام، لا أدرِي كيف، حتى الفجر.

يوقظني رنين الهاتف الطويل. أتلمّس السماعة. تسقط من يدي. تخرج منها كلمات تلتقي أخيراً بمسمعي.

– ترحب بكم! –يقول الصوتُ– مدينة كيتو تُرَحب بكم! ما عرفت البارحة به حتى قلت لنفسي: سأتصل به لأعبر له عن رضاي واعتزازي ...

– يا سيّد – أقول له، أو أرجوه– كم الساعة يا سيد؟

– إنها السابعة صباحاً تماماً! ـ–يقول الصوت، منتصراً–. باسم مدينة كيتو ...

تبقى السماعة معلقة على طاولة المصباح.

أحاول العودة إلى النوم. تنبعث من السماعة التي تتأرجح متدلية من السلك ضوضاء وطنين. ما من مجال. أقرّب وجهي. تنسحب الكلمات ببطء.

– أنا نائم، يا سيدي– أتمتم.

ـ آه! – يصيحُ، يتيقنُ الصوتُ– كم هي مختلفة عادات شعبَينا! ولكننا في الأعماق تُوَحِّدُنا النزعةُ الأمريكية! سوف أرسل لك على الفور عملاً من أعمالي التي قد تلاحظ فيها اهتزاز الـ ...

أرمي بالهاتف على الأرض وأضع فوقه وسادة وبطانية. وأستديرُ في السرير.

الطرق على الباب يقتلعني من غفوتي القصيرة الثانية.

أستيقظ عارياً وداثخاً وأفتح. أميز بشكل مبهم شيئا يشبه البوّاب، يضع في يدي مغلفاً ويفر.

ينزلق ظهري على الباب المغلق. يُطقطق رأسي. أفرك عينيّ. يحتوي المغلف على عدة نسخ مستنسخة من دليل إرشادات عن الكشافة في الإكوادور. قام المؤلف بإهدائها كلها لي.

أغطس في حوض الاستحمام. أفتح الدوش. لا أعرف كم من الوقت مضى والمطر ينزل على رأسي.

كنت أنشف نفسي حين خطر لي أن أُخرج الهاتف وأعيده إلى مكانه.

عندئذ يرن، أرد. الصوت نفسه يسأل ما إذا تلقيت الإرسالية وإذا ما أتيحت لك الفرصة لقراءة العمل. أقول له إنه يبدو لي رائعاً.

— لن أسيء لك، –أؤكد له– بحكم أدبي بحت. أعمال كهذه لا يمكن أن تُعتبر كتباً ولا كتيبات. إنها لَبِناتٌ تتدرّج في بناء وطننا الكبير!

كيتو هيا 1976، ثرثرة في الجامعة

اليوم تحدثنا عما يسمونه بالاغتراب الثقافي.

كل شيء يدور الآن في هذا البلد حول النفط: حقبة الموز وصلت إلى نهايتها؛ يعدون بأنّ دخل الإكوادور سيُعادلُ خلال عشر سنواتٍ دخل فنزويلا. ينضمُّ هذا البلد الفقيرُ جداً إلى هذيان الملايين، يدوخُ ويصاب بالدوار: يصل التلفازُ الملوَّنُ قبلَ المدارسِ والمستشفياتِ والمصانعِ. قريباً سيكون هناك آلات كهربائية في منَازل أرضياتها تُرابية وثلاجات كهربائية في القرى الصغيرة التي تستضيء بفوانيس الكيروسين. ستةُ آلاف طالبِ فلسفةٍ وآداب، بالكاد يوجد طالبان اثنان يدرسان تكنولوجيا البترول: في الكلية، كل وهم مسموح، لكنَّ الواقعَ غير ممكن.

انضمّ البلدُ فجأة إلى الحضارة، بمعنى: إلى عالمٍ تُصَنَّعُ فيه على نطاقٍ صناعيٍّ النكهاتُ والألوانُ والروائحُ والأخلاقُ والأفكارُ، وحيث كلمةٌ حرية اسمٌ لِسجن، كما في الأوروغواي، أو حيث تسمى غرفة التعذيب الخفيّة، مستوطَنَة الكرامة، كما هو الحال في تشيلي. يتم اختبار صيغ تعقيم الضمير بنجاح أكبر من خطط تحديد النسل. آلات

كذب وآلات خصي، وآلات تخدير: تتكاثر وسائل الإعلام وتنشر الديمقراطية المسيحية الغربية إلى جانب العنف وصلصة الطماطم. لا حاجة إلى معرفة القراءة والكتابة لسماع راديو الترانزستور أو مشاهدة التلفزيون وتلقّي الرسالة اليومية التي تُعلِم قبول هيمنة الأقوى والخلط بين الشخصية والسيارة، بين الكرامة والسجائر وبين السعادة والسجق .اليوم تحدّثنا أيضا عن أهمية وجود "ثقافة الاحتجاج" المزيّفة في أمريكا اللاتينية. يتم الآن في البلدان النامية إنتاج أنصاب ورموز ثورة الشباب في الستينات في الولايات المتحدة وأوروبا. تباع الملابس ذات العلامة المستحوذة تحت صرخة، حرية! وتصبُّ الصناعةُ الكبرى على العالم الثالث الموسيقى، والملصقات، وقصّات الشعر والثياب التي تعيد إنتاج النماذج الجمالية لهلوسة المخدرات. مناطقنا توفر أرضاً خصبة لهذا.

يُمنح الفتيان الراغبون بالهروب من الجحيم، تذاكر إلى البرزخ. تُدعى الأجيال الجديدة إلى مغادرة التاريخ الذي يؤلم، والسفر إلى النيرفانا. مغامرات للمشلولين: يُترك الواقع على حالِهِ، ولكن صورته تتبدّل: يعدون بالحب من دون ألم وبالسلام دون حرب.

عن كل هذا وعن أشياء أخرى، تحدثنا اليوم.

اسمِرالداس، هباط فبراير من عام 1976، ألن تتذكر أبداً متى ولدت؟

1.

يدعونني لإلقاء محاضرة في الساحل.

أنزل من الهضبة إلى البحر. في اسمِرالداس يستقبلونني بقيثارات ووأغواردييينت. عالم آخر: رجال سود البشرة وأراضٍ رطبة ودافئة ونساء يرقصن أثناء المشي.

في الليلة التالية، على الشاطئ، أضيع. يخطر لي أن أتسلق جبلاً عالياً وأتابع بعدها بين الأعشاب مجرى نهر جاف. حين أعود يكون الليل حالكاً ولا يوجد أحد.

أنادي أصدقائي صارخاً. لا أسمع شيئاً آخر غير ضجيج البحر. أمشي على الرمال، دون وجهة ولا ملابس ولا مال. البعوض الشرس يتناولني عشاءً له. أتعب من ضرب جسمي براحة يدي المفتوحة. ليس لدي أدنى فكرة عن مكان وجودي. أنده بين الحين والآخر، أنتظر جواباً، أتابع.

أخلع سروالي وأدخل البحر. الماء فاتر ومضاء بالقمر. عند خروجي، أشعر بالبرد. أركض وأقفز على الرمل، أطلق لكمات في الهواء. لا يتركني البعوض بسلام. أنا جائع؛ بطني يصدر أصواتاً.

أبحث عن حطب لأشعل ناراً. وأنا على هذه الحال حين يظهر، من بين الأشجار، كائن بشري. إنه صبي فاتته الحافلة الأخيرة إلى اسمِرالداس. ينظر إلي بريبة. مرغماً بسبب البعوض، يلتجئ إلى الدخان. أدعوه لسيجارة. بعدها يعترف لي بأنه خائف من الكلاب المستذئبة ومن العناكب النطاطة، ومن سرطانات البحر وأسماك القرش.

2.

أريد أن أنام فأسمع أصوات أصدقائي.

في كوخ، نوقظ طباخاً صينياً. نرشوه. يقدم لنا البيرة ويحضّر لنا طبقاً كبيرا من الجمبري مع صلصة حمراء لا تُنسى.

كان أصدقائي يبحثون عني طوال المساء. أكتشف أنّ المكان الذي ضعتُ فيه اسمه بينيون ديل سويثيدا.

ننام في أكواخ خشبية.

.3

حين أستيقظ، الضوءُ من القوّة بحيث أنّه قادر على إشعال الجبال الزرقاء. أشعر بالرمال تنزلق بين أصابعي. كلُّ حبةِ رمل حيةٌ، وكل مسامٍ في الجلدِ حي. موسيقى جيدة تولد مني.

كيتو، عام 1976: مدخل إلى تاريخ أمريكا

كان هناك قريتان مجاورتان للسكان الأصليين. كانتا تعيشان من الخراف ومن القليل الذي تعطيه الأرض. كانتا تزرعان في مدرجات سفح جبل ينزل حتى بحيرة جميلة للغاية بالقرب من كيتو. كانت القريتان تحملان ذات الاسم وتكرهان بعضهما.

بين الواحدة والأخرى هناك كنيسة. كان الكاهن يتضور جوعاً. ذات ليلة دفن عذراء خشبية ورش عليها ملحاً. في الصباح، نكشت الخرافُ الأرضَ وظهرت لاميلاغروسا.

غُطيتْ العذراء بالقرابين. راحوا يأتونها من كلا القريتين بالغذاء واللباس والحلي. كان رجال كل قرية يطلبون منها موتَ رجال القرية المجاورة وكانوا يقتلونهم ليلاً بالسكاكين. كانوا يقولون "إنها إرادة لاميلاغروسا".

كل وعد كان انتقاماً وهكذا قضت القريتان، اللتان كانتا تدعيان بوكارا، الواحدةُ على الأخرى. أصبح الكاهن غنياً. فقد انتهى كلُّ شيء عند قدمي العذراء: المحاصيل والحيوانات.

عندها اشترت سلسلة فنادق متعددة الجنسيات بحفنة من النقود، الأراضي الخاوية.

على ضفاف البحيرة، سوف ينهضُ مركزُ سياحيّ.

كيتو، هبا 1976: النية الحسنة

أمضتْ مارغريتا، كما أخبرتني أليخاندرا أدوم، وقتاً في كانيار.

في تلك السهوب المرتفعة، لا يزال الهنود يلبسون الأسود بسبب جريمة آتاهوالبا. يتقاسم المجتمع القليل مما يقتلع من الأراضي القاحلة.

لا يوجد صحف يومية، إضافة إلى أنه لا أحد يعرف القراءة. أيضاً لا يوجد أجهزة راديو؛ وعلى أية حال أجهزة الراديو تتكلم بلغة الغزاة. ماذا تفعل القرى الصغيرة كي تعرف ما يجري في المجتمع؟ كل قرية ترسل مُمَثِّلَيْن أو ثلاثة ليجوبوا المنطقة: هم يمثلون الأخبار ويقومون بتمثيل المشاكل. عندما يحكون ما يحدث لهم، يحكون حالهم:

_ سلبوا منا الشمسَ والقمر. جاؤونا بآلهة أخرى. نحن لا نفهمهم؛ ولكنّنا نقتل أنفسنا بسببهم.

مارغريتا لم تذهب إلى كانيار لتعلم المسرح، بل لتتعلّم وتُساعد.

مضت الشهور. كانت مرغاريتا تعاني البرد والبعد.

وضع رئيس الجماعة، المدعو كيندي يدَهُ على كتفها:

– يا مارغاريتا، قال لها: أنت حزينة جداً. وإذا كان الأمر كذلك، فمن الأفضل أن تذهبي. تكفينا أحزاننا.

النظام

من بين كل مئة طفل يولدون أحياءَ في غواتيمالا أو تشيلي، يموت ثمانية. يموت ثمانية، أيضاً، في ضواحي سان باولو الشعبية، أغنى مدينة في البرازيل. حادث أم قتل؟ المجرمون يملكون مفاتيح السجون. هذا عنف من دون إطلاق نار. لا يُفيد في الروايات البوليسية. يظهر، مجمداً، في

الإحصائيات، حين يظهر. ولكن الحروب الحقيقيّة ليست دائماً الأكثر إثارة ومن المعروف جيداً أنّ بروقَ الطلقات خلّفت أكثر مِنْ أعمى وأصم.

الطعام أغلى في تشيلي منه في الولايات المتحدة؛ الدخل الأدنى، أدنى بعشرة أضعاف. ربع التشيليين ليس لديهم أي دخل ويعيشون بمحض الإرادة. سائقو سيارات الأجرة في سانتياغو لم يعودوا يشترون دولارات من السياح: الآن يعرضون فتيات يمارسن الحب مقابل وجبة عشاء.

انخفض استهلاك الأحذية خمسة أضعاف، في الأورغواي، خلال السنوات العشرين الماضية. خلال آخر سبعة سنين، انخفض استهلاك الحليب في مونتيفيديو إلى النصف.

سجناء الحاجة، كم عددهم؟ هل هو حر الرجل المحكوم بالجري وراء العمل والغذاء؟ كم عدد الذين قدرهم مكتوب على جبينهم منذ يوم مولدهم الذي يطلون فيه على العالم ويبكون لأول مرة؟ كم عدد الذين تُنكَرُ عليهم الشمس والملح؟

كيتو، شباط 1976: يجب عدم الراحة حتى يسقطوا

هذه المرأة شهدت مقتلَ أفضل صديق لها.

كانوا يحتلون مصنعاً، في ضواحي سانتياغو في تشيلي، في الأيام التي تلت الانقلاب. كانوا ينتظرون الأسلحة كي يقاوموا.

قطّعوا لحمه تحت التعذيب، لكنه لم يقل إنّه كان يعرفها.

جرّوه إلى حيث كانت. وحيث كان يمرُّ كان يترك درباً من دم. واصل إنكاره. هي سمعت الضابط يعطي الأمر بإطلاق النار عليه. رموه على الحائط وابتعد الجندي مسافة وتردّدَ. فجأة رفع البندقية، صوّب، ورأت كيف راح الرأس ينفجر.

عندئذ أطلق الجندي صرخة ورمى البندقية وخرج راكضاً، ولكنه لم يبتعد. أطلق الضابط وابلاً من الرصاص على خصره وقسمه نصفين.

كيتو، هيانا 1976: أشْعِلُ النارَ وأُناديه

1.

ليلة في بيت إيبان إغويث. أبدأ الحديث عن روك دالتون.

كان روك جنوناً حياً لا يتوقف قط. إنه يجري الآن في ذاكرتي. ماذا فعل الموت كي يمسك به؟

كانوا سيردونه رمياً بالرصاص وقبل أربعة أيامٍ من تنفيذ الإعدام سقطت الحكومة. مرة أخرى كانوا سيعدمونه رمياً بالرصاص وشرخَ زلزالٌ جدرانَ السجن وهرب. الديكتاتوريات في السلفادور، البلد الصغير الذي كان بلده والذي كان يحمله موشوماً على كل جسمه، لم تتمكن منه قط. انتقم الموت من هذا الرجل الذي لطالما سخر منه. في النهاية أرداهُ بالخيانة: أرسل إليه الطلقات من المكان الدقيق الذي لم يتوقّعها منه. لشهور شُكَّ بالأمر أو لم يُعرف. هل ذهب، ألم يذهب؟ ذهب. لم تهتز أجهزة التلكس لتبلغ عن مقتل هذا الشاعر الذي لم يولد في باريس ولا في نيويورك.

كان الأكثر سعادةً بيننا جميعاً، والأقبح. هناك قبيحون يستطيعون أن يقولوا على الأقل: "أنا قبيح، ولكنني متناظر". هو لا. وجهه كان ملتوياً. كان يدافع عن نفسه بالقول بأنه لم يولد هكذا. كان يقول إنهم صيّروه هكذا. أولاً طوبة على الأنف عندما كان يلعب كرة القدم، بسبب ركلة جزاء مريبة. ثم حجر في العين. بعدها ضربة بزجاجة من زوج عنده شكوك. بعد ذلك لكمات جنود السلفادور، الذين لم يفهموا شغفه بالماركسية اللينينية. ومن

ثم ضربة غامضة في زاوية من زوايا شارعِ مالا سترانا في براغ. عصابة تركته مرميّاً على الأرض مع كسر مزدوج في الفك وارتجاجٍ دماغي. بعد سنتين، وخلال مناورة عسكرية، جاء روكِ راكضاً، وبيده بندقية وحربة مبللة، حين سقط في بئر. كانت توجد هناك خنزيرة ضخمة ولدت لتوها، مع كل خنوصها الصغار. الخنزيرة دمّرت ما تبقى منه.

في تموز من سنة 1970 حكى لي، مختنقاً من شدة الضحك، قصة الخنزيرة، وأراني ألبوماً من الرسوم الهزلية ومآثر الإخوة دالتون الشهيرة، رماة مسدسات أفلام، كانوا أسلافه.

كان شِعر روك، مثله، محباً وبائساً ومقاتلاً. كان لديه شجاعة فائضة، وبالتالي لم يكن يحتاج لذكرها.

أتكلم عن روك وأُحْضِرُهُ هذه الليلة إلى منزل إيبان. لا أحد ممن هم هنا يعرفه. ما همّ هذا؟ إيبان لديه نسخة من كتاب *حانة وأماكن أخرى*. أنا أيضاً كان عندي هذا الكتاب منذ زمن بعيد في مونتيفيديو. أبحث في حانة، ولا أجدها، قصيدة عن الحظ وروعة الولادة في أمريكا، ربما تخيلتها، ولكن كان باستطاعته تماماً أن يكتبها.

إيبان الذي يعرف حانةَ أوفليكا في براغ، يقرأ قصيدة بصوت عال. "لويس"، قصيدة طويلة أو قصّة حب. ينتقل الكتاب من يد ليد. أنا أختار بعض الأبيات التي تتكلم عن جمالية حلول الغضب فجأة.

.2

كل واحد يدخل الموت بالطريقة التي يشاء. بعضهم، بصمت، ماشياً على رؤوس أصابعه؛ آخرون، منكمشين؛ وآخرون، طالبين السماح والإذن. هناك من يدخل مجادلاً أو مطالباً بتفسيرات وهناك من يفتح طريقاً إليه باللكمات والشتائم. هناك من يعانقه. هناك من

يغطي عينيه؛ وهناك من يبكي. طالما اعتقدت بأن روك سيدخل الموت مغشياً عليه من الضحك. أسأل نفسي عما إذا استطاع. ترى ألم يكن ألمُ الموت قتلاً على يد من كانوا رفاقه أقوى؟

عندئذ يرن الجرس. إنه أومبيرتو بينويثا، القادم من بيت أغوستين كويبا. لا يكاد إيبان يفتح الباب له، حتى يقول أومبيرتو دون أن يكون هناك من شرح له أو سأله عن شيء:

– كانت مجموعة منشقة.

– ماذا؟ كيف؟

– الذين قتلوا روك دالتون. قال لي أغوستين. في المكسيك نشروا أن...

يجلسُ أومبيرتو بيننا.

بقينا جميعنا صامتين، نستمع إلى المطر الذي يسوطُ النوافذ.

الصفة الثالثة للنصر

كانت قد حذّرت غجريّةٌ غيمارايس روسا: "ستموت حين تحقق أكبر طموحاتك".

أمر غريب: بالرغم من كلّ الآلهة والشياطين التي كان ينطوي عليها هذا الرجل، إلاّ أنّه كان فارساً من أكثر الفرسان جدّيةً. كان أكبر طموحاته أن يعينوه عضواً في الأكاديمية البرازيلية للآداب.

عندما تم تعيينه، اختلق أعذاراً لتأجيل دخوله فيها. بقي سنوات يختلق الأعذار: الصحة والوقت والسفر...

إلى أن قرر أن الساعة قد حانت.

أُقيمَ حفلٌ مهيب وقال غيمارايس روسا في خطابه: "الأشخاص لا يموتون. يبقون مسحورين".

بعد ثلاثة أيام، ظهيرة يوم أحد، وجدته زوجته، عندما عادت من الصلاة، ميتاً.

أدين له بقصتين، رغم أنه لا يعلم، وسوف أدفع له ثمنهما

لا أعرف السيد أليبخو كاربنتيير. ذات مرة عليّ أن أراه. يجب أن أقول له:

_ انظر يا سيد أليبخو، أعتقد أنك لم تسمع قط بمينغو فيريرا. إنه من أبناء بلدي يرسم بمرح ومأساوية. رافقني لسنوات في المغامرات المتتالية للصحف والمجلات والكتب. عمل بجانبي وعلمت شيئاً عنه، وإن كان قليلاً. إنّه رجلٌ بلا كلمات. ما يخرج منه رسوماتٌ وليس كلمات. أتى من تاكواريمبو، إنه ابن إسكافي؛ كان فقيراً دائماً.

وأقول له:

– في مونتيفيديو ورّط نفسه بعدة سجون وضربات. بقي مرّةً أشهراً، حوالي السنة، كما أعتقد، سجيناً، وحين خرج أخبرني أنه في المكان الذي كان مسجونا فيه، كانت القراءة بصوت عال ممكنة. كان حظيرة قذرة والسجناء مكدسين الواحد فوق الآخر، محاطين بالبنادق، ولم يكن باستطاعتهم التحرك حتى لكي يتبولوا. كلَّ يومٍ كان يقف واحد من السجناء ويقرأ للجميع.

أردت أن أخبركَ، يا سيد أليبخو، أن المساجين أرادوا أن يقرؤوا رواية *عصر الأنوار* ولم يستطيعوا. سمح الحراس بدخول الكتاب ولكن المساجين لم يستطيعوا قراءته. أعني أنهم بدؤوا به عدة مرات، وعدة مراتٍ اضطرّوا لتركه. أنت جعلتهم يشعرون بالمطر وبالروائح العنيفة للأرض والليل. أنت كنت تنقل إليهم البحر ودويّ الأمواج وهي

تتكسر على جسر السفينة، وتريهم خفق السماء ساعةَ ولادة النهار؛ وهم لم يستطيعوا متابعة قراءة هذا.

وأقول لك:

– ربّما تستطيع أن تتذكر ميلتون روبرتس. ميلتون كان ذاك الصبيّ الضخم ذا النظرة الجذابة الذي أجرى معك مقابلة لِكريسيس. كان قد سافر إلى باريس، على ما أظنّ منتصفَ 1973، وأنا كلفته بإجراء مقابلة معك. هل تتذكر؟ ميلتون كان قد ذهب ليفحصه بعضُ الأطباء الفرنسيين الذين كانوا أكثر دراية بالمرض الذي كان يُعاني منه. ولكن لم يكن هناك أي شيء يمكن فعله. عاد إلى بوينس أيرس وبعدها لم يعد يستطيع النهوض من السرير. كان احتضاره طويلاً. انتفخ. راح يفقد القوة القليلة التي بقيت عنده وراح أيضاً يفقد صوته. قبل أن يصعد المرضُ إلى حنجرته، كلمني ميلتون مراراً عن التحقيق الصحفي الذي أجراه معك. أخبرني به كاملاً. كان يتذكر كل شيء، كلمةً كلمة. كلمني عنك كما لو أنك كنت صديقه مدى الحياة. أخبرني أنّك حدّثتهُ عن حبِّكَ للموسيقى والأدب. أخبرني عن قصصك عن القراصنة والطغاة، واحدةً واحدة، مع تفاصيل العادات والعادات السيئة الصغيرة منذ حوالى قرنين أو ثلاثة. تكلّم عن كل هذا وكانت عيناه تشتعلان؛ وهو بهذا الوجه في ذاكرتي.

بعد وفاته، قلبت صاحبته كلاودين كل أوراقه بحثاً عن رؤوس أقلام المقابلة، وبحثت وعاودت البحث لكنها لم تجد شيئاً. هذه الأوراق لم تظهر قطّ.

وأقول لك:

_ أنا أردت أن أحكي لكَ هذه الأشياء، يا رفيقي أليبخو، وأتركها لك، لأنها لك.

طقوس الضيق

1.

العجوز، رجل فظ. يزعم أنهم يُحبّونه. ساعدني كثيراً. كنتُ في العشرين من عمري عندما تعرفت إليه. مضى الوقت. كنت أزوره وآخذ له ما أكتبُهُ. كان يزمجر ويُعطيني آراءه بلا هوادة؛ كنت أفعل ما بوسعي كي أُسَلّيه قليلاً.

ذات مرة، منذ دهر، ذهبت لأبحث عنه في البلدية. كانت للعجوز وظيفة هناك، نصف شبحية: كان يُدير مكتبات غير موجودة. يعملُ محاطاً بموظفات عجائز، كل واحدة منهن أكثر قبحاً من الأخرى، وكُنَّ يتكلمن طول الوقت عن الميزانية والأطفال. اقتربتُ من المكتب وانتظرتُ. كان طاقم الحريم موجوداً بالكامل. كنّ يشربنَ المتةَ ويأكلنَ البسكويت. وأخيراً اقتربت واحدة. سألتُ عنه.

– لا... قالت الموظفة، وأخرجت النظارات. بدأت بتنظيف العدسات بالمنديل.

– كلا... قالت. هو لم يأتِ. منذ وقت طويل لا يأتي.

– ما به؟ سألتُ. هل هو مريض؟

رفعت حاجبيها في إشارة إشفاق. نظرت إلى العدسات بعكس الضوء.

مسكين... قالت. مسكين.

وأضافت:

- أتعلم؟ هو ليس من هذا العالم.

2.

وجدته مستلقياً في السرير. كان يُمضي فتراتٍ طويلة على هذه الحال. تلك المرة، في مونتفيديو، أعتقد بأنه كان ما يزال لديه بجانب السرير إنبيق من الزجاج، آلة معقدة من الأنابيب والاعوجاجات والمقطرات، كانوا قد جلبوها له من فيينا. الجهاز كان يقوم بدور إراحة العجوز من عناء صب النبيذ. كان يكفيه تحريك يده قليلاً: يضغط الكأسُ على صمام ويمتلئ بالنبيذ. هو كان يحلب النبيذ، كما يقولون.

في تلك الفترات، لم يكن العجوز ينهض أبداً ولم يكن يأكل شيئاً. كان يُرتّبُ نفسه ليموت ببطء.

_ أكتب بالتقطير. ما عاد يأتي ذلك الدافع للكتابة طول الليل، حتى الفجر.

كان يتناول نبيذاً عادياً جداً، من النوع الذي يجعلك تبول بولاً بنفسجياً، وكان يبتلع حبوباً كي يبقى نائماً دائماً. ولكنه أحياناً كان مستيقظاً وهذا ما كان يسميه هو بالأرق. على ضوء الشمعة كان يقرأ روايات بوليسية تتراكم جبالاً من القمامة، حول السرير. صورة فولكنر تترأس، من ناصية السرير، طقوس الضيق.

في تلك المرة فتحت له النافذة والأبجور، عن عمد، وكادت ضربة نور النهار تقتله. شتمنا بعضنا لِبعض الوقت. قدمت له خفافيش. حكيت له بعض النكات والأقاويل السياسية، التي كانت تعجبه، بينما كان يتذمر من الحر أو من البرد أو الضوء، وفي النهاية تمكنتُ من الحصول على ابتسامة منه. نناقش، كما هو الحال دائماً، بأسلوب بطيء وفاتر يناقش به هو، لأنني لا أظنُّ بأن الرجل كان وسيصبح

قذارة ولأنني لا أمسك بخيط الرحلة حين يدعوني لمرافقته إلى أعماق بئر اليأس. لا أستطيع التلاعب بهذا: إذا تركت نفسي أسقط، أبقى. لا أستطيع مداعبة الموت من دون الدخول فيه.

كنت أعرفُ بأنها لم تكن مزحة. علمت وأعلم، لأني أعرف وأقرأ، أنّ للعجوز جسماً هزيلاً مليئاً بالشياطين التي تُحاصره وتقلب أمعاءه وتغرز فيه الخناجر، وكان يملأ جسمه بالنبيذ والدخان، بينما عيناه مغروزتان في بقعِ رطوبةِ السقف. النوم، ربما الحلمٍ، كان هدنةً. الروايات البوليسية هدنة. الكتابة، حين يستطيع، أيضاً هدنة، ولربما هي الانتصار الوحيد المسموح له به. إذاً، حين يكتب، ينتفضُ ويُحول قذارته وحطامه إلى ذهب، ويصيرُ ملكاً.

3.

أحيانا كان ينسى أنه نيّص (كبّابة الشوك). ويقول لي:

– عندما كنت صبياً، كنت في عصابة القرصان الأسود. كان هناك عصابة ساندوكان وعدة عصاباتٍ أخرى، لكنني كنت حتى الموت مع عصابة القرصان الأسود.

– خطيب أونوراتا. أعرفه.

– كان متيماً بشقراء، وكان بحسب علمي، حبّاً مستحيلاً.

– لقد فاتك. هذا كان نمر مومبراثم.

– القرصان الأسود، حيوان. كان القرصانُ هائماً بالشقراء. أعرف ذلك، لأنني كنت من العصابة.

– إنّهم خطر.

– ماذا؟

– الشقراوات.

– تلك الشقراء أونوراتا لم يكن لها أي علاقة بشقراء ساندوكان. إنك تخلط أشياء لا علاقة لها بالأمر. ساندوكان كان يجري عملياته في ماليزيا. القرصان كان أقرب ما يكون من الكاريبي.

– أونوراتا كانت تحب القرصان الأسودَ.

– تحبه، نعم، كانت تحبه. لكن، وحاكم ماراكايبو؟ أنت تعتقد بأن المسألة هي حب وانتهى الأمر؟ مسكين القرصان الأسود. جاء ليحب حصراً ابنة أخ عدوِّهِ اللدود.

– مات في النهاية.

– كيف سيموت ابن العاهرة ذاك.

– أقصدُ أونوراتا وليس الحاكم. كانت صحته سيئة جداً، لكنه لم يمت. هل تتذكر؟ كان مريضاً بالصرع. كانت تخطر له أفكار شريرة وقدماه وساقه على وسادة الجلوس. هو لم يمت. أونوراتا نعم ماتت.

– تعني أنهم قتلوها.

– جنود العم.

– هذا. أثناء الفرار.

– بطلقة بندقية.

– ألقت بنفسها من الشرفة وتلقّفها العجوز الأسود بذراعيه. كانت الخيول تنتظر عند الجسر.

– كانت الطلقة موجهة له، ولكنها اعترضتها بجسمها. ظهر الجنود الذين كانوا بانتظاره، وهي فتحت ذراعيها و...

– في صدرها دخلت. هنا.

– إلى الأسفل قليلا. اخترقت قلادتها.

– قل لي، هل كنت في ماراكايبو؟

– كنت.

– أخبرني.

– هناك مبان ضخمة، مع أجهزة تكييف، وبحيرة مليئة بأبراج البترول.

– يا معتوه. أنت لم ترَ شيئاً. ألا تعلم أنه في ماراكايبو لا يمكنك حتى أن تسير من كثرة الأشباح التي تمشي في الشارع؟

.4

في منتصف عام 1973، عينوه حكماً في مسابقة للروايات، وعَبَرَ العجوزُ الأسود النهر. ذات ليلة دعاني إلى العشاء. كان بصحبة امرأة. مشينا مسافة بضع كتل من الأبنية، نحن الثلاثة، وسط بوينس أيرس، في تلك المنطقة التي يسميها السكان المحليون لا ستي. كان يصعب عليه المشيُ؛ كان يمشي ببطء ويتعب بسهولة. كان يصعبُ عليه لكنه كان يُريد، وبدا سعيداً للغاية، رغم أنّه قال إنّه لم يعرف شوارع وأماكن تلك المدينة التي عاش فيها منذ زمن بعيد.

ذهبنا إلى إحدى حانات البيرة في شارع لابابيه. وضع العجوز لنفسه عدة لقيمات وترك الشوكة والسكين متصالبتين فوق الصحن. كان صامتاً. أنا أكلتُ. هي تحدثت.

في تلك الأثناء، سألها العجوز:

– ألا تريدين الذهاب إلى الحمام؟

وهي قالت:

– لا، لا.

أنهيت السجق مع السلطة الروسية. ناديت النادل. طلبت ضلع خنزير مدخناً مع شرائح البطاطا الدائرية. ثلاث شرائح.

كان العجوزُ يُصِرّ:

– لكن، هل أنتِ متأكدة من أنك لا تريدين الذهاب إلى الحمام؟

– بلى، بلى: قالت هي. لا تقلق.

بعد حين، مرة أخرى.

– وجهك لامع: قال لها. يُستحسن أن تذهبي إلى الحمام لتمري بقليل من المسحوق عليه. هي أخرجت مرآة من محفظتها.

– ليس لامعاً: قالت مندهشة.

– ولكني أعتقد أنّ بك رغبة كبيرة للذهاب إلى الحمّام: أصرّ العجوز. أظنّ أنك تريدين الذهاب إلى الحمام.

عندها ردت:

– إذا كنت ترغب بأن تبقى وحدك مع صديقك، قل ذلك وكفى. إن كنت أزعجك تستطيع إخباري وسأذهب.

نهضتْ ونهضتُ. وضعتُ يدي على كتفها وطلبت منها أن تعودَ لتجلس. قلت لها:

– سنطلب الحلوى. أنت لا...

– إذا كان هو يريدني أن أذهب، فسأذهب.

أجهشت.

– أنتِ لن تذهبي من هنا قبل أن تأكلي الحلوى. هو لم يُرِدْ أن يقولَ لك هذا. يريدُك أن تبقي.

كان العجوز ينظر مذهولاً إلى ستائر النافذة المذهبة.

كانت تلك الحلوى الأصعب في حياتي. هو لم يذقها. هي تناولت ملعقةً صغيرة من المثلجات. أما أنا فخنقتني سلطةُ الفواكه.

أخيراً نهضت هي. استأذنت بصوتٍ متهدج بسبب البكاء وذهبت. العجوز لم يحرك ساكناً.

ظل صامتاً برهةً طويلة. قَبِلَ القهوة بهزة طفيفة من رأسه.

حاولتُ أن أقول شيئاً، أيَّ شيء، وكان هو يوافق بدون كلام. كان جبينه مجعداً وفي نظرته حزن لا حدود له. كنت أعرفه جيداً.

– اللعنة: قال أخيراً. هل تعلم لماذا كنت أُريدها أن تدخل دقيقة إلى الحمّام؟ لأقول لك إنّني أشعر بنفسي سعيداً جداً. أردت أن أخبرك بأنني لم أكن قط بمثل هذه الراحة معها كما في هذه الأيام. أشعر بأنني مهر صغير، وأن...

وحرّك رأسه.

– اللعنة: قال.

الرجل الذي عرف كيف يصمت

قال خوان رولفو ما كان عليه قوله في صفحات قليلة، لحم وعظم خالص بدون شحوم، وبعدها لزم الصمت.

في عام 1974 قال لـ رولفو في بوينس أيرس إنه لم يكن لديه وقت للكتابة كما كان يريد، بسبب ما في وظيفته في الإدارة العامة من عمل كثير. ليكون لديه وقت كان يحتاج إلى إجازة والإجازة يجب طلبها من الأطباء. والمرء لا يستطيع، شرح لي رولفو، أن يذهب إلى الطبيب ويقول له: "أشعر بحزن شديد"، لأن الأطباء لا يعطون إجازة مرضية لمثل هذه الأسباب.

كيتو آذار 1976، الليلة الأخيرة

يرنُّ الهاتف. إنها ساعة المغادرة. لم ننم أكثر من عدة دقائق ولكننا كنا منتعشين ومستيقظين.

مارسنا الحبّ، أكلنا وشربنا، استخدمنا شرشف السرير كغطاء وأرجلنا كطاولة، وعدنا، مارسنا الحبّ.

حكت لي هي عن آلام تشيلي. صعب، قالت لي، أن يكون الرفاق أمواتاً، بعد أن رأيتهم مفعمين بالحياة. أنقذت نفسها في آخر لحظة، والآن تسأل نفسها ماذا تفعل بكل تلك الحرية وهي حيّة؟

وصلنا متأخرين إلى المطار. الطائرة تقلع متأخرة. تناولنا الفطور ثلاث مرات. مضى على تعارفنا نصف نهار.

أمشي نحو الطائرة دون أن أستدير. مدرج الطائرة محاط ببراكين زرقاء. أشعر بالذهول من الكهرباء وجوع جسدي.

الكون مشاهداً من ثقب الباب

حين كانت مونيكا صغيرة، لم تكن ترغب بالخروج في الليل، كي لا تدوس على القواقع المسكينة. وكان بها خوف من خيط الدم الذي كان من شاحنة مهجورة على الطريق ويضيع داخل الحقل بين الأعشاب.

أُغرمت مونيكا بابن الخباز الذي كان خارجاً عن القانون وتكرهه كل الأمّهات. كانت تنظر إليه بطرف عينها بينما هم ينشدون النشيد الوطني، ساعة الدخول إلى الصف. بعد ذلك كانوا يغادرون الرتلَ فتصطدم هي، بوم! بالتمثال النصفي البرونزي لأرتيغاس.

عندما كانت طفلة، أرادت مونيكا أن تصبح راقصة كاباريه. كانت تريد أن تمضي بالريش الملون على مؤخرتها وتشعر بأنها طائر وتطير وترتكب الخطايا.

لم تستطع قط ذلك.

بعد سنوات، كانت مونيكا واحدة من الأشخاص القليلين الذين تخطّوا، دون أن يجفوا أو أن ينكسروا، اختباراتِ الرعب. كنتُ أحب الاستماع إليها. كانت مونيكا لاكوستي وزميلها جارين لي في بوينس أيرس؛ وكان منزلهما مليئاً دائماً بأشخاص من الأوروغواي.

ذات ظهيرة رافقتها إلى السوق. السوق الذي كان يشغل محطة السكك الحديدية القديمة، كان عيداً من الروائح والألوان والصيحات: أعطِني ثلاث حبات بندورة ناضجة. البصل، كم سعره، انظر كم هي جميلة هذه الخسة، ضعها هناك، أعطني واحدة أكبر، آه، ثوم وبقدونس، أليس لديك فليفلة؟ كيف لا، وأي فليفلة، فليفلة خضراء، أنصحك؛ أفسحوا الطريق، أفسحوا الطريق، من فضلكم، من لا يعمل ليأخذ القارب رجاءً.

وضعت مونيكا فجلتين صغيرتين في شعرها وابتسمت للجميع.

عدنا محملين بالأكياس والرزم.

بانتشو ابن مونيكا بقي خلفنا، مذهولاً ببعض عجائب الشارع، مثل قضبان درابزين شرفة، زجاج معشق، باب حديدي، حمامة تأكل. مكث فاغراً فاه إعجاباً بالعالم وكان عليه أن يعود ليبحث عنه.

– هيا بنا يا بانتشو: قلت له؛ طلب مني أن أشتري له شبحاً صغيراً.

بعد ذلك سبقني راكضاً إلى الأمام ليسلّم على بائع الصحف، وقدّم له فستقاً. بائع الصحف قال له: لا.

"لماذا لا تقبله؟"، وبختُهُ. طأطأ بائعُ الصحف رأسه واعترف:

– عندي حساسية.

بوينس آيرس آذار 1976: العتمة الدامسة والشموس

امرأة ورجل يحتفلان في بيونس آيرس بعيد زواجهما الثلاثين. يدعون أزواجاً آخرين من تلك الحقبة، أناساً لم يروهم منذ دهر. وفوق المفرش المصفر والمطرز لحفل الزفاف أكل الجميع وضحكوا وشربوا النخب. أفرغوا زجاجات، وحكوا نكات فاحشة، اختنقوا من كثرة الأكل والضحك وربتوا على ظهور بعضهم. يصلُ الصمتُ في لحظة ما، بعدَ منتصف الليل. يدخل الصمتُ ويستقر؛ ينتصر. ليس هناك جملة تصل إلى منتصفها، ولا قهقهة تسمع في غير مكانها. لا أحد يتجرأ على الذهاب. عندئذ، لا أحد يعرف كيف تبدأ اللعبة. يلعب المدعوون لعبةَ من مضى على موته سنوات أكثر. يتساءلون فيما بينهم: منذ كم من السنوات أنتَ ميت؟ لا، لا، يقول بعضهم لبعض. عشرون سنة، لا: إنك تصغّر من عمرك. مضى عليك ميتاً خمس وعشرون سنة. وهكذا. حكى لي أحدهم، في المجلة، هذه القصة عن الشيخوخة والانتقامات التي حدثت في بيته الليلة الفائتة. انتهيت من الاستماع إليه حين رنّ الهاتف.

كانت رفيقة أوروغوائية معرفتي بها قليلة. بين الحين والآخر كانت تقابلني لتمرِّر لي معلومات سياسية، أو كي ترى ما يمكن أن نفعل من أجل منفيين آخرين بلا مأوى ولا عمل. ولكنّها الآن لم تتصل بي لهذا السبب. اتصلت بي هذه المرة لتخبرني بأنها واقعة في الحب. قالت لي إنّها وجدت أخيراً ما كانت تبحث عنه دون أن تعرف عما كانت تبحث، وإنها تحتاج لأن تقول ذلك لأحدٍ واعتذرت عن الإزعاج. قالت إنها اكتشفت أنّ من الممكن تبادل الأشياء الحميمة، وإنّها تريد أن تحكي لك لأنه خبر جيد، أليس كذلك؟ وليس عندي من أخبره به وفكرت...

أخبرتني بأنهما ذهبا معاً إلى مضمار سباق الخيل لأوّل مرة في حياتهما، وبأنَّ بريق الخيول وبلوزاتِ الحرير أبهرهما. كان معهما نقود قليلة وكانا قد لعبا بها متأكِّدَيْن من أنهما سيفوزان لأنها كانت أول مرة، وكانا قد راهنا على الخيول الأكثرِ ظرافة وعلى التي كانت أسماؤها أكثر هزلاً. خسرا كل شيء وعادا سيراً على الأقدام سعداء للغاية بروعة الحيوانات وإثارة السباقات، ولأنهما أيضا كانا شابين ورائعين وقادرين على كل شيء. الآن، قالت لي: أموت رغبةً بالخروج إلى الشارع والعزف على البوق ومعانقة الناس والصراخ بأني أُحِبُّهُ وبأن الولادة حظ.

هذه العجوز بلد

1.

آخر مرة سافرت فيها الجدّةُ إلى بوينس أيرس وصلت درداء، مثل طفل حديث الولادة. تصرفت وكأنني لم ألحظ ذلك. كانت غراثييلا قد حذرتني عبر الهاتف من مونتيفيديو: "إنها قلقة للغاية. سألتني: ألن يجدني إدواردو قبيحةً؟"

أصبحت الجدّةُ كالعصفور. راحت الأعوام تمرّ فتجعلها تنكمش.

خرجنا من الميناء متعانقين.

عرضتُ عليها أن نأخذ سيارة أجرة.

– لا، لا: قلتُ لها. ليس لأنني أعتقد بأنك ستتعبين. أنا أعرف أنّك تتحملين. المسألة هي أنَّ الفندق بعيد جداً، هل تفهمين؟

لكنها أرادت أن تمشي.

– اسمعيني يا جدّة: قلتُ لها. من هنا الطريق لا يستحق العناء. المنظر بشع. فهذا جزء قبيح من بوينس أيرس. لاحقاً، حين ترتاحين، سنذهب معاً لنمشي في المنتزهات.

توقفتْ، رمقتني من الأعلى إلى الأسفل. شتمتني. وسألتني بغضب:
- هل تظن أني أرى المنظر عندما أمشي معك؟
تعلقت بي.
- أشعر بأني أكبر: قالت لي تحت جناحك. سألتني: "هل تذكر حين حملتني رافعاً إياي في المستشفى بعد العملية؟ "كلّمتني عن الأوروغواي، وعن الصمت والخوف.
- كلّ شيء قذر جداً. قذر، كلّ شيء.
كلّمتني عن الموت:
- سأعود لأتجسد من جديد في نبتة شوكية. أو في حفيد أو ابن حفيد لك، سأظهر.
- ولكنّك، يا عجوزي: قلت لها. ستعيشين مئتي سنة. لا تكلميني عن الموت، لا يزال أمامك الكثير.
- لا تكن فاسقاً: قالت لي.
قالت لي إنّها سئمت جسدها.
- بين الحين والآخر أقول له، لجسدي: "لا أحتملك". ويُجيبني: "ولا أنا".
- انظر: قالت لي، ومطّت جلد ذراعها.
كلمتني عن الرحلة:
- هل تذكر حين كانت الحمى تقتلك في فنزويلا وأمضيتُ الليلَ أبكي في مونتيفيديو دون أن أعرف لماذا؟ كل هذه الأيام كنت أقول لإيما: "إدواردو قلق". وأتيتُ. والآن أيضاً أعتقدُ أنّك لست على ما يرام.

2.

بقيت الجدّة بضعة أيام وعادت إلى مونتيفيديو. وكتبت لها على الفور رسالة. كتبت لها بألا تعتني بنفسها وألا تضجر وألا تتعب. قلت لها إني أعلم جيداً من أين يأتي الصلصال الذي صنعوني منه.

بعد ذلك أخبروني بأنها عملت حادثاً.
اتصلت بها بالهاتف.
- كان خطئي: قالت لي. هربت ومشيت إلى الجامعة، في الطريق ذاته الذي كنتُ أمشيه سابقاً لأراك. هل تذكر؟ أنا الآن أعلم أنّني لا أستطيع فعل ذلك. في كل مرة أذهب فيها أسقط. وصلت إلى أسفل الدرج وقلت بصوت عالٍ: "يا شذا الوقت"، الذي كان اسمَ العطرِ الذي أهديتني إيّاه ذاتَ مرة. وعندها وقعتُ. أنهضوني وأتوا بي إلى هنا. اعتقدوا أنّ عظماً لي انكسر. ولكن اليوم، ما إن تركوني وحيدة حتى نهضت من السرير وهربت. خرجت إلى الشارع وقلت: "أنا بحالة جيدة حية ومجنونة، كما هو يحبني".

بوينس أيرس، نيسان 1976: الزميل يمشي على الدرابزين

1.

منذ وقت ليس ببعيد اتصل به هاتفياً رجلٌ ذو صوت متعجرف. قال له إنه يريد رؤيته على وجه السرعة. في البداية، لم يعرفه بيثنتي. ثم تذكر. كان بيثنتي قد قدم له كمحامٍ خدماته قبل سنتين في قضية شيكات بدون رصيد. لم يقبض منه شيئاً.

قال له بيثنتي إنه مشغول جداً بأعماله وليس عنده دقيقة فراغ وإن...

التقيا في مقهى. أصر الرجل على أن يشربا الويسكي المستورد. قال بيثنتي إنه لا يريد وإنه في مثل تلك الساعة من الصباح...

شربا ويسكي مستورداً.

حينها علم بيثنتي أن الرجل كان ضابط شرطة.

- أنا قائد في العمليات الخاصة: قال الرجل. وتلقيت أمراً بقتلك.

قال له إنه من الأفضل له أن يختفي مدة أسبوع. سيستلمون الأسبوع القادم قائمة أخرى، بأسماء أخرى. كانوا يغيرون القوائم في كل أسبوع.

– أنا لا أضمن حياتك ولا أي شيء. أقول لك ببساطة بأن تختبئ لمدة أسبوع. لدينا الكثير مما نقوم به. أنت لست مهماً.

بيثنتي قال إنه ممتنّ له وبأنه لا يعرف ماذا يفعل كي...

– الآن نحن في سلام: قال الرجل. أنا الآن لست مديناً لك بشيء. أنت قدمت لي معروفاً منذ سنتين. تم دفعه. إن عادوا وأعطوني الأمر ووجدتك فسأقتلك.

نادى النادل. نهض دون أن ينتظر أن يعيدوا له الباقي.

– لا أريد أن أُصافحك: قال. ولا أن تصافحني.

2.

منذ خمس سنوات، في مضمار سباق بيا دي لوغانو، ألقى بيثنتي ثيتو ليما خطاباً. كان آخر يوم من أيام إضراب السجناء السياسيين عن الطعام. ارتفع بيثنتي في المدرجات وبعيداً بين الحشد. رأى كلاوديا وبناتها يلعبن في المرج مع البقرات والكلاب، عندها نسي الشعارات السياسية وبدأ بالحديث عن الحب والجمال. شدّوه من أسفلِ سترته، لكن لم يكن هناك طريقة لإيقافه.

3.

في العام الماضي كنا نذهب لنلعب كرة القدم في باليرمو، صباح كل أربعاء. في الخلف، كان بيثنتي سيد الملعب. في الأمام ، كان يهاجم كل شيء. كنت أحب أن أخدمه في الضربات الركنية كي يدخلها بضربة رأسية. "أحسنت يا إدواردو!"، كان يهتف لي دائماً، حتى عندما، أخطئ في الأهداف المؤكدة، أنا الأخرق منذ ولادتي.

أحياناً كنا نخرج معاً من غرف تبديل الملابس. كان يحكي لي أشياء عن الجد الإسكافي والفوضوي، الذي كان يجيد استخدام السكين، والذي بعمر السبعين كان يمضي خلف الفتيات في الشوارع.

4.

الآن لا نذهب لنلعب كرة القدم.

تفكّك الفريق.

يدير بيثنتي مع فيكو ومعي المجلة. بين الفينة والأخرى نذهب لنأكل البيتزا هناك، لأنها تعجبنا ولأنها تساعدُ على عدم التفكير بأن كلّ ليلة يمكن أن تكون الأخيرة. يعرف بيثنتي أفضل مطاعم البيتزا في كلّ حيٍّ من أحياء بوِينس أيرس.

_ على هذه، اجلس قرب فرن العمق، ليس قرب الأمامي، واطلب بيتزا بنصف قطعة العجين، مشويّة جيداً من الأسفل مع الروكفور والبندورة والبصل الأخضر. بعدها تخبرني.

ترافقه الحكمة منذ أيام الدراسة، عندما كان يجوب مطاعم البيتزا في بوِينس أيرس بائعاً جبنة الموتزاريلا الفاسدة التي كان يصنعها صديقٌ له. مطاعم البيتزا الجيدة هي التي كانت لا تشتري منه.

في تلك الليلة ذهبنا لنأكل البيتزا معاً. كان بيثنتي يمشي حزيناً. ذاك الصباح نشرت الصحف خبراً شبه ضائع، خبرَ موتِ مناضلٍ كان هو قد دافع عنه. ظهرت الجثةُ إلى جانب الابن الأصغر في مستنقع. كان اسمه سيباستيان. زوجته ديانا سبق أن قتلوها قبل أربعة أشهر.

– هل تعرف ما كان أسعد يوم في حياتي؟ قال لي بيثنتي. اليوم الذي تمكنت فيه من الجمع بينهما، في المحاكم. كان قد مرَّ عامان على سجنهما، دون أن يريا بعضهما. كانوا يغيرون سجونهما ودائماً كانت سجونهما مختلفة. عندما كانوا يرسلونه إلى الشمال يأتون بها

إلى الجنوب. حين كانت ستنتهي إلى المحافظة، أدخلوه في ديفوتو. وأخيراً تمكنتُ من الجمع بينهما بحجة المواجهة. لم أرَ من قبل أحداً يُقَبّلُ هكذا.

النظام

الآلةُ تتّهِمُ الشباب: تحبسُهم، تعذّبُهم، تقتلُهم. إنهم الدليل الحي على عجزها. تطردُهم: تبيعُهم، لحماً بشرياً، أذرعاً رخيصة إلى الخارج.

الآلة عقيمة تكرهُ كلَّ شيءٍ ينمو ويتحرّك. هي قادرة فقط على مضاعفة عدد السجونِ والمقابر. لا تستطيع إنتاج شيءٍ آخر غير السجناء والجثث، الجواسيس ورجال الشرطة، المتسولين والمنبوذين.

أن يكون المرءُ شاباً جريمةٌ. يرتكبُها الواقعُ كلَّ يوم، عند الفجر؛ وأيضاً يرتكبها التاريخُ، الذي يولد من جديد كلَّ صباح.

لهذا السبب: الحقيقة والتاريخ محظوران.

وقائع تحليقٍ فوق الأرض الأرجوانية

1.

كانت الغيوم تشكلُ سلحفاةً مّما قبل التاريخ. أحضرت لنا المضيفةُ القهوة. اشتعل ضوء صغير وسمعنا صوت جرس؛ أمرنا صوتٌ بربط أحزمة الأمان. كنا قد دخلنا في مطب هوائي. اهتزت القهوة على الطاولات. لم نربط أي شيء. احتسيت القهوة بدون سكر، كما هو الحال دائماً، لم تكن سيئة. كان إريك يسافر جالساً بجانب النافذة.

في الطائرة المتّجهة إلى بوينس أيرس، كان هناك فوج من السياح. كانوا مسلحين بكاميرات وفلاشات آلية ويدوية. كان المستودع مليئاً بالحقائب الفارغة العائدة إلى ريو أو سان باولو منفوخة بالسترات الجلدية وتذكارات صيد أخرى. كنت أعرفهم عن ظهر قلب. سياح.

– الآن فهمت: قلتُ. لماذا توجد في الطائرات أكياس قيء.

كان إريك ينظر من نافذة البوينج. نظر إلى الساعة وقال:

– هذه أرضك.

كنا نخرج من فوج الغيوم. الطائرة لن تتوقف في مونتيفيديو؛ طارت مباشرة إلى بوينس أيرس.

امتدت تحتنا الحقول المقفرة: الأرض المحروقة، الأرض المغتصبة، غير المحبوبة من ملاّكها. هناك كان شهر الرعاة الخيّالة ورماحهم. هناك أملى زعيمُ قبيلةٍ يرتدي البونتشو، قبل أكثر من قرن ونصف، أولَّ إصلاحٍ زراعي في أمريكا اللاتينية. اليومَ يُمنع الكلام عن هذا في المدارس.

– إننا نطير فوق بلدك: قال إيريك.

قلت:

– نعم.

سكت إيريك.

وأنا فكرت: أرضي هذه، هل تتذكرني؟:

.2

غالباً ما عدتُ ليلاً. بعد استدعاء النعاس كثيراً إلى بيتي في بوينس أيرس، كانت عيناي تُغمضان وتشتعل أضواءُ مونتيفيديو: كنت أَمشي على الكورنيش على حافة البحر، أو في شوارع وسط المدينة، نصف مُتخَفٍ، نصف متهم، أبحث عن ناسي. أستيقظُ مستحماً بالعرق

ومختنقاً متضايقاً لأنّني عدتُ ولم يعرفني أحد. عندها كنت أستيقظ وأذهب إلى الحمام. أبلل رأسي وأشرب ماء من الصنبور. بعدها كنت أبقى حتى الفجر جالساً في السرير، وذقني على ركبتي. أدخن وأفكر. لماذا لم أعد اليوم بالذات إلى المكان الذي أنتمي إليه؟ بلدي مكسور وأنا محظور. كنت أعلم أنّني أكثر حظّاً من أصدقائي المعتقلين أو المغتالين أو الهالكين تحت التعذيب، وأن الحظر كان، بطريقة ما، تكريماً: الدليل على أن الكتابة لم تكن ولهاً غير مجدٍ. لكنّني كنت أفكر: هل أستحق أن أكون؟ هل لي قيمة بالنسبة لأحد؟ هل هناك صدى أو أثر لأحدنا في شوارع مدينتي الفارغة؟ ماذا يمكنني أن أفعل هناك، عدا أن أصمت أو أتعفن في السجن من أجل لا شيء أو بسبب الشكوك؟

كانت الشمس تنسلّ إلى غرفتي في بوينس أيرس وأنا أنهضُ من نومٍ سيّئ، كل شيء يُطقطق، قبل أن يرن المنبه. أستحم وأرتدي ملابسي وأُغلق بابَ المصعد وأدخل في التفكير: ماذا لو كنا صخرة مقسومة؟ صخرة كُسرت، أجزاء من صخرة واحدة تتدحرج هناك؟ حجاج محكومون بأن يكونوا دائماً عابرين. (كوب مليء بالبيرة على البوفيه. من ينتظر الكأسُ، فمَ من؟ عجوز تعاود ملأه في كل مرة تتبخر فيها البيرة.)

هل سأكون قادراً، ذات مرة، على اقتلاع الشكوك التي تسمم دمي من داخلي ؟ أردت تغيير كل ليالي الأرقِ والضياع باللحن الذي يبحث عنه السجينُ وحيداً في زنزانته أو بريح الفرح التي تنتظرها امرأة، غاص رأسُها بين يديها، في المطبخ القذر. أردت عبور النهر والجمارك و الوصول في الوقت المحدد. (طفل تجره الشرطة يتدحرج على الدرج. الملابس الممزقة ملطخة بالدم. حشد من الشيوخ ينظر دون أن يتحرّك. الطفل يرفعِ رأسه المتسخ بالطين. تلمع الكراهية في عيْنَيْه.)

في أحدِ تلك الصباحات، بينما كنت أمشي باتجاه المجلة، خطر لي فيلمٌ بولندي كنت قد شاهدته قبل سنوات. كان الفيلم يروي قصة فرار مجموعة من الرجال عن طريق شبكات الصرف الصحي في وارسو، في زمن الحرب. دخلوا جميعهم معاً تحت الأرض. واحد فقط استطاع النجاة بحياته. بعضهم ضاع في المتاهات النجسة؛ آخرون استسلموا للجوع أو اختنقوا بالغازات. أذكر وجه الناجي حين فتح أخيراً غطاء الفتحة وخرج من الظلمات والخراء: راح يرمش متأذّياً من نور النهار، مصعوقاً من العالم. عندها أغلق الغطاء فوق رأسه وعاد ليغوص في المجاري حيث كان زملاؤه الموتى. كانت قد صدمتني بقسوة تلك التضحية، وأغضبتني ردة فعلِ الجمهور، الذي لم يفهم اللفتة العظيمة وصرخ أمام الشاشة: أحمق، أحمق، غبي، لكن ماذا تفعل، أيها المعتوه! ماذا تفعل؟ لابدّ أنك أحمق، اللعنة على العاهرة التي ولدتك.

كان قد مر وقت طويل على الليلة التي شاهدت فيها هذا الفيلم في سينما حي من أحياء مونتيفيديو. ذاك الصباح، وأنا أمشي في شوارع بوينس أيرس، اكتشفتُ أنّ الجمهور كان على حق. أولئك الرجال في السينما كانوا يعرفون أكثر مني، رغم أنهم لم يملكوا أدنى فكرة عمّن كان أندريه باجدا ولم يكن يهمّهم قيد أنملة.

3.

غفا إيريك إلى جانبي في الطائرة ونمّل رأسي.

عندما أعودُ، فكّرتُ، سأجوب كل الأماكن حيثُ تكوّنت أو كوّنوني؛ وسأكرر، وحيداً، كل الذي في عودةٍ عشته ذات مرة برفقة من لم يعودوا موجودين.

صوت ما دندن بهدوء في داخلي أغنيةَ *ألف ولادة*:

اكتشفتُ أنّ سلاحي هو
الذي يحفظ الذاكرة...

طعم الحليب الأول، من ثدي الأم. أيُّ أطباق شهية يمكن مقارنتها بحلويات الشوكولاتة التي كانت تشتريها لي جدّتي من محل المعجّنات المجاور؟ والعدس الذي كانت تطبخه لي كل خميس، إلى أن غادرتُ مونتيفيديو؟ لا زلت ألاحق طعمها على طاولات العالم.

وجدت أنّ كلّ شيء يتغير وأنّ كلّ شيءٍ صغير..

سأذهب إلى فناء المنزل حيث تعلمتُ المشي ممسكاً بذيل الكلبةِ ليلي. كانت متشردة من الشارع، كلبة سيئة المعيشة؛ لذلك ما من أحد تركها مقطوعة الذيل. كان لها ذيل طويل ونظرة حلوة وعمشاء وبطنها مليء دائماً بالجراء. كانت تنام تحت سريري وتكشر عن أنيابها في وجه من يريد الاقتراب منها. في الليالي، كلاب الحي كانت تعوي أمام بوابات المنزل ولأجلها يقتل بعضها بعضاً بالعضّ. علمتني ليلي المشي بالصبر والتقلب.

سأعود إلى الشوارع المؤدية إلى البحر والتي كانت محض أرض جرداء، ساحات حرب وكرة قدم في سنواتنا الأولى. هناك كنا نتقاتل بالعصي والحجارة. كنا نرسم عيوناً وفكوكاً مرعبة على سعف جذوع النخل التي كنا نستخدمها كدروع. كان الذهاب لشراء السمبوسك مغامرة. كان يجب عبور أرض معادية. في هذه الأجزاء المقفرة من الساحل عوجوا لي أسناني، وأخي أنقذ نفسه من أن يصبح أعور للأبد. أمي، التي لم تتقبل الشكاوى، كانت تداوي لنا جراحنا: علمتنا أن نعض بقوة وأن لا نصغر. أخي غيّيرمو، الذي لطالما كان قليل الكلام، كان يقاتل بشراسة دفاعاً عن حقوق الطيور والكلاب. لم

يعثر على نفسه أبداً في المدينة. ولم أره قط سعيداً فيها. هناك كان يتفوق، كان ينكمش؛ هو كان في حقول بايساندو.

كان العجب العجاب...

سأجوب على الخيول مروجَ جدول نيغرو، حيث تعلّمتُ الخببَ على الخيل. منذ صغرنا ، كنا نتسابق أنا وأخي. في مساءات الصيف، كنا نهرب من القيلولة، شبهَ عاريين، وبقفزة واحدة كنا نتشبث بأعراف الخيول بدون سرج ولا لجام: كنت أطير فتخفقُ في جسدي عروق الحيوان، رعد من الحوافر، رائحة جلد رطب، غليان من التعرّق، مشاركة مع تلك القوة التي تلجُ الريح: حين كنت أنزل، كانت ركبتاي ترتجفان. كانت تدوم دهشة الطفل حتى الليل.

استطعتُ بعد سنوات كثيرة أن أعرف تلك السعادة العنيفة، كمن يتذكر ولادته ذاتها أو النور الأول. يحدث لي هذا أحياناً، في البحر، حين أدخله عارياً وأشعر بأنني أنتمي إليه. ويحدث لي حين ألمسُ امرأةً وألدُها وتداعبني وتوجِدني، وأدخل فيها فنخلد برهة، نصبح كثراً نحن الاثنين، في تحليقنا العالي.

4.

سأعود إلى مزرعة بيبي بارينتس في بوثيو. في الأيام الجامحة، بيبي عرف كيف يصنع مكاناً لي في هذا البيت. عرف أن يفتح لي الباب وأجلسني إلى طاولته، بجانب أحبابه.

وصل هناك ذات صباح خورخي إيريسيتي، الذي خدم معي في النقابات. أوقف السيارة عند الباب وناداني بمزمار السيارة. من وراء السياج صاح لي بأنهم غزو كوبا. شغّل بيبي الراديو في الحال. أعلن الخبر انتصار غزاة بلايا خيرون. جفّ لساني. أمضيت فترة بعد الظهر كلها وأنا أشرب الماء ولم يكن هناك من طريقة لتجنب ذلك الحنق.

بعد ظهر ذلك اليوم، في العمل، سقطت مني قطعة جلد من لساني. أراد بيبي أخذي إلى الطبيب. تعافى اللسان لوحده.

مضت السنون. شاركتُ بيبي بعض مغامراته. في ليلة من ليالي الصيف كنا جالسين على رصيف ميناء بوثيو، وسألني من أجل ماذا أعمل؟ قال لي إنه لا يوجد خبز في هذا العالم قادر على إطفاء جوعي.

5.

أعلن الصوت أن الطائرة بدأت بالهبوط إلى إيزيزا.

هزني إيريك. ظنّني نائماً.

كانت الشمس تغرب فوق النهر. كان هناك ضوء بريء، كالذي لا يوجد إلا عند ولادة أو نهاية كل يوم.

مشينا إلى سيارة أجرة، وأمتعتنا في يدنا. لوهلة شعرت بالسعادة وبالرغبة في القفز.

انسابت السيارة قبالة الساحل ثم غاصت في المدينة.

الأبناء

على حافة البحر، حيث ينفتح الشاطئ ويعود النهر إلى البحر، تشكّل أبنائي. بيرونيكا، في الخليج القديم من بوثيو، في المرفأ القديم بحماية بعض الجذوع المتساقطة. كلاوديو، في الحي الجنوبي. فلورنسيا، على شاطئ أتلانتيدا. أنا وغراثييلا كنا قد استقللنا الحافلة التي تصل إلى كازينو أتلانتيدا. المال لم يكن يكفينا لنهاية الشهر، كما كان يحدث دائماً، وهذه المرة، وقد سئمنا من الفقر، قرّرنا المقامرة بالباقي.

اشترينا بطاقة ذهاب وإياب، تحسّباً. إن ربحنا، فسنمضي عطلة نهاية الأسبوع في فندق جيد، وبعدها سنستطيع الوصول إلى نهاية

الشهر بدون أن نبيع مخزوننا من كتب الفن والزجاجات الفارغة. إن خسرنا، فسننام على الشاطئ.

راهنا عدة رهانات كاملة، 17، 24، 32... جربنا الصفر. الحظ، اللون، الشارع، المربع. لم نفهم شيئاً من كل هذا.

خلال نصف ساعة لم يبق في جيوبنا شيء غير النسالة.

بعد ذلك سبحنا في البحر ونمنا متعانقين على رمال أتلانتيدا.

الأبناء

مع بيرونيكا كتبنا رسائل عنيفة.

أحياناً كان هناك مساحات من الصمت طويلة. كان كل منّا ينتظر أن ينزل الآخرُ عن حصانه، وكان كل واحد منّا يعلم أنّ الآخر لن ينزل. أنّها مسألة أسلوب.

بيرونيكا تشعل عقبَ سيجارةٍ لِهامفري بوجارت. تمسُك عود الثقاب بينما تتحدث عن أي شيء، كأنها شاردة، تنظر إلى جهة أخرى، وحين تبدأ الشعلة بحرق أظافرها تقرِّبها من السيجارة ببطء. ترفع حاجباً، تداعب ذقنها، وتطفئ الشعلة نافثة سحابة من الدخان من زاوية فمها.

حين جاءت لتراني في بوينس أيرس قالت لي:

– لو أننا أنا وأنت لم نكن أباً وابنة، لكنا قد انفصلنا منذ زمن.

ذات ليلة ذهبت للهو مع مارتا وإريك. أخذت بيرونيكا معها دميتها المصنوعة من الخرق، التي كان اسمها المُغفَلة.

حين استيقظتْ بعد الظهر قالت لي:

– تجولنا هناك. ذهبنا إلى البار وشربنا البيرة وأكلنا الفستق. كانت ليلة جميلة. لحسن الحظ حصلنا على طاولة بجوار النافذة. كان هناك موسيقى جيدة.

– والمُغْفَلة؟

– علقناها إلى خطاف في الجدار وطلبنا البيرة لها أيضاً. البيرة سببت لها النعاس.

– هل بقيتم حتى وقت متأخر جداً؟

– كنا نريد ذلك: قالت لي. حتى الثالثة فجراً.

الأبناء

منذ أحد عشر عاماً في مونتيفيديو، كنت أنتظر فلورنسيا على باب البيت. هي كانت فتية جداً وتمشي مثل دب صغير. كنت أراها قليلاً. كنت أبقى في الصحيفة حتى ساعة غير محدّدة وفي الصباح كنت أعمل في الجامعة. لم أكن أعرف عنها سوى القليل. كنت أقبلها وهي نائمة؛ وكنتُ أحمل لها أحياناً حلويات أو شوكولاتة أو ألعاباً.

لم تكن الأم موجودة في ذلك المساء وأنا أنتظر عند باب البيت الحافلةَ التي تأتي بفلورينسيا من الروضة.

وصلت حزينة جداً. لم تتكلم. في المصعد راحت تمطّ شفتيها. بعدها تركت الحليب يبرد في الكأس. كانت تنظر إلى الأرض.

أجلستُها على ركبتي وطلبت منها أن تحكي لي. رفضت برأسها. داعبتها وقبّلتُ جبينها. أُفلِتَتْ منها. دمعة. مسحت وجهها بالمنديل ونظفت أنفها. عندها طلبتُ منها مجدداً: _ هيا، قولي لي.

أخبرتني أن صديقتها المقربة قالت لها إنها لا تحبها.

بكينا معاً، لا أعرف كم من الوقت، متعانقين نحن الاثنين. هناك على الكرسي.

شعرت بالكدمات التي ستعاني منها فلورنسيا على مدى السنوات، وتمنيت لو أن الرب موجود وليس أصمّ، كي أستطيع أن أتوسّل إليه أن يحيل إليّ كلّ الألم الذي يحتفظ لها به.

الأبناء

1.

ألبارو، أفضل صديق لكلاوديو، يدعوه إلى حفلات سيركِ خنافسِهِ. أخبرني كلاوديو كيف هو السيرك. هناك مسار من الحشائش الناعمة وحوله سياج من عيدان علاّقات الملابس. مع أسلاك وأعواد خشبية ورسوم تويتي، ألبارو اخترع عدداً من تلك الألعاب التي تحبها الخنافس. الحشرات المسكينة خرقاء، بدروعها التي تشبه دروع المحاربين، لكن كلاوديو رآها في سيرك ألبارو، تدور متراقصة بطريقة عظيمة: تتأرجح على الأراجيح، تتشقلب شقلبات مميتة، تدور على أحصنة السيرك وتحيّي الجمهور.

2.

ذات ليلة، بقي ألبارو في منزل كلاوديو. في صباح اليوم التالي، كانت الأسرّة لا تزال مرتبة وهما ميتان من شدة النعاس وما يزالان بملابسهما.

أوضح كلاوديو:

– فتحنا النافذة. كان القمر بدراً تامّاً. أمضينا الليلة كلها ونحن نغني ونحكي قصصاً ونتكلم عن حبيباتٍ وما شابه ذلك.

3.

يقبل كلاوديو تناول الحساء، لكن بالشوكة. يحب فك الألغاز والاختفاء عن الأنظار.

- منتزه جميل للضياع! يُعَلِّقُ. ويسأل:

- كم الساعة يا أبي؟ هل ظهر حزام الجبّار في السماء؟ وصليب الجنوب؟ أليس صحيحاً أنَّ كلّ شيء نخترعه قد تم اختراعه من قَبلُ؟ من قِبَلِ من اخترعنا؟

4.

عندما كان عمره ثلاث سنوات كان كلاوديو ضعيفاً. حينها دخل في الموت وخرج منه. كان يلهث وكان رأسه ناراً؛ يشق طريقه بين الاختناق والحمى ويبتسم ضاغطاً على أسنانه:

- أنا بخير يا أمي: يتمتم. ألا ترين أنّني بخير؟

لم يكن يتنفس تقريباً حين دخل المستشفى، ولكنه بعث إلى الحياة من جديد في المنفسة. سافر إلى القمر في المنفسة، عبر الكون المنعش والأزرق.

- نحن رواد الفضاء لا نستخدم المصاصة؛ رفض حين عرضوها عليه.

- في السماء تعدو الخيول: همس.

بعد ذلك حملوه إلى النقالة ليصعدوا به إلى غرفة العمليات. في النقالة الطويلة بدا أصغر. قال وداعاً وشكراً للجميع، واحداً واحداً، وأُغْلِقَ بابُ المصعد.

حين استيقظ من التخدير، كان يتضور جوعاً.

- أريد أن آكل أسناناً: قال شبه دائخ. أراد النهوض ولم يستطع. حين استطاع رسم دجاجة على الشرشف. مضى وقت قبل أن تشفى رئتاه. كان يضع قلم رصاص في فمه ويشرح:

- أنا سيد صغير. أُدَخّن وأَسعل. لهذا السبب عندي سعال شديد وأسعل.

عندما خرّجوه من المستشفى، فقد الشعور بالخوف. كان ينام بدون المصّاصة ولم يبلل بعدها فراشه أبداً.

بوينس آيرس، أيار 1976 : هل هو ميت؟ من يعلم؟

1.

سمعنا صوت ضجيج المحرك يتصاعد من بعيد. كنا على الرصيف البحري، ننتظرُ واقفين. كان آرولدو يؤرجح الفانوس بذراعٍ؛ وبالذراع الأخرى يلف مارتا، التي كانت ترتعش من البرد.

المصباح الكشّاف اخترق الضباب ووجدنا.

قفزنا إلى القارب.

لوهلة تمكنتُ من رؤية القارب المتداعي، مشدوداً بشكل جيدٍ بالحبل؛ على الفور ابتلعه الضباب. في هذا القارب كنت قد جدفت، عند حلول المساء، حتى جزيرة المخزن.

كان الضباب ينبثق من النهر المظلم كالغليان.

كان البرد قارساً في القارب. الركاب يتهامسون. كان البرد يسوط أكثر لأن الليل كان ينقضي. أبحرنا في رافدٍ ضيق، ثمّ في آخر أعرض، ووصلنا إلى النهر. انبلج أوّل وهج للنهار من خلف أطياف أشجار الحور. الضوء الكسول راح يعرّي البيوت الخشبية نصف المتآكلة بالمد، وكنيسة بيضاء، وصفوف الأشجار. رويداً رويداً تُضاء رؤوس أشجار الكازوارين.

نهضت في مؤخرة القارب. كان هناك رائحة نظيفة. كان النسيم البارد يلفح وجهي. استمتعت بالنظر إلى ثلم الرغوة التي كانت تطارد القارب واللمعان المتزايد لأمواج النهر.

كان آرالدو قد وقف بجواري. جعلني ألتفت ورأيتها: شمس نحاسية هائلة راحت تغزو مصب النهر.

كنا قد أمضينا عدة أيام في الدلتا، في العمق، لنعود من بعد إلى بوينِس أيرس.

2.

يعرف آرالدو كونتي كما القليلون عالم البارانا هذا. يعرف ما هي الأماكن الجيدة لصيد السمك وما هي الطرق المختصرة والزوايا المجهولة من الجزر؛ يعرف نبض العوامات وحياةَ كلٍّ صياد وكلٍّ زورق، وأسرارَ المنطقة والناس. يعرف التجول في الدلتا كما يعرف السفر، حين يكتب، في أنفاق الزمن. يتسكع في الأنهر الصغيرة أو يبحر أياماً وليال في النهر المفتوح، على غير هدى، باحثاً عن تلك السفينة الشبح، ألتي أبحر فيها مرة هناك في الطفولة أو في الأحلام. وبينما هو يتعقّب ما أضاعه، يسمع أصواتاً ويحكي قصصاً للرجال الذين يشبهونه.

3.

في مثل هذا اليوم منذ أسبوع اقتلعوه من البيت. عصبوا عينيه، ضربوه وأخذوه. كان معهم بنادق مع كاتمات صوت. تركوا البيت خاوياً. سرقوا كلّ شيء، حتى البطانيات. لم تنشر الصحفُ سطراً واحداً عن خطف أحد أفضل الروائيين الأرجنتينيين. محطات الراديو لم تقل شيأً. صحيفة اليوم تقدم قائمة كاملة بضحايا زلزال أوديني في إيطاليا.

كانت مارتا في المنزل عندما حدث ذلك. أيضاً عصبوا عينيها. تركوها تودّعه فاحتفظت بطعم الدم على شفتيها.

اليوم مضى أسبوع منذ أن أخذوه وما عاد عندي طريقة لأقول إنّني أحبه وإنّني لم أقل له ذلك قط خجلاً أو من كسلٍ يحل بي..

بوينس أيرس، أيار 1976، هذا الصوت الذي يحتمل العاطفة على مدى قصير

يغني ألفريدو ثيتاروسا بلا رجفان ولا نشاز، صوت فحل وُلد ليسمي الحبَّ، الخطير دائماً، وشرفَ الرجال.

في هذه الليلة ذهبتُ إلى المنزل. كان هناك أشخاص لا أعرفهم.

منذ سنوات يؤلمه رأسه. وما من طبيب يقدر على وجع الرأس هذا. إنّه وجعُ البلد:

– أنا سكران: قال لي.

كان يتكلم عن أشياء أخرى ويُقاطع نفسَهُ ليشرح لي:

– أنا سكران. هذا حصل لي كثيراً.

سألني ثلاث مرات عن آرالدو.

– عرفت بذلك منذ أيام: قال لي. ألا يمكن عمل أي شيء لأجله؟

صب لي نبيذاً. غنى دون رغبة. في إحدى الزوايا أحد ما كان يمازح ويضاحك نفسه وحيداً.

– أنا لم أقرأ شيئاً لآرالدو: قال ألفريدو. اشتريتُ كتاباً منذ أيام. أحبّ هذا الرجل. ألا يوجد أي شيء يمكن أن نفعله لأجله؟

ظل لوقت طويل يضغط على القيثارة، وعيناه مسمرتان في الأرض، وبعد برهةٍ أصرّ:

– بدت لي رواية جيدة جداً، جنوبية شرقية. أنا لم أعرفها لأنني قرأت قليلاً في الواقع، هو أيضاً لم أعرفه قط. والآن... ألا يمكن أن نفعل شيئاً؟

شرب حتى ثمالة الكأس وقال بعدها :

– هكذا إذاً لا نستطيع أن نفعل شيئاً لأجله.

حرك رأسه. انطلق البقية يغنون ميلونغا بصوت واحد. وصلوا إلى منتصفها. نظر إليّ ألفريدو، وكأنه يتهمني:

– ليس عندي عنوانك: قال لي.

– لا أتواجد أبدا في البيت: وضّحتُ له.

– لم تُعطني عنوانك: قال. معي هاتف المجلة، ولكن ليس عندي عنوانك. لم تعطني إياه.

– سأسجله لك.

ناولني دفتراً أسود الغلاف. مررت الصفحات، باحثاً عن الفهرس، ومن دون قصد وجدت صفحة مذكرة اليوم السابق.

البقية كانوا يتحدّثون بصوت منخفض.

قرأت في المذكرة:

أتدرب.

التسجيل في إيون؟

الاتصال بإدواردو.

أُقَرِّر الذهاب.

هل المدن موجودة؟ أم هي أبخرة يُطلقها الناس من أفواههم؟

1.

تحت أية شوارع أودّ أن أجثو حين يبعثون بي إلى الموت؟ تحت أقدام من؟ أي خطوات يوَدُّ المرء أن يسمع للأبد؟

هل مونتيفيديو إلا مجموع الناس الذين أحببتُهم وكرهتُهم والأشياء الكثيرةِ التي أعطيتُها وتلقّيتُها فيها؟ مِنْ هؤلاء الرجال والنساء تأتي ثوراتي وأحزاني. هم تاريخيَ الوطنيّ.

حين عرض عليّ إميليو لوحة جدارية لغرفتي في بوينس أيرس، طلبتُ منه أن يرسمَ لي ميناء بألوان حية. ميناءً من مونتيفيديو للوصول، وليس للمغادرة: ليقول أهلاً وليس وداعاً. رسمهُ لي وظل هناك.

2.

في ساعة القيلولة، كنّا أنا وأخي سجيني الغرفة، مستنفرَيْن ومشدودين لأصوات الشارع، التي كانت تنادينا. في تلك الأزمنة كان للمدينة موسيقى مختلفة: كنّا نسمع وقعَ حوافر أحصنةِ عربة الثلج وجهاز سنِّ السكاكين، وبعدها كان يمر مثلث باعة الفطائر، مناداة بائع المثلجات وأورغون ببغاء الحظّ، الذي يتنبأ بالمستقبل بمنقاره. عند أدنى غفلة من أمي، كنا نهرب. نجوبُ الشوارع، نرمي الحجارة على نوافذ الأصدقاء. وحين كانت تكتمل الشلة، نذهب لنُدَخّن شباشيل الذرة في الأرض القفر. كانت أسماك الوديان القذرة ألذُّ من وجبات الغداء العائلية، وكان إشعال نار، في ظل أشجار الشاطئ، لشواء وأكل سجق مسروقة أفضل من السينما. لكلّ واحدٍ الحق بقضمة واحدة. غنيمة يومنا كانت تقطرُ قطرات من الدهن الملتهب وكانت تُغرق أفواهنا.

3.

كنا ننتظر الصيف؛ وفي الصيف وقت للحفلات والكرنفال.

كانت تزهر أشجار الكينا، والمريخ يحمرّ في السماء والأرض الحارة تمتلئ بالعلاجيم.

كنا نجوبُ مقالع الحجارة باحثين عن صلصال جيد لنصنع أقنعة. نجبل القوالب، نعمل الأنوف الحادّة، العيون الجاحظة، ونغطسها بالجص. بورق صحف مبلل كنا نلف الأقنعة، وتأتي بعد ذلك الخالة

إيمًا وتساعدنا على تلوينها. كنا نعلق إلى رقابنا قدوراً قديمة وتمضي أوركسترا المقنعين لتطوف على الكرنفالات.

كلّ حي كانت له منصة ولربما اثنتان. بين الدمى الملونة الهائلة، كان الموسيقيون يغنون ليلاً.

أولى القبلات كنا نأخذها تحت المنصة، في العتمة، والضجيج فوقنا.

4.

ترى ماذا حلّ بالمدينة التي كان الشاعر باريّيا والرسام كابريريتا يتقاسمان فيها طقماً واحداً ويتناوبان على استخدامه؟

ماذا يوجد الآن مكان لا تيليتا؟ ليتو السمين جداً الذي كان ينام جالساً، بينما هو يحرس الباب، والسيجار في فمه. كنتُ في الرابعة عشر حين ذهبت لأول مرة. حالفني الحظ. يُلاحَظ أنّني بدوتُ مسالماً، لأن السمين قبلني.

_ أنت، أيها السمين، ادْخُلْ.

رافا أخو ليتو، كان يضع حسابات الزبائن على الحائط. عندما كانوا يُبَيّضون الحائط، يُعفى المدينون من ديونهم، ولا بدَّ أنهم لهذا السبب لم يكونوا يدهنونه أبداً.

في كلّ ليلة كان هناك نبيذٌ وقيثارات وسجق وجبن.

كنا نجلس لنشرب وندردش على الصناديق التي كانت تُصبح لاحقاً مليئة بالبندورة والخسّ والبصل والبرتقال. كانت لا تِليتا، في قلب المدينة القديمة، تتحوّل في الليل إلى مشرب للنبيذ وفي النهار إلى محل لبيع الفواكه والخضار.

هناك عرفت أغاني الحرب الأسبانية وبعض الأغاني الكرويلية التي ما زالت ترافقني حتى الآن. وتعلّمتُ أيضاً أشياء أخرى من أفواهِ الشعراء والبحارة.

5.

كان السكارى، جميعاً أبطالَ حرية التعبير. "أنا، أسكت؟"، كانوا يقولون. "أسكت، أنا؟"هل تعلم مع من أنت تتحدث الآن؟"

كانوا يتناقشون بصوت عال، كان من الممكن أن يسيروا في الشوارع بدون وثائق؛ لا أحد كان يخاف.

كان الجمهوريون الإسبان يجتمعون في سوروكابانا في ساحة الحرّية. يتشاجرون فيما بينهم كما في الحرب، لكنهم كانوا يخرجون متعانقين. كان السياسيون والمسرحيون يفضلون توبي نامبا. نحن الصحفيين كنا نحتل البالاس في حين كان المتقاعدون يذهبون إلى النوم. أنا كنت صاحب طاولة أمام النافذة.

كان جين فيز مُنتصف النهار يُشرَبُ في الخاوخا ونبيذ أوبيتا أيام السبتِ في الفون فون في السوق القديم كان البوستون للموسيقيين والراقصات. في البريتانيكو كانوا يلعبون الشطرنج والدومينو. كان يوجد هناك مجموعات من الكتلانيين والاشتراكيين والبكم. عندما كان يتُمّ شخص ما ثلاثين عاماً كزبون، كان إلبريتانيكو يُحيله إلى التقاعد، ومنذ ذلك اليوم يشرب دون أن يدفع.

احتفظتُ بهذه الأماكن صامدةً في الذاكرة، بطاولات خشبها أو رخامها الصغيرة ، وصخب أحاديثها الكثيرة، وظلاله الذهبية، وهواء دخانها الأزرق، وروائح تبغها وقهوتها المغلية توّاً: لقد قاومت ببسالة غزوَ الإكريليك والفورميكا، لكنّها انهزمت أخيراً.

المونتيرّي، الذي كان يطل أيضاً على ساحة إندبنديئثيا (الاستقلال)، لم يكن يُغلق قط. هناك كانوا يأكلون الكريم كراميل بملاعق الحساء، وكان باستطاعة المرء أن يتناول العشاء وقت الفطور، عند نهاية ليلة من النبيذ والموسيقى، قبل الذهاب إلى العمل.

جالسة على حافة نافذة المونتيري، كانت غلوريا تهمس مرنّمةً بالتانغو، فجراً، بصوتها الأجش. لم يكن يُسمع طنين ذبابة تطير. (كانت غلوريا تحب رجلاً اسمه مايا، يعمل في قوارب النقل النهري. وذات ليلة كمن الحب فقتلته وقتلت نفسها. هناك سهروا عليها فوق طاولة. أشعلوا شمعة غليظة الفتيل في كل طرف.)

أحلام

كنتُ أحكي لكِ قصصاً من طفولتي وأنتِ كنتِ ترينها تَحدث في النافذة.

كنت ترينني ولداً أمشي في الحقول وتَرَيْن الخيولَ والنور وكلَّ شيء يتحرك بسلاسة.

عندئذ كنت تأخذين حجراً صغيراً أخضر وبرّاقاً من إطار النافذة وتضغطين عليها بقبضة يدك. بدءاً من تلك اللحظة كنت أنت التي تلعبين وتركضين في نافذة ذاكرتي، وتعبرين وأنت تخبّين نداءات طفولتي وحلمك، وريحي على وجهك.

الكون يُرى من ثقب المفتاح

أتذكر اليوم الذي بدأ فيه العنف.

كان أخي غيِّيرمو يلعب مع الغاييغو باث في ممر منزلنا في شارع أوسوريو.

كان منتصف نهار صيفيّ.

شاهدتهما، وأنا جالسٌ في الشرفة، يركلان الكرة المصنوعة من الخرق.

كان الغاييغو، الأكبر منا، مشهوراً بأنه جميل وبأنّه زعيم العصابة. في الأحياء المجاورة، كانوا يفتحون له الطريق عندما يصل.

سُجل هدف غير مؤكّد، أو شيء من هذا القبيل، وأخذوا بثياب بعضهم. أخي وقع على الأرض والغاييغو، الذي ثبت له ذراعيه بركبتيه، راح يضربه من الأعلى.

شاهدته يضربه، ولم أتحرك ولم أقل شيئاً.

فجأة شيء ما كالزناد انطلق في داخلي وشوّش نظري وانطلقت وهجمت.

لم أعرف جيداً ما الذي حدث بعدها. أخبروني بأنه كان مطراً من اللكمات والركلات والنطحات، وبأنني ثبت بيدي عنق الغاييغو ككلب مسعور ولم يكن هناك من طريقة لاقتلاعي من فوقه.

أتذكر أنّني كنت مصعوقاً، وكنت، وأنا أسمع كل هذا كأنه يتعلّق بشخص آخر، أرتجف وألعق الدم عن مفاصل أصابعي.

الكون مُشاهَداً من ثقب الباب

كنّا ذات صباح ممطر في بيت صديقي خورخِ، نلعب اللودو والداما. وبعدها، لا أدري كيف، كنت في غرفة نوم أخته الكبرى، أرفع بقبضتي بعض ملابسها، التي اكتشفتها على السرير، بين الشراشف التي قلّبتها هي ولا تزال تحتفظ بدفء نومها. شعرت بنظرة الإله المندهشة.

بوينس أيرس، أيار 1976: مدخل إلى الاقتصاد السياسي

قرارات وزير الاقتصاد، هل تشير إلى أسعار الصرف؟ إلى النظام الضريبي؟ إلى سياسة الأسعار؟ لماذا لا يذكرون أبداً أشياء كالحياة

والموت أو المصير؟ هل من يفك رموز خطوط اليد أكثر حكمة أم الذي يعرف قراءة ما تقوله هذه القرارات دون أن يقول ؟

ذات يوم سعيد قرّرَ والد كارليتوس دومينغث حرق الخرطوش الأخير. الأبناء كانوا قد أصبحوا كباراً ولا يحتاجونه كثيراً. باع المنزل، وهو بيت واسع، ليشتري شقة وسيارة.

- أُخرجُ العجوزَ من المطبخ: قال. ونذهب لنستمتِعَ بالحياة.

هما لم يكونا قد سافرا مطلقاً. كانا سيعبران السلسلة الجبلية. كيف سيكون هذا؟ كيف سيكون المشي في مثل ذلك الارتفاع؟

وقّع والد كارليتوس عقدَ البيع وفي ذلك اليوم أصدر وزير الاقتصاد قراراً، نشرته صحفُ اليوم التالي. بما حصله من بيع المنزل، استطاع والد كارليتوس شراء شقة صغيرة جداً ولا شي أكثر. بقيت بقيّة كافية لتغطية نفقات دفنه.

حين أُدخل إلى المستشفى، كان كارليتوس يذهب لزيارته وكان هو يتوسل له كي ينزع عن جسمه أنابيب الأمصال.

- أنا أفهمك: كان كارليتوس يقول له، ولكني لا أعرف كيف أفعل ذلك.

لم تتمكن الأم من معرفة الحي. دخلت الشقة، تعثرت وسقطت سقطة سيئة. لم تشأ أن تنهض مرة أخرى.

- أرى نجوم بحر سوداء وكبيرة: كانت تقول. عيونها هائلة.

بعدها أغلقت ريح مفاجئة سقفَ الفناء ولم يستطع أحد فتحه أبداً. بدأت اللوحات تتساقط عن الجدران. توقفت الثلاجة عن العمل. تعطلت الغسالة. وصُمّ الهاتف.

يدخل كارليتوس تلك الشقة المظلمة كالفخ ويقرأ الرسائل التي كان أبواه يتبادلانها قبل أن يولد هو.

النظام

الشيء الوحيد الحر هو الأسعار. في بلادنا، آدم سميث يحتاج إلى موسوليني. حرية الاستثمارات وحرية الأسعار وحرية الصرافة: كلما كانت الأعمال التجارية أكثر حرية، كان الناس أكثر أسراً. رفاهية القلة تلعن كل ما عداها. من يعرف ثراءً بريئاً؟ في أوقات الأزمة، ألا يصبح الليبراليون محافظين، والمحافظون فاشيين؟ في خدمة من يُنفِّذُ قتلةُ الأشخاص والبلدانِ مهمَّتَهم؟

كتب أورلاندو ليتيلبير في مجلة ذي نيشن (*الأمة*) أنّه لا الاقتصاد محايد ولا الفنيون. بعد أسبوعين، طار ليتيليير أشلاءً في أحد شوارع واشنطن. تتضمّن نظريات ميلتون فريدمان بالنسبة إليه جائزة نوبل؛ وبالنسبة للتشيليين، تتضّمن بينوشيه. صرّح وزير اقتصاد في الأوروغواي بأن: "عدم المساواة في توزيع الدخل هو الذي يُوَلِّد التوفير". في الوقت ذاته، اعترف بأن التعذيب يروِّعُهُ. كيف يمكن إنقاذ عدم المساواة هذه إن لم يكن بالهراوات الكهربائية؟ اليمين يعشق الأفكار العامة. التعميمُ يُبرِّئ.

بوينس أيرس، أيار 1976: قنبلة على المكتب 1.

يعلن أحدهم:

– السيد كاسترو: يقولون لي.

أُطِلُّ. في صالةِ الانتظار شابٌّ على ركبتيه طردٌ. يقفز ويعانقني بدون أن يفلت الطرد. أنا لا أعرفه. يقول لي إنّ علينا أن نتحدَّث على انفراد.

ندخل إلى المكتب ويُغلق الباب. يجلس أمامي. ينظر إلي.
– أسمعُك: أقولُ.
– أنا من الأوروغواي: يقول لي.
ويضيف:
– مثلك.
– ممتاز: أقول له.
– هل تعرف ما الذي أحمله هنا؟ يقول، مشيراً إلى الطرد.
– ليس عندي أدنى فكرة.
يسند الطردَ برفق على الطاولة وينحني إلى أن يلامس وجهي. يهمس:
– إنّها قنبلة.
أجفلُ. يعاود كاسترو الجلوس. يبتسم.
– قنبلة: يكرر.
أنظر إلى الباب بطرف عيني. أتأكّد من لا جدوى وجود مسدس مخبّأ في الدرج.
– أنا مع الفقراء. أنا بجانب الشعب، أنا: يقول لي كاسترو. وأنت؟
– كليّاً: أؤكد له.
يضع يداً على الطرد ويعرض:
– أتريد مني أن أفتحه؟
تقفز من الطرد صفحات كثيرة مكتوبة على الآلة الكاتبة.
– قنبلة! يعلن كاسترو، مبتهجاً. هذه الرواية ستجعل الحكومة تسقط!

2.

أواسي نفسي بالتفكير بأنه ليس مجنونيَ الأوّل.
عندما كنا نعمل في *إيبوكا* (العصر)، في مونتيفيديو، كان هناك عملاق يطوف على الصحف. يهرب من مستشفى الأمراض العقلية

كلَّ أسبوع ويدخل غرف التحرير، آسراً، بأفروله الرمادي الرث ورأسه الحليق، ويجلس في المكتب الذي يحلو له. يُهَدِّد: "سأكسر كل شيء". بات معروفاً ما يجب فعله: كان يضع وجهه على طاولة ونحن نحك له ظهره. عندها كان يبتسم، مسرورا، ويذهب.

آخر كان يأتي ليُبلغ عن التخريب الإمبريالي، لأنه في كل مرة تفتح فيها صنبور حمام منزله، يخرج نمل. آخر، كان نحاتاً، كانت عند عادة سرقة الملائكة الصغيرة من ساحات المدينة. يصل في أي ساعة من الليل، حاملا أجنحة أو قبضات من البرونز أو المرمر تحت سترته، ليطلب ملاذاً للمتحدث باسم القضايا الشعبية. والمخترعون؟ كان هناك إيطالي صغير القامة يمشي، ورقّ هائل ملفوف تحت ذراعه. كان هذا تصميماً لمدفع يطفئ الحرائق حيث لا يوجد ماء، مطلقاً حجارة على النار.

3.

عندما كان آتشابال مديراً أدبياً لإيوديبا، دار النشر الجامعية في بوينس أيرس، جاء، ذات مساء، لزيارته رجل أشيب عند الصدغين يرتدي ملابس على قياسه. جاء معه مخطوط رواية غير منشورة.

– أنا مؤلّف هذا العمل: قال الرجل. وأحضرته لأنّه سيُنْشَر هنا.

– حسناً... تردد آتشابال. نقدر جداً أنك أزعجت نفسك. سينظر مستشارونا فيما إذا كان...

– لا يوجد شيء لتنظروا فيه: ابتسم الرجل. إذا قلت بأنكم ستنشرونه أنتم، فهذا يعني أنكم ستنشرونه.

أومأ آتشابال برأسه متفهماً. قال له إنه هو أيضاً يأمل بأن يتم نشره، وبكل سرور سيضعها باعتبار...

– ربما لم أكن واضحاً: قال الرجل.

– بلى، بلى : قال آتشابال. وَضّحَ له أن كل مجموعة لها مديرها ومستشاروها ولا يمكن اتخاذ أي قرار بتجاوز...

– سبق وقلت لك إنّني أحضرت روايتي لأنها ستنشر هنا: كرَّرَ الرجلُ دون أن يتبدّل. ودون أن يتبدّل آتشابال قال له إنَّ إيوديبا تنشر نصوصاً جامعية، وإن دار النشر أنشئت كي تقوم بهذه الوظيفة، وإن أعمال الروايات الخيالية تشكل جزءاً من مجموعة كتب الطلاب أو سلاسل ترويج الأدب الكلاسيكي، القومي والعالمي، ولكنّه على كل حال، سيفعل كل ما بوسعه كي...

– سيد آتشابال: قال الرجل، أشكر لك توضيحك. كما قلت لك سابقاً، أنا أحضرت روايتي إلى دار النشر هذه لأنني أعلم بأنها ستنشر هنا.

نظر إليه آتشابال. ابتلع ريقه. أشعل سيجارة. وسأله بلطف:

– وهل يمكن معرفة من قال لك إنها ستنشر هنا؟

– اللّه قال لي ذلك: أجاب الرجل.

– من؟

– اللّه. ظهر لي منذ ثلاثة أيام وقال لي: "خذها فقط، وستنشر".

لم يسبق لآتشابال أن استقبل كاتباً موصى به إلى هذه الدرجة.

كلارمكو، أيار 1976: تكريم رجل لم أعرفه

.1

من هنا يمكن رؤية الحلزون...منذ متى وأنا أترك قدميّ تسوقانني؟

ها هي الشمس الضئيلة تأتي هابطةً.

في السماء تصرخ النوارس. ظلالها تسافر أمامي.

أصل إلى مَعلَم كريستيان الحجري. أقرأ النقش، الذي أحفظه عن ظهر قلب. أظل واقفاً أمام الحجر. في كل مرة آتي فيها إلى هنا أقطع هذا الطريقَ الطويل، كمن لا يريد هذا الشيء.

آثار الأقدام هذه التي كان قد خلّفتها ومحتها، منذ دهر، هذه الريحُ وهذا البحر. في أمسيات أخرى شعرَ هو، كما أشعرُ أنا بكينونتي، أنّه كان هذا الطائر الذي يحوم فوق رأسي ويطير فوق الرمال ويترك نفسه يسقط على رأسه في البحر.

لا أحد يعلم كيف وصل العجوز كريستيان إلى هذه الشواطئ؛ ولكن هناك أشياء تُحكى. يُقال إنه هرب، سابحاً، من سفينة دانمركية كانت بمحاذاة الشاطئ. يُقال إنّه كان سبّاحاً عظيماً. ويُقال إنّه كان يعتاش مما يصيد ومن ثعالب الماء التي كان يصطادها في الجدول. لم يسمح قط بأن يبتلع له البحر خطّ أفق: كان يسبح بعيداً ويفك الخط بيديه أو بأسنانه. اشتُهر عنه أيضاً بأنه لم توجد شرطة استطاعت أن ترفع يدها عليه.

كان دائماً مستعداً لمدّ يد المساعدة، دون أن يقبل شيئاً مقابلها؛ وكان قد أنقذ بعض الرجال من الموت. لم يملك شيئاً قطّ وكان يُعطي كل شيء. كان قد اخترع جائزة من ثلاثين بيسو لأفضل طالب مدرسة في المنطقة.

كانت الفرس لُولا تساعده في رمي الشبكة. كان العجوز كريستيان يجوب حوانيت القرية ليلاً. كانت الكلاب الستة السلوقية والفرس لُولا تنتظره على أبواب المقاهي. عندما كان يصل إلى درجة سكر ليس بعدها درجة، كان يرفعه أحد ما إلى ظهر الفرس، كي تحمله، على طول هذا الشاطئ، إلى كوخ الصفيح ذاك الذي بناه هو هنا بين الكثبان الرملية. كانت الفرس تقلّبه (يمنة ويسرة) بوركيها، تتأرجح على

إيقاع تمايل الجسد. كان العجوز ينزلق أحياناً ويبقى مرمياً على الرمل. عندها كانت الكلاب السلوقية ترتمي فوقه وتنام على جسده، كي لا يقتله الصقيع.

أنا لا أعلم عنه شيئاً غير ما يُحكى، وما قالته لي ذات مرة صورةُ وجهه ناتئ العظام ونظرته العذبة، وما أتعلمه منه وأنا أسير في طريقه. أعلم أنه لم تُعْرَفْ له امرأةٌ قط، لكنّه ربما، حين كان يشرب حتى يخرّ ساقطاً، كان يُحيّي أو يلعن الفتاةَ البعيدة التي أعطاها عصارة جسده حتى جفّ.

.2

بعد العواصف، تظهر على هذه الرمال الصخور، المغمورة قليلاً بالمياه، قواقعُ كبيرة وأشياء أخرى بحرية. كان الطقس هادئاً في الأيام الأخيرة. لا أجد شيئاً بين الرمل والصخور. ألتقط هناك بعض بقايا زجاج أسود. إنها كسرات زجاجة حطّمها المدُّ والجزرُ على الصخور.

يالا، أيار 1976: حرب الشوارع، حرب الروح

.1

كان إيكتور تيثون في أوروبا. لم يكن سعيداً هناك. عاد إلى يالا. هذه ساعات صعبة، لكنه متأكّدٌ من أنّه يُشبه الأرض التي يطؤها.

كان قد مرّ أكثر من عام لم نلتق فيه. أصل إلى يالا وصداع في رأسي. منذ أسبوعين ورقبتي ملتهبة.

مشينا في الممرّ الذي يؤدي إلى النهر.

النهر يحمل اسم القرية. إنه صاخب ويجري فوق أحجار ملونة. في الربيع، تذوب ثلوج الجبال. على ضفاف نهر يالا، تغفو في الليالي، القيثارات. يتركها العازفون هناك، كي تدوزنها حوريات البحر.

– نحنُ جميعاً في حرية مشروطة: يقول إيكتور.

– هنا سأبقى وحدي: يقول.

الخوف هو أسوأ خبر. في جنازة ألبرتو بورنيتشون، في قرطبة – يخبرني إيتكور–، لم يتواجد أكثر من اثني عشر شخصاً.

أنا أيضاً عرفت هذا البريء، تاجر الجمال غير القابل للبيع، الذي كان يجوب السهول والجبالَ وذراعاه محملتان بالرسومات والقصائد. كان بورنيتشون يعرف البلدَ حجراً حَجَرَاً، شخصاً شَخصاً، يعرفُ طعم النبيذ، ذاكرة الناس. ثقبوا جمجمتَه وصدْرَهُ بالرصاص في إيتاكا وألقوه في جب. من منزله المُلَغَّمِ بالديناميت لم يبقَ ولا حتى رماد. من البلاكيتات والكتب التي طبعها بعزيمة، أعمال فتية من الريف اعتقد أنّه اكتشف فيها موهبة أو قوّة، انتهى بها المطاف وبلمح البصر، إلى أقبية المكتبات أو في النيران. خمسة وعشرون عاماً من العمل تُمحى بضربة واحدة. نجح المجرمون.

– في الجنازة تواجد رجلٌ واحد _ يقول إيكتور_. إحدى عشرة امرأة ورجلٌ واحد.

الخوف هو الخبر الأسوأ. يخبرني زوج من الأصدقاء، رمى الكتب في مدفأة الحطب. واحداً تلو الآخر، جميع الكتب: طقس من طقوس عصرنا. بدأت بلينين وانتهت بأليس في بلاد العجائب. عندما لم يعد هناك ما يُلقى في النار، كان أشبه بالحمّى، حطما الأسطوانات. بعد ذلك ركضت تبكي في زاوية، وفي وجهها أجنحة مشتعلة.

صِبْيَةٌ، أحكي له، يركلون صندوقاً في قفرٍ من بوينس أيرس. ينفتح: إنه مليء بالكتب. إلى الأراضي القفراء تنتهي مجموعة مجلتنا المحظورة في المقاطعات، المضبوطة في المداهمات. تبدأ تشعرُ بأن بعض الناس يُسلّمون عليك بصوت خافت أو يديرون رأسهم. حتى بالهاتف

يمكنك أن تنقل مرض الجذام. إعادة اكتشاف الآخرين، الآن والمدُّ يرتفع: من الذي لا يترك نفسه يغرق؟ من الذي لم تهزمه الآلة؟

نصل إلى المحطة متتبعين خطوط السكة الحديدية. نجلس لنُدَخِّن سيجارة. أكتشف في حجارةِ الرصيف أسداً وامرأة تُمَشّط شعرها وفتى رفع ذراعيه في وضعية قربان. مرت على الحجارة السنون والخطوات، ولكنها لم تمحُ هذا. لم يعد حياً حارس تحويلات السكك الذي نحت هذه الحجارة بإزميل. صار نحاتاً لاضطراره للانتظار. في ذلك الوقت كانِ القطار يمر مرّة في الشهر.

– كان لِـ يالا حياتها الخاصة _ يقول هيكتور _، كان يوجد ناس هنا. بل و كان يوجد حلاق. كان فيها مرض هانتيغتون الخطير جدّاً.

لا يحكي لي الكثير عن أوروبا. جملة من شعار النبالة في منزل أندلسيّ: نعاني كي نعيش. وفيلم في باريس، حياة امرأة كبيرة في السن، نظيفة وبطيئة جداً. تكتشف ذات ليلة، جينَ الرعشة الجنسية. تنهض لتغتسل، تجد مقصاً على منضدة السرير تغرزه في حنجرة الرجل.

2.

قبضة فولاذية تضغط على عنقي. أقولُ، كما لو أنّني أريد إقناعَ نفسي: أنا لا أخاف من الألم. أقول: أنا هذا اليأس الذي ينبهني إلى أنني حيٌّ. لن أدفع لأيِ مهرج أو عاهرة في داخلي.

أحكي لهيكتور أني أُحاول الكتابة لتحديد اليقينيات الصغيرة التي يبدأ المرء باكتسابها، قبل أن تجرفها ريحُ الشك _ الكلمات كمخالب أسدٍ أو كتمرِ هندِ الكثبان الرملية. رحلة العودة إلى فرح الأشياء البسيطة: ضوء الشمعة، كأس الماء، الخبز الذي أشارك به الآخرين. الكرامة المتواضعة، أيّها العالم النظيف الذي يستحق المعاناة.

3.

يحكي لي هيكتور قصصاً من يالا القديمة. الفتاة التي هجرها الغريبُ كانت تخرج لتخبّ بالحصان كل مساء. كانت تأخذ معها إلى جانب حصانها حصانه، مُسرجا، بدون فارس. تتناول الغداء والعشاء على الطاولة المعدّة لشخصين، إلى جانب صحنه الفارغ. هي شاخت.

مشينا على حافة السواقي، يرافقنا خريرها اللطيف. أنتزع ورقة رمادية من شجرة كينا رماديّة. أسحقها بعد ذلك بين أصابعي.

_ هناك في الزاوية _ يقول هيكتور_ كانت تعيش امرأة لم تنمُ. كان لها جسد وعقل طفلة؛ وكانت عمياء. أمضت حياتها جالسةً في الأرجوحة. عندما كانوا يهزونها، كانت تغني مثل عصفور: الشيء الوحيد الذي تتقنه.

أتكلم عن بوينس أيرس. كم ساعة مرت دون أن أسمع زعيق صفارة إنذار؟ ما قيمة حياة رجل منذ آخر تخفيض لقيمة العملة؟ يُزرع البلد جثثاً وقمحاً. يُمحى اسمٌ من القائمة. الذي كان يُسمّى هكذا، أين يبزغ الفجر؟ يكمون فمك، يقيدون يَدَيْك، يُصعدونك إلى سيارة الفالكون: تسمع أصوات المدينة التي تبتعد وتقول وداعاً، أو هكذا تُفكرُ أنتَ لأنك معصوب الفم:

_ لا، لا. انتظروا. ليس هكذا. من أمام لا. هو لا يستحق ذلك. من خلف.

رجل يلاحظ أنهم يتبعونه. يركض في الشوارع، يدخل في حجرة هاتف عمومي. كل الأرقام مشغولة أو لا ترد. من خلف الزجاج، يرى القتلة الذين ينتظرونه.

لماذا يعزّ علي كثيراً أن أذهب، على الرغم من التحذيرات والتهديدات؟ ألأنّني أحب هذا التوتر الخارجي، الذي يشبه توتري الداخليّ؟

4.

نعود إلى المنزل.

تطقطق النار في المدفأة.

نتكلم عن مهنتنا. الاحتفال باللقاءات، ألم الوداع: أليس صحيحاً أنّ الكلمات قادرة على أن تأخذك أحياناً إلى مكان ما عدتَ فيه؟ ألا يأكل المرء ويشرب، وهو يكتب، على طاولات أيٍّ مكان؟ ألا يدخل المرء في نساء أمس أو غدٍ؟ أمر جيد أن يعرف المرء ذلك، حين يكون خاسراً عنيداً للأوطان، وأبناؤه وأوراقه مبعثرة هنا وهناك.

يسألني هيكتور عن آرالدو. أقول له إننا لا نعلم عنه شيئاً. نتكلم عن آخرين سجناء وأموات ومطاردين: عن التهديدات ومحرمات الكلمات والروابط. إلى متى سيستمر الصيد؟ إلى متى الخيانة؟

نتحدث عن المجلة. هذا الأسبوع رفضت الرقابةُ عملاً لسانتياغو كوبادلوف. كان مقالاً ضد المخدرات، إدانة للمخدرات كأقنعة للخوف. قال إن المخدرات تولد شباباً محافظين. قررت الرقابة الاحتفاظ بالأصل. أخبرته بالهاتف. حين أغلق السماعة، رأى ديغيتو، الابنُ، على وجهه القلق. ما بك، سأله، وأجاب سانتياغو:

_ لا يسمحون لنا بالكلام. لا يدعوننا نقول شيئاً.

وقال له ديغيتو:

_ يحصل معي الأمر نفسه مع معلمتي.

5.

تكلمنا أيضاً عن الرقابة الخفيّة.

هل سيشك بيرغمان أو أنطونيوني بأن التضخم له علاقة باللاتواصل الإنساني؟ منذ العدد الأوّل، تضاعف سعر المجلة أربعين مرة. سعر الصفحة البيضاء هو دائماً أعلى من سعر الصفحة المطبوعة؛

وليس لدينا إعلانات تُعَوّضنا، بسبب من تشويش الشركات ووكالات الإعلان. لمن نقولُ القليلَ أو اللاشيء الذي يسمحون لنا بقوله؟ يُشبه هذا في كل مرة أكثر، يا هيكتور، حوار اثنين صامتين. والتهديدات، أليست شكلاً من أشكال الرقابة؟ حكم على المطبعة بأن تنفجرَ متحولة إلى مزق. من أناسنا، من ليس سجيناً أو ميتاً، ينام في سرير غريب وبعين واحدة.

6.

جلسنا لنأكل الدجاج الحار الذي طهته لنا إولاليا.

يحكي تشيتشي قصة رجل من إوماواكا تحالف مع الشيطان ليصبح غير مرئي.

يريحني الأكل على هذه الطاولة. أشارك الخبز والنبيذ، الذكريات والأخبار، كما في الأزمنة القديمة، عندما كانت المشاركة نَفَسَ الذين آمنوا.

7.

في صباح اليوم التالي، كان هيكتور بانتظاري في الأسفل.

أسير وأنا مازلت نائماً قليلاً.

_ سمعت نشرة الأخبار: يقول. عليّ أن أقدم لك نبئاً سيئاً، رغم أنك كنت تتوقعه. عثروا على جثتي ميتشيليني وغوتيريث رويث.

بوينس أيرس، أيار 1976: أفتح باب الغرفة حيث سأنام هذه الليلة

أنا وحدي. وأتساءل: هل يوجد نصف مني ينتظرني حتى الآن؟ أين هو؟ ماذا يفعل خلال ذلك؟

هل سيأتي الفرح متضرراً؟ هل ستكون عيناه مبلّلتين؟ إجابة وغموض في كل الأشياء: وماذا إن كنا قد تصادفنا من قبل وأضعنا بعضنا بعضاً حتى دون أن ندري؟

شيء عجيب: لا أعرفه ولكني أشتاق إليه. بي حنين لبلد لا وجود له حتى الآن على الخارطة.

يقول المثل القديم: خير لك أن تتقدّم وتموت من أن تتوقّف وتموت

1.

وصلوا في عدة سيّاراتٍ بيضاء، من النوع الذي تستخدمه الشرطة. جاؤوا مسلحين للحرب. نهبوا، دون عجلةٍ، خلال ساعة طويلة، منزلَ غوتيرّيث رويث. أخذوه وأخذوا كل شيء، حتى مجلات الفتيان. على بعد أمتار قليلة كان الحراس المسلحون لسفارات بلدان عديدة. لم يتدخل أحد.

بعد ساعتين، ذهبوا للبحث عن ثلمار ميتشيليني.

كان ميتشيليني، الذي احتفل في ذلك اليوم بعيد ميلاده، يعيش في فندق وسط مدينة بوينس أيرس. من هناك أيضاً أخذوا كل شيء. لم تنجُ حتى ساعات الأبناء. لم يضع القتلة قفازات، والبصمات بقيت في كل مكان. لم ينشغل أحد بالتمحيص عنها.

رفضوا في أقسام الشرطة تلقي الشكاوى، على الرغم من أن غوتيرّيث رويث كان رئيس مجلس نواب الأوروغواي، وميتشيليني كان مُشَرِّعاً لسنوات كثيرة. "ستكون إضاعةً للورق"، قال رجال الشرطة.

في اليوم التالي، صرح وزير الدفاع الأرجنتيني للصحفيين، دون أن يرفَّ له جفن: "إنها عملية أوروغوائية. حتى الآن لا أعرف إن كانت رسمية أم لا".

بعد فترة قال سفير الأوروغواي في جنيف، أمام لجنة حقوق الإنسان: "أما بالنسبة للصلات بين الأرجنتين والأوروغواي، فالصحيح أنّها موجودة. نشعر بالفخر بها. إنّنا متآخون في التاريخ والثقافة".

2.

قبل بضعة أشهر، كان غويتيريث رويث قد جاء إلى المجلة بابتسامة تمتدّ من الأذن إلى الأذن.

أتيت لأدعوك: كان قد قال لي. سنذهب في نهاية العام لاحتساء المتة معاً في مونتيفيديو. وكان ميتشيلين قد قال لي:

– ما الأسوأ، يا زميل؟ مونتيفيديو أم بونوس أيرس؟ يبدو أنه علينا الاختيار بين التعذيب والرصاصة في العنق.

أخبرني بأنهم يُهَدِّدونه بالهاتف. لم أسأله لماذا لا يذهب. مثل آلاف الأوروغوائيين، رفضوا منح ميتشيليني جواز سفر. ولكن لم يكن هذا هو السبب. لم أسأله لماذا لا يذهب لأنه لم يسألني لماذا لا أذهب أنا. يصفرُ الطفلُ بقوة حين يمر بباب المقبرة.

بوينس أيرس، حزيران 1976: تبتلعهم الأرض

اختفى رايموندو جليثير. القصة المعتادة. اقتادوه من منزله في بوينس أيرس ولا يُعْرَف شيءٌ أكثر من ذلك. كان قد أخرج أفلاماً لا تُغتفر.

كنتُ قد رأيته لآخر مرة في شباط. ذهبنا لنتناول العشاء مع أبنائنا، بالقرب من البحر. في آخر السهرة حدثني عن أبيه.

جاءت عائلة رايموندو من قرية على الحدود بين بولونيا وروسيا. هناك كل منزل كان عنده علمان مختلفان ليرفعهما وصورتان ليتم

تعليقهما، حسبما كانت تسير الأمور. عندما كان يذهبُ الجنود الروس، كان يأتي الجنود البولونيون، وهكذا. كانت منطقة حرب مستمرة وشتاء لا ينتهي وجوع أيضاً لا ينتهي. كان القساة والأشرار يبقون على قيد الحياة، وفي البيوت كانت قطع الخبز تُخبّأ تحت خشب الأرضية.

لم تكن الحرب العالمية الأولى نبأ جديداً بالنسبة لأيّ شخص من تلك المنطقة المعذّبة، ولكن الأسوأ ساءَ. كان الذين لم يموتوا يبدؤون يومهم بسيقان مرتخية وعقدة في المعدة.

وصلت في عام 1918 إلى المنطقة شحنة أحذية. كانت جمعية السيدات الخيرية قد أرسلت أحذية من الولايات المتحدة. جاء الجياع من كل القرى وتشاجروا على الأحذية بأسنانهم. كانوا لأول مرة يرون أحذية. ما من أحد كان قد استخدم أحذية في تلك المناطق. الأكثر قوة كانوا يغادرون راقصين من الفرح بعلبةِ الحذاء الجديد تحت ذراعهم.

وصل والد رايموندو إلى البيت، فك الخرق التي كان يلف بها قدميه، فتح العلبة وجرب الحذاء الأيسر. احتجت القدم ولكنها دخلت. الذي لم يدخل كان الحذاء الأيمن. دفعوه فيما بينهم جميعاً، ولكن دون جدوى. عندها لاحظت الأم أن كلا الحذاءين كانا ملتويين من الجانب ذاته. عاد مسرعاً إلى مركز التوزيع. لم يبق أحد..

وبدأت مطاردة الحذاء الأيمن.

مضى والد رايموندو خلال أشهر، من قرية إلى قرية، باحثاً.

بعد أن سار وسأل كثيراً، وجد ما كان يبحث عنه. في قرية قصيّة، وراء التلال، كان الرجل الذي يستخدم قياس الحذاء ذاته والذي كان قد أخذ الحذاءين الأيمنين ووضعهما لامعين على رف. كانا الزينة الوحيدة في المنزل.

قدّم والد رايموندو الحذاءَ الأيسر.

– آه، لا: قال الرجل. إذا كان الأميركيون قد أرسلوه هكذا، فهكذا ينبغي أن يكون. هم يعرفون ما يفعلون.

بوينس أيريس، حزيران 1976: حرب الشوارع، حرب الروح

هل أنطوي أم أنفتح؟ هل أحذف الآخرين أم أناديهم؟ الوحدة احتيال. هل سآكل قيئي مثل الجمل؟ أي خطر يخوض المستمني؟ على أكثر تقدير يُجهد معصمه.

الحقيقة هي الآخرون: فرح وخطر. أستدعي الثيران، أتحمل انقضاضها. أعلم أنّ هذه القرون المتوحشة يمكنُ أن تشق فخذي.

عن هذه الأمور أتحدث، في الليالي الطويلة، مع سانتياغو كوبالدوف. وفي رسائل طويلة مع إيرنستو غونثاليث بيرميخو.

النظام

يهاجر علماء أمريكا اللاتينية، المخابر والجامعات لا تملك الموارد، والمعرفة الصناعية هي دائماً أجنبية وباهظة الثمن، ولكن، لماذا لا نعترف ببعض فضائل الإبداع في تطوير تقنية الرعب؟

من بلادنا، يقدم أسياد السلطة مساهمات كونية في تطوير أساليب التعذيب وتقنيات اغتيال الأشخاص والأفكار وثقافة الصمت و مضاعفة العجز وزراعة الخوف.

أنا لم أكن قد سمعت أبداً الحديث عن التعذيب

منذ خمسة عشر عاماً، عندما كنت أعمل في الصحيفة الأسبوعية مارتشا، أجريت مقابلة مع قائدٍ طلاّبيٍ من الجزائر. كانت الحرب

الاستعمارية قد انتهت في تلك الأيام. لوى الجزائري فمه حين طلبتُ منه أن يتحدّث عن نفسه. ولكن على طول الساعات بدأت تسقط الحواجز اللامرئية وحكى لي قصته، دموع انتصار شرسة بعد سبع سنوات من القتال. كان قد عُذِّب في ستي أمزيان. ربطوه بسرير معدني من معصميه وكاحليه وصعقوه بالعصا الكهربائية.

_ يشعر المرء بأن قلبه يذهب ودمه يذهب، كل شيء يترنَّح ويذهب.

وضعوه بعد ذلك في المغطس.

أطلقوا على رأسه طلقات وهميّة.

ثمانية ضباط اغتصبوا زميلته أمام عينيه.

في ذلك الوقت أنا لم أتوقع أنّ التعذيبَ سيصبح عادة وطنية. لم أكن أعرف، قبل خمسة عشر عاماً، بأنّه سيحدثُ في سجون وثكنات بلدي العسكرية انقطاع في التيار الكهربائي لشدة الإفراط في استخدام الكهرباء.

الناجي على طاولة المقهى

ذات مرة في مونتيفيديو، كنت آكل فاينا وأشرب البيرةَ في مقهى زاوية أونيبرسيداد (الجامعة)، عندما رأيت ريني زاباليتا قادماً.

كان ريني نحيلاً جداً، وصلَ توّاً من بوليفيا، وكان يتكلم بدون توقف.

كانت ديكتاتورية بارينتوس قد سجنته في ماديدي، وهو حصن عسكري ضائع وسط الأدغال. في الليل، أخبرني ريني، أنه كان من الممكن سماع الفهود وقطعان الخنازير، التي كانت تتقدم ككارثة. كان

الهواء دائما ثقيلاً من الحر ومُعتماً من البعوض، وكان النهر خطيراً بسبب أسماك الشفنين والبيرانا. ولكي تدخل الأكواخ كان عليك أن تقتل الخفافيش بالعصي. كان السجناء السياسيون يتلقون، كلَّ يوم، حفنةً من القمح ونصفَ موزة. للحصول على طعام أكثر كان يجب الركوع لغسل قدمي العريف..

الجنود الذين كانوا في مديدي مُعاقبين، كانوا يمضون الوقت ناظرين إلى السماء بانتظار طائرة لم تصل مطلقاً. كان ريني يكتبُ رسائلَ حبّ على الطلب. لم يكن هناك من طريقة لإيصالها إلى الحبيبات، ولكن الرسائل التي كان ريني يكتبها للجنود كانت تعجبهم وكانوا يحتفظون بها وبين الفينة والأخرى يطلبون منه أن يقرأها لهم.

ذات يوم حطّم جنديان بعضهما باللكمات. تقاتلا حتى الموت بسبب الغيرة من بقرة كان لها اسم امرأة.

بعدها حكى لي ريني قصّةً حدثت لصديق في سنوات حرب تشاكو.

النظام

1.

فتى أمريكي لاتيني مشهور يفشل في سرير عشيقته. "الليلة الماضية شربت كثيراً"، يعتذر وقت الإفطار. في الليلة الثانية عزا الأمر للتعب. في الليلة الثالثة يغير عشيقته. بعد أسبوع يستشير الطبيب. بعد شهر يغير الطبيب. ولاحقاً يبدأ بالتحليل النفسي. تجارب مغمورة أو محذوفة بدأت تظهر، جلسة بعد جلسة، على سطح الوعي. ويتذكر:

1934. حرب تشاكو. ستةُ جنودٍ بوليفيين، هاربون من الجبهة، يجوبون المرتفعات. إنهم الناجون من مفرزة جنود مهزومة. زحفوا في السهول العارية دون أن يروا أي روح أو يذوقوا لقمة واحدة. هذا الرجل هو واحد من هؤلاء الرجال.

ذات ظهيرة يكتشفون فتاةً هنديّةً حمراءَ صغيرة تقود قطيع ماعز. يلاحقونها، يدحرجونها، يغتصبونها. يلجونها الواحد تلو الآخر.

يأتي دور هذا الرجل، الذي هو الأخير. عندما يرتمي فوق الهندية ينتبه إلى أنها لم تعد تتنفس.

يشكل الجنود الخمسة دائرة حوله.

يثبتون بنادقهم في ظهره.

وعندها، بين الرعب والموت، هذا الرجل يختار الرعب.

2.

تلتقي مع ألف قصة وقصة من قصص الجلادين.

من يعذبون؟ خمسة ساديون، عشرة بلهاء، خمسة عشر حالة سريرية؟

يعذبون الآباء العائلات الجيدين.

يكمل الضباط دوامهم وبعدها يشاهدون التلفاز مع أبنائهم. ما هو فعّال هو جيد، هكذا تُعلِّم الآلة: التعذيب فعال: ينتزع معلومات، يُحطِّم الضمائر، ينشر الخوف. يولد ويتطور تواطؤٌ لقدّاس أسود. من لا يُعذِّب يُعذَّب. لا تقبل الآلةُ بريئين ولا شهوداً. من يرفض؟ من يستطيع الحفاظ على يديه نظيفتين؟ المسنن الصغير يتقيأ لأول مرة. في المرة الثانية يضغط على الزبائن. في المرة الثالثة يتعود ويكمل واجبه. يمر الوقت وتأمُّلُ المسنن يتكلم لغة الآلة: قلنسوة، عصا كهربائية، غواصة، فخّ، خشبة تثبيت الرأس واليدين للتعذيب، الحامل

الخشبي. تتطلب الآلة الانضباط. الأكثر موهبة ينتهي بهم المطاف بإيجاد المتعة فيه.

إذا كان الجلادون مرضى، فماذا نقول عن الأنظمة التي تجعلهم ضروريين؟

النظام

الجلادُ موظَّف. الديكتاتورُ موظفٌ. بيروقراطيون مسلحون يفقدون وظائفهم إن لم يُنَفِّذوا مهمتهم بكفاءة. هذا، ولا شيء غير هذا. ليسوا وحوشاً استثنائيين. لن نهديهم هذه العظمة.

مدخل إلى القانون

كان قد أتى من بوينس أيرس ولا يزال دخيلاً في خوخوي، على الرغم من أنه كان متآلفاً مع المكان على مر السنين والأعمال. ذات يوم سيء، كان شارداً ودفع شيكاً بدون رصيد ثمن تصليح عجلة السيارة. تمت محاكمته وإدانته. طردوه من الوظيفة. كان أصدقاؤه يغيرون طريقهم حين يرونه قادماً. لم يعودوا يدعونه إلى أي منزل ولا يدفعون عنه ثمن المشروب على أي طاولة.

ذات ليلة، في وقت متأخر، ذهب ليقابل المحامي الذي دافع عنه في المحاكمة.

– لا، لا: قال له. الاستئناف، لا أعرف أنه لا يمكن عمل شيء. دعك منه فقط. جئت لأودعك وأعانقك قبل الأعياد. ألف شكر على كل شيء.

فجر ذاك اليوم، قفز المحامي في السرير. أيقظ زوجته بهزة واحدة:

– تمنّي لي أعياداً سعيدة وما زال هناك شهران للأعياد.

ارتدى ملابسه وركض. لم يجده. عرفوا في الصباح: لقد فجّرَ الرجلُ رأسه برصاصة.

بعد وقت قصير، شعر القاضي الذي بدأ محاكمته بألم غريب في ذراعه. التهمه السرطان في غضون أشهر. المدعي العام الذي أقام الدعوى القضائية قتلته ركلة حصان. الذي حل محله فقد أولاً صوته، ثم نظره، ثم نصف جسمه. سيارة سكرتير المحكمة اصطدمت في الطريق واشتعلت.

محامٍ كان قد رفض التدخل في القضية استقبل زبوناً مغبوناً، أخرج مسدسه وفجر فخذه.

أخبرني إيكتور هذه القصة في يالا، وأنا فكرت في قتَلَةِ غيفارا.

كان ريني بارينتوس، الديكتاتور، قد أعطى الأمر بقتله. انتهى بعد سنة ونصف ملفوفاً بلهب طائرته المروحية. كان العقيد ثنتينو أنايا، رئيس القوات التي حاصرت وألقت القبض على التشي في نيانكاواثو، قد نقل الأمر. بعد فترة طويلة تدخل في مؤامرات. علم الديكتاتور المناوب بالأمر. سقط ثنتينو أنايا مثقّباً بوابل من الرصاص في باريس، ذات صباح ربيعي. كان قائد الحرس أندرس سيليتش قد أعدّ إعدام التشي. في العام 1972، قتل سيليتش بضربات موظفيه، الجلادين المحترفين في وزارة الداخلية. ماريو تيران، رقيب، نفذ الأمر. هو أطلق الرشقة الآلية على جسد غيفارا الممدد في مدرسة إيغيرا. تيران موجود في مأوى للمحتاجين: يُرّيل ويجيب بهلوسات. كان العقيد كينتانيا قد أعلن للعالم موت التشي. عرض الجثة على مصورين وصحفيين. مات كينتانيا بثلاث رصاصات في هامبورغ، عام 1971.

بوينس أيرس، أيار 1676، ظهيرة

اتصل بي كارليتوس. كان يملك ساعتي فراغ أو أكثر قليلاً.

التقينا في زاوية شارع. اشترينا نبيذاً لم نكن نعرفه، نبيذَ سانتا إيزابيل: بدا لنا لطيفاً ذلك العجوز الذي نصحنا به في المخزن، مطقطقاً بلسانه.

صعدنا لنأكلَ في شقة مستعارة. كانت شقة بفسحة واحدة. كانت الشراشف مرمية على الأرض وكان هناك فوضى عامة لطيفة. أعجبتني الرائحة.

– هنا تعيش امرأة: قلتُ. وهي امرأة طيبة.

– نعم: قال كارليتوس. إنها ساحرة للغاية.

حكى لي أن الطبيب كان قد قال إنها لا تستطيع أن تُولَدَ. ذات فجر عقدت الأم ميثاقاً مع النجوم. ولِدَت بصحة جيدة وفي يوم مجيئها إلى العالم ماتت البقرات.

كان النبيذ بالنتيجة ممتازاً. قوياً وجيداً كي يبقي عليه المرء في فمه.

تحادثنا وأكلنا.

بعد ذلك ذهب كارليتوس إلى العمل. اتفقنا على أن نلتقي في نهاية الأسبوع في بيت فيكو الريفي.

كان لدي بعض الوقت الفائض فبقيت أتجول هناك. نمت في مرجٍ وشمس الخريف في وجهي.

حين استيقظت، كان هناك فيلان يأكلان العشب بجواري.

كُتب على الجدار، قيل في الشارع، غُنّي في الحقول

1.

لم تكن الثقافة تنتهي، بالنسبة لنا، بإنتاج واستهلاك الكتب واللوحات والسيمفونيات والمسرحيات. بل إنّها لا تبدأ هناك. كنا

نفهم الثقافة على أنّها إبداع لأيّ فضاء لالتقاء الأشخاص، وكانت ثقافة، بالنسبة لنا، كل رموز الهوية والذاكرة الجمْعِيّة: شهادات بمن نكون، نبوءات الخيال، الوشايات التي تمنعنا أن نكون. لهذا السبب نشرت كريسيس، بين القصائد والقصص والرسومات، تقارير عن التعليم الكاذب للتاريخ في المدارس، وعن مداخل ومخارج الشركاتِ متعددةِ الجنسيات التي تبيع سيارات وإيديولوجيات أيضاً. لذلك أدانت المجلة نظامَ القيم الذي يُقَدّس الأشياء ويحتقر الناس، ولعبة المنافسة والاستهلاك الخبيثة، التي تدفع الأشخاصَ لاستخدام بعضهم بعضاً وسحق بعضهم لبعضهم الآخر. لذلك كنا نهتم بكل شيء: مصادر القوّة السياسية لملاكي الأراضي والاتفاق النفطي ووسائل الأعلام...

2.

كنّا نُريد أن نتحدّث مع الناس، أن نُعيد إليهم الكلمة: الثقافةُ تواصلٌ أو لا-شيء. كنّا نعتقد أنّه كي تصبح الثقافة غير خرساء، فإن على الثقافة الجديدة أن تبدأ بأن لا تكون خرساء. نشرنا نصوصاً عن الواقع، ولكن أيضاً، وبالمقدار ذاته أو أكثر قليلاً، نصوصاً من الواقع. كلمات مأخوذة من الشارع، من الحقول، من المناجم، قصص حياة، أغانٍ شعبية:

يغنّي السكان الأصليون لألتو بارانا احتضارهم ذاته، هم الذين حصرتهم في زاوية الحضارةُ التي تحولهم إلى عبيد المزارع أو التي تقتلهم بانتزاع منهم أراضيهم:

أنت ستراقب منبع الضباب الذي يولد الكلمات الملهمة. أولئك الذين تخيلتهم في وحدتي، اجعل أطفالك يراقبونهم، الجاكاريون ذوو القلب الكبير. اجعلهم يُسَمَّون، "أسياد الضباب لكلماتك الملهمة".

يكتب السجناء السياسيون رسائل:

سأحكي لك أشياء عن النوارس كي لا تعود وتقرنها بالحزن.

أيادٍ مجهولة تكتب على جدار من جدران أرصفة بحر بلاتا:

أبحث عن المسيح ولا أجده. أبحث عن نفسي ولا أجدني. ولكني أجد جاري، ومعاً نذهب نحن الثلاثة.

من مستشفى المجانين، يسافر الشاعر إلى الأقاليم السرية:

كنت نائماً في البحر. كنت أمشي على المياه وناديته: يا لوترِيامون، لوترِيامون، قلت له. وهو أجابني بأنه يحبني. بأننا سنكون أصدقاء الآن في البحر، لأننا نحن الاثنين كنا قد عانينا على البر.

يروي أطفال مدارس ضواحي مونتيفيديو احتلال أمريكا:

- أتيت لأُضّرَ. انظر كم هو جميل قاربي .

- أنا لا أريد: أنا لي بيت وعائلة وأكسب جيداً.

- لكن الأفضل هو ما أقوله لك، هكذا تستطيع أن تتكلم مثلي.

- دعك من إزعاجي واتركني وشأني.

يشرحُ عاملٌ في مصنع علاقته بالشمس:

حين تدخل إلى العمل يكون الوقت ليلاً وحين تغادر، تكون الشمس قد بدأت بالغياب. لذلك عند منتصف اليوم يحصل الجميع على خمس دقائق ليروا الشمس في الشارع، أو في باحة المصنع، لأنك لا ترى الشمس في العنبر. يدخل الضوء ولكنك لا ترى الشمس أبداً.

بعد وقت قصير من الانقلاب، أصدرت الحكومة العسكرية قوانين جديدة لوسائل الإعلام. حسب قانون الرقابة الجديد، يمنع نشر التقارير الصحفية من الشارع والآراء غير المتخصصة حول أي موضوع.

تمجيد الملكية الخاصة. لم يكن للأراضي والمصانع والبيوت والناس ملاّك فقط: أيضاً كان للمواضيع ملاّكها. احتكار السلطة والكلمة حكمت بالصمت على الإنسان العادي.

. كانت تلك نهاية كريسيس. قليل ما كان باستطاعتنا فعله، وكنا نعلم ذلك.

يغني طائر الفرنار، مسروراً لوجود طين للعش

1.

– الواحد منّا أعمى: قال كارليتوس.

يمضغ ساق برسيم.

كنا مُستلْقين على العشب، بعيداً عن الآخرين. الشمس البيضاء بالكاد تمنحنا دفئاً.

ساعدنا ماتياس على تحضير الأضلاع المشوية على الفحم. كنا قد أكلنا والناس يدردشون في مجموعات.

كان كارليتوس قد أمضى حياته، حكى لي، متهرباً من أحبائه. عندما اكتشفَ والدتهُ، حين رآها لأول مرة، كانت فتاة صغيرةً مستلقية على السرير ولا تقول غير جمل متقطّعة عن أشياء مضحكة أو مجنونة. لم تنهض بعدها قط.

– الواحد منّا أعمى: قال كارليتوس. يتنبأ أحياناً. فقط أحياناً.

2.

في الليل، طبق سمبوسك كبير. حكى سارلانجا، مؤلف الروائع، نكباته في ملعب بوكا، يومَ الأحد الفائت. كان الحشد قد ابتلع فردةَ حذاءه وعاد في مترو الأنفاق إلى المنزل، بقدمٍ حافية ووجهٍ جدي.

يتذكر آتشابال قصصاً عن العجوز خاوريتشي، الحكيم والداهية، الذي عرف كيف ينصح سيداً بملابس لامعة وفاقعة الألوان بحداد.

كثيراً ما كانوا يقطعون عليّ ضحكتي ونظرتي إلى فتاة تدعى إيلينا. أعجبتني طريقتها بالأكل باستمتاع.

بقيت معنا طوال عطلة نهاية الأسبوع، ولكنّني في ساعة العشاء اكتشفتُ وجهَ الهنديّة الذي كان سيكيروس سيودّ رسمه. رأيتُ نورَ تلكما العينين الخضراوين الطافح، ورأيتُ أيضاً دموعهما الجافة، شموخ وجنتيها، فمها الأنثوي جداً المُعلَّم بندبة: امرأة كهذه يجب أن تكون محرمة، فكّرْتُ، بدهشة. لم أكن أعرف حينها أن رصاصة داعبت خدها، ولكن ربما انتبهتُ إلى أنّه لا يمكن لأي خدشٍ مخلبٍ قاتل تشويهها.

بعد لعبنا بالورق، هي راهنت حتى آخر حبة حمّص. ربحت. عندها دفعت بكل ما لديها نحو منتصف الطاولة. وخسرت. لم تتحرك فيها عضلة.

مشينا معاً، في برد الليل القارس. كان القمر الباهت يسمح برؤية حركاتِ رواحٍ وغدوٍّ رؤوس الأشجار، أمواج بطيئة، وكانت الأشجارُ حيّةً، كانت متواطئة، والعالم يدور ناعماً تحت أقدامنا.

– هذا جيد ونظيف: قلتُ أو قالَتْ.

في الليلة التالية أمطرت بغزارة في بونوس أيرس. لم نكن معاً. قضينا الليلَ ساهرين، تحت سقفين مختلفين، في حيين مختلفن، نستمع إلى المطر ذاته. واكتشفنا أننا لا نستطيع أن ننام مُنْفَصِلَيْن.

التقت بنا الموسيقى. الموسيقى التي أرخاها الحبُّ، تمطّت وانزلقت في الهواء، من غرفة إلى غرفة، والتقت بنا، تحليق سهم متكاسل في الهواء، موسيقى آسا برانكا: كان إيريك يعزف في مكانٍ ما من المنزل

على الهارمونيكا لابنه فيليب، ووصل اللحن إلى حيث كنا في اللحظة المناسبة التي كنتُ أقولُ لكِ أو تقولين لي فيها، بأن بقاءنا أحياء يستحق العناء.

جسدي نما ليعثر عليكِ، بعد كثير من المشي والسقوط والضياع هناك. ليس الميناء، بل البحر: المكان الذي ستنتهي إليه كل الأنهار وحيث تبحر السفن والقوارب.

4.

منع تجوّل، حرب إبادة، مدينة محتلة. كنا ننام كل مرة في سرير مختلف. كنا نحذر، نقيس الخطواتِ والكلمات.

ولكن ذات ليلة، إلى الآن لا أعرف كيف، وجدنا أنفسنا نغني ونرقص في الطريق، أمام أكبر ثكنة في بوينس أيرس. إيريك، بطل التنس الذي كان يخسر دائماً، كان يدور كدوامة؛ آتشا والغوردو يثبان متعانقين ويطالبان بترشيح بيثنتي إلى حكومة جميع الإمبراطوريات، الملكية والجمهورية؛ بيثنتي يدور ويقفز ويكسر ساقه صارخاً كم هي جميلة الحياة. أنا وإيلينا نحتفل بذاتنا كما لو في عيد ميلاد.

الأنوار الكاشفة حددت موقعنا من برج الثكنة. رفع الحارس السلاح ورمش: من هؤلاء المجانين المتنكرين الذين يرقصون في الشارع؟ ولم يطلق النار.

أحلام

استيقظتِ، مضطربة، في منتصف الليل:

– حلمتُ حلماً فظيعاً. سأحكيه لك غداً، حين نكون أحياء. أريدُ أن يصير الغد الآن. لماذا لا تجعل الآنَ غداً؟ كم أتمنى لو أن يصير الغد الآن.

هل ستسمح لنا الذاكرة بأن نصبح سعداء؟

كان هناك لحظة بدأ فيها الألم، ومذّاك لم يتوقف أبداً، كان يأتي حتى ولو لم تدعه، ظِلّ جناحِ غراب يكرر في أذنك: "لن يبقى أحد. لن يبقى أحدٌ حياً. كثيرة هي الأخطاء والآمال التي يجب دفع ثمنها".

لاساراثينا خلعت الخرقةَ التي كانت تُغَطي جسد أخيك تين، في قرطبة، وبينما كانت تشكو من الحر ومن العمل الكثير لوت وجهه كي تستطيع أن ترى ثقب الطلق الناري. لم تنتبهي إلى الدموع حتى لمستِ الجلد الرطب.

عندما درزوا جسدَ ردولفو بالرصاص، أصابت الرصاصة الأولى فمك. انحنيتِ فوق جسده ولم يكن لديك شفتان كي تقبليه.

بعد ذلك...

راحوا يسقطون، الواحد تلو الآخر، الأحبّة، ذنبهم العمل أو التفكير أو الشك أو لا شيء.

وصل ذاك الفتى ذو اللحية والنظرة الحزينة إلى جنازة سيلفيو فرونديثي باكراً جداً، عندما لم يكن هناك أحد. ترك على النعش تفاحة حمراء ولامعة. رأيتِهِ يترك التفاحة ويمضي بعيداً.

بعد إذن عرفتَ بأن ذاك الفتى كان ابن سيلفيو. كان الوالدُ قد طلب منه التفاحة. كانوا يأكلون ظهراً وهو نهض ليأتيهِ بالتفاحة حين اقتحم القتلة عليهم المكان فجأة.

بوينس أيرس، تموز 1976: رحلة طويلة دون أن نتحرك

إيقاع رئتي المدينة التي تنام. بردٌ في الخارج.

فجأة يخترق دويّ النافذة المغلقة. غرزتم أظافركم في ذراعي. لا أتنفس. سمعنا جلبة ضربات وشتائم وعواءَ صوتٍ بشري، طويلاً.

ثم ، صمت.
_ ألا أثقل عليك؟
عقدة بحّار.
جماليات وإغفاءات أقوى من الخوف.
حين تدخل الشمس، أرمش وأتمطّى بأربعة أذرع. لا أحد يعرف من هو صاحب هذه الركبة، ولا لمن هذا الكوع أو هذه القدم، وهذا الصوت الذي يهمس صباح الخير.
عندها يفكر الحيوان ذو الرأسين أو يقول أو يودّ:
_ أناس يستيقظون هكذا، لا يمكن أن يحدث لهم سوء.

الكون مشاهداً من ثقب الباب

في ذلك الوقت كان كلٌّ شيء هائلاً. كلٌّ شيء: المنزل الحجري في القمة، طريق القرطاسية، الرجال الذين كانوا يعودون في طريقهم إلى المنزل، عند هبوط الليل. كانت تنمو في الجوار الثمار البرية وكان التراب أحمر يُشتهى عضّه.
كنتَ تنزل إلى المدينة لترافق الجدّةَ ديادامیا إلى قداس الساعة السادسة. كان للباحات والأرصفة، المرصوفة حديثاً، رائحة صيف منعشة.
كانت الجدّةُ ديادامیا تحتفظ في درجها، بصرر أبنائها العشرة ملفوفة في مناديل مطرزة.
_ العري يأتي من بوينس أيرس _كانت تقول- عندما كنتم تعودون من العاصمة بقمصانٍ بأكمام قصيرة. لم تكن الجدّة ديادامیا قد تلقّت قط شعاع شمس واحدٍ على وجهها كما لم ترفع قط يداً على يد.
كانت الجدّة تقول جالسة في الظل، على الكرسي الهزاز، واضعة يداً على يد:

_ أنا هنا، موجودة.

كانت يدا الجدّة ديادامبا شفافتين زرقاوي الشرايين وصغيرتين وأنيقتي الأظافر جداً.

الكون مشاهداً من ثقب الباب

سرقتِ زنبقةً من بائع الأزهار. استنشقتِ رائحتها بعمق. عبرت الفناء وقيظَ الصيف، بخطى بطيئة، رافعة الزنبقة العالية بقبضتك. كان بلاط الفناء الرطب سعادة للقدمين الحافيين.

وصلت إلى صنبور الماء، لتفتحيه، صعدت على مقعد. نزل الماء على الزهرة وعلى يديك وأنت شعرت بأن الماء ينزلق على جلدك كله وأغمضت عينيك، دائخة من سرور غامض، وعندها مرّ قرن.

– سقطت مني الأفكار يا أمي – شرحت لاحقاً، مشيرة إلى القضبان في الأرضية–. سقطت مني وذهبت بعيداً.

بوينس أيرس، تموز 1976، حين لا تستطيع الكلمات أن تكون أكثر وقاراً من الصمت، فالصمت أفضل.

.1

نحن مجبرون على أن نُسلّم بروفات ألواح الطباعة وصفحات المجلة في لا كاسا روسادا. هذا لا ينفع. ولا هذا: يقولون لنا.

هكذا كان آخر اجتماع مع العسكريين: كنا قد ذهبنا أنا وبيثنتي.

بعد نقاش لمدة ساعة حول مواد المجلة، تحدثنا عن أراودو كونتي.

– إنه محرر في مجلة كريسيس: قلنا. وقد خطفوه. لا يُعرف شيء عنه. أنتم تقولون لنا إنه ليس معتقلاً وليس للحكومة أي علاقة بالأمر.

لماذا لا تسمحون لنا بنشر الخبر؟ يمكن للمنع أن يؤدّي إلى تفسيرات ملتوية. أنتم تعرفون أن في الخارج أناساً سيئو التفكير يمكن أن...

– هل لديكم أي شكوى منا؟ سألنا النقيب. عاملناكم دائماً باحترام. استقبلناكم، استمعنا لكم. لذلك نحن هنا وهذه هي وظيفتنا في الحكومة. ولكن نحذركم: هذا البلد في حالة حرب، وإن وجدنا أنفسنا في حالة حرجة، فستختلف المعاملة جداً.

لمست ركبة زميلي.

– هيا بنا يا بيثنتي، لقد تأخّر الوقت: قلت له.

مشينا ببطء في ساحة مايو.

وسط الساحة وقفنا لفترة طويلة دون أن ننظر إلى بعضنا. كان هناك سماء صافية وصخبُ ناسٍ وحمام. وكانت الشمس تنتزع وميضاً من زنجار القبب النحاسية.

لم نتكلم.

دخلنا مقهى لنحتسي كأساً، ولا أحد منا تشجع ليقول شيئاً.

ـــ هذا يعني أنّ آرولدو ميت، أليس كذلك؟ خوفاً من أن يقول الآخر:

ـــ نعم.

2.

لم تعد المجلة تعمل.

في الصباح أجمعُ الزملاء وأُكلّمهم. أريد أن أظهر قويّاً وأن أنطق بآمال، ولكن الحزن كان يرشح من مساماتي. أُوضّح بأنّني لا أنا ولا فيكو ولا بيثنتي اتخذنا القرار؛ الظروف هي التي اتخذته. لا نقبل الذل خاتمةً للمغامرة الرائعة التي جمعتنا خلال أكثر من ثلاث سنوات. لن يطأطئ أحد رأس كريسيس: سندفنها واقفة كما عاشت.

3.

أُفرغ أدراج المكتب المليئة بأوراق ورسائل لي. أعيد عشوائيّاً قراءةَ كلماتِ نساءٍ أحببتهن ورجال كانوا إخوتي. أداعب بإصبعي الهاتف الذي نقل إليّ أصواتاً صديقةً وتهديدات.

هبط الليل. غادر زملائي منذ ساعتين أو منذ أشهر. أسمعهم، أراهم؛ خطواتهم وأصواتهم، النور الذي كان يشع من كل واحد منهم والدخان الذي يتركه حين يغادر.

4.

كذلك كانت الأمور في صحيفة إيبوكا اليومية، في مونتيفيديو، أيضاً. يدخل المرءُ في مكتب تحرير الفتية تلك فيشعر بأنه محتضن، حتى ولو لم يكن هناك أحد.

لقد مرت عشرُ سنوات أو لحظة. كم من القرون تشكّلُ هذه اللحظة التي أعيشها الآن؟ كم هواء في الهواء الذي أستنشقُ؟ سنوات مضت، أهواء مضت: أعوام وأهواء محفوظة بداخلي، وبدءاً منّي تتضاعف حين أجلس وأضع قبعة الساحر أو قبعة القبطان أو أنف المهرج وأضغط على قلم الرصاص وأكتب. أكتب، أي أتكهن، أي: أبحر، أستحضر. هل سيأتون؟

مشهد رث، سفينة، سيرك مسلح نشأتَ له. كنا نعمل في الصحيفة من أجل الإيمان الذي كان يفيض عنّا، ما من أحد كان يقبض شيئاً. بين الحين والآخر كانت تجيء فتاة لتعطينا حقناً للكبد وفيتامينات.

كنّا في مقتبل العمر وبنا رغبة كبيرة بالعمل والقول: كنا سعداء وأشدّاء، كنا مؤثرين.

بين حين وآخر كانت الحكومة العليا تغلق لنا المجلة ويأتي علينا الصباح في مقر الشرطة. كنا نتلقى الخبر بارتياح أكثر منّا

باستياء. كل يوم من دون أن تصدرَ المجلة، كان يوماً لجمع المال والصدور في اليوم التالي. كنا نذهب إلى مقر الشرطة، مع أندرس كولتيلي ومانريكي سالبارّي، وعند وصولنا إلى الباب يودّع أحدنا الآخر تحسباً.

هل ستصدر اليوم ؟ لم نعرف قط. كان يحل منتصف الليل والوكالات قد سحبت أجهزة التلكس لعدم التسديد؛ وقطعوا الهاتف؛ والمذياعُ الوحيد سقط وانكسر. الآلات الكاتبة ليس فيها أشرطة حبر، وكنا نخرج في الثانية صباحاً لنبحث عن بكرات الورق. كانت مسألة أن نطلّ من الشرفة وننظر إلى مأساة عاطفية هناك في الزاوية، لكن أيضاً لا يتبقّى لدينا أفلام للتصوير. بل وحدث حريق دمّر لنا آلات الورشة. ورغم ذلك، كانت أيبوكا تظهر، لا أعرف كيف، كل صباح في الشارع. هل هذا برهان على وجود الله أم على سحر التضامن؟

كان ينقصنا عمر لنتوب عن السعادة. في الثالثة صباحاً، عندما كنّا ننهي المهمة، نفتح فسحةً بين مكاتب التحرير ونلعب كرة القدم بكرة من ورق. أحياناً كان الذي يقوم بدور القاضي يُشرى بصحن عدس أو بسيجارة تبغٍ أسود، وعندها كانت تتطاير اللكمات إلى أن يصعدوا من الورشة بالنسخة الأولى من الصحيفة، تفوح منها رائحة حبر، وتعلوها آثار الأصابع، وقد خرجت توّاً من فم المطبعة. هذا كان ولادة. بعدها كنا نذهب متعانقين إلى الكورنيش، لننتظر الشمس. كان هذا طقساً.

من يستطيع أن ينسى هؤلاء الشباب الجميلين؟ ألا أتعرف على ذلك النبض، ذلك الصوت، في ناسي الآن؟ أتفيد بشيء ذاكرتي؟ أردنا كسر آلة الكذب... الذاكرة: سُمّي، طعامي.

"الهجرة تطير - يقول الشاعر - في العصفور الذي يغادرها"

1.

ذات مساء، في مونتيفيديو، في صيف عام 1960 أو 1961 ، اكتشفت أنني لم أعد أستطيع تحمل ذلك الرجل الذي كان في كل يوم يضع ربطة عنق ويرتدي سترة حزيرية في الساعة المذكورة، يعد الأوراق النقدية ويبدّل ويوزّع صباحات خير بأسنان مطبقة. أغلقت الصندوق وأنجزت قائمة الرواتب ووقعتها وقلت لمدير البنك:

– سأذهب.

وهو قال لي:

– لم يحن الوقت بعد.

وأنا قلت له:

– سأذهب إلى الأبد.

ذهبت إلى بوينس أيرس للمرّة الأولى.

كنتُ في العشرين من عمري. أعرف القليل من الناس في بوينس أيرس، لكنني فكرت أنني أستطيع تدبر أمري.

في البداية عاملتني (بابل) بشكل سيء جداً. شعرت بأنني وحيد ومحاصر بالغوغاء والحر وقلة المال.

عملت فترة في مجلة، إلى أن ذهبنا ذات يوم اثنين إلى التحرير، مع تشيكيتا كونستينلا و بابلو غيوساني، ووجدنا المبنى محاطاً بالعسكر. كان زمن إضراب السكك الحديدية. أشعل العمّالُ عربات القطار ولم يبدُ ذلك أمراً سيئاً للمجلة. هوى الجنود بالباب.

بقيتُ أسبوعاً دون أن أرى أحداً، مدفوناً في فندق صغير، حيث لم يكونوا يطلبون هويّات ولا يطرحون أسئلة. كنت أتقلب في السرير ليلاً نهاراً، وصرت حساء من العرق والحزن، غير قادر على إغماض عينيّ بسبب الصراخ وإطباق الأبواب والأزواج الذين يتأوّهون حبّاً عبر الجدران.

2

منذ تلك الفترة الأولى في بوينس أيرس، انطبعت في ذهني صورة لا أعلم إن كنت عشتُها أم حلمتُ بها ذات ليلة سيئة: الحشد مضغوط في محطة مترو أنفاق، الهواء لزج، شعور بالاختناق ولم يأتِ المترو. مضى نصف ساعة، ولربما أكثر، عندها عُرِف بأن فتاة كانت قد قفزت إلى سكة المحطة التي قبلها. في بادئ الأمر ساد صمت، علت تعليقات بصوت منخفض كما لو في مأتم: "مسكينة، مسكينة": قالوا. لكن المترو لا يظهر، وتأخر الوقت للوصول إلى العمل، حينها بدأ الناس يرفسون الأرض، غاضبين، ويقولون: "لماذا لم يخطر ببالها أن ترمي بنفسها في خط مترو آخر؟ هل كان ضرورياً أن يحدث هذا في هذا الخط بالذات؟"

عبرت النهر وأقسمتُ ألاّ أعود. لكنّني عدتُ مراتٍ كثيرةً. في بدايات الـ 1973، كلفني فيكو بوغيليوس بإدارة مجلة كانت ستُسمّى كريسيس (أزمة).

في أواسط العام 1976، لم يبق حلّ آخر سوى الرحيل.

لم يكن الأمر سهلاً. المدينة التي عرفت في أوقات أخرى كيف أكرهها، دعتني بأخطار وأفراح وحب. كم من الناس أظلّت أشجار الماغنوليا في ساحة فرنسا؟ ما الحشد الذي كانت تتسع له ذاكرتي عندما كنت أمرُّ في راموس، أو ثيربو أو باتشين؟

في راموس كان مانولو يرمي، عند الظهيرة، الفستق على الأرض الخشبية. بعض الحمامات كانت تترك شمس الرصيف وتدخل وتخدم نفسها بنفسها. كنتُ أنا ومانولو، نادل راموس، ننظرُ الناس يعبرون الجادّة.

– كيف حالك؟

– كما البلد.

– حيّاً؟

– مَن، أنا؟

– أعني البلد.

– يكذب، المسكين.

4.

عشية المباراة، تناولنا أنا وإيلينا الغداء مع آتشابال وكارليتوس دومينغيث. رفع آتشا كأس النبيذ وشرب نخباً:

– من أجل الأشياء الأفضل: قال. الأشياء الأسوأ نعرفها.

كان آتشابال يعيش بعيداً، على بعد أكثر من ساعة عن بوينس أيرس. لم يكن يرغب بأن يسهر في المدينة، لأن الفجرَ حزين في القطار حين يكون لوحده.

كل صباحٍ، يصعد آتشا إلى قطار التاسعة ليذهب إلى العمل. كان يصعد دائماً إلى العربة ذاتها ويجلس في المكان ذاته. كانت تسافر معه امرأة. كلَّ يوم، في التاسعة وخمس وعشرين دقيقة، تنزل هذه المرأة لمدة دقيقة في محطةٍ، دائماً المحطة ذاتها، حيث ينتظرها رجلٌ يقف دائماً في المكان ذاته. كان الرجل والمرأة يتعانقان ويقبلان بعضهما إلى أن تُطلَقَ إشارةُ مغادرة القطار. عندها تودّعه وتعود إلى القطار.

كانت هذه المرأةُ تجلسُ دائماً أمامه، لكن آتشا لم يسمع صوتها قط.

ذات صباح لم تأتِ، وفي تمام الساعة التاسعة وخمس وعشرين دقيقة رأى آتشا، من النافذة، الرجل ينتظرُ على الرصيف. هي لم تأتِ بعدها أبداً . بعد أسبوع، اختفى الرجل أيضاً.

حرب الشوارع، حرب الروح

فجأة يكون المرء تحت سماء غريبة وعلى أراض حيث يتكلّمون ويشعرون بطريقة مختلفة، وحتى الذاكرة تصبح بدون أناس تشاركهم ولا أماكن تتعرف فيها على نفسها. ويكون على المرء أن يعارك بضراوة ليكسب خبزه وحلمه، يشعر بأنه جريح وتنقصه أشياء كثيرة. تجتاحك رغبة بالبكاء، وتتملّكك لزاجة الحنين والموت، وتُخاطر بأن تعيش ملتفتاً برأسك إلى الوراء، تعيش مُحتَضراً وأنت تموت، وهي طريقة تُعطي الحق لنظام يحتقِرُ الأحياء. علّمونا في نفاق المآتم، منذ أن كنا صبية، أن الموتَ شيءٌ يُحسّن الناس.

الرياح والسنون

1.

كان الهولندي يُقحم عنقه بين السفن الميتة. من القبعة التي كانت زرقاء، تدلت خصل من الشعر الأبيض جداً. لم يلق التحية علي. كان ينظر إليّ بدون أن يرمش، بعينيه الشفافتين الهائلتين في الوجه المستنزف. كنت أجلس في مكان قريب، في بقايا أحد هياكل السفن.، بينما هو يقطع السواري بمنشار وكماشة وصبر.

كان الهولندي يتقاتل مع النوارس. يقول إنها تسرق طعامه. صَعُبَ عليه الاقتناع بأني كنت أذهب هناك بمحض الرغبة. كان السد يبعد

عشر أو اثنتي عشرة كتلة بناء عن المنزل، وكان من الجيد المشي نزولاً في الشارع وإيجاد البحر في أوقات الظهر المشمسة. أحيانا كان الهولندي يدعني أساعده. أقفز من سفينة إلى سفينة لأنقذ المراسي المغطاة بالصدأ، والدفات المكسورة والحبال التي لها رائحة القطران.

كان يعمل بصمت. في أوقات الظهر التي كان فيها مزاجه رائقاً، كان يروي قصصاً عن تحطم سفن وتمردات ومطاردات حيتان في بحار الشمال.

2.

حين دعوني إلى كوبا عام 1970، كحكم في مسابقة كاسا دي لاس أمريكاس، نزلت إلى الأرصفة البحرية لأقول له وداعاً.

– كنت في هافانا: قال لي. في تلك الحقبة كنت شاباً وكان لدي بدلة بيضاء. كنت أعمل على متن سفن شحن بضائع. أعجبني هذا الميناء وبقيت. وأنا أتناول فطوري قرأت إعلاناً في الصحيفة. سيدة فرنسية ترغب ببدء علاقة مع شاب واسع الاطلاع وحسن المظهر. استحممت وحلقت ذقني ولبست الحذاء المناسب للبدلة. كان المنزل بالقرب من الكاتدرائية. صعدت الدرجات وضربت بالعصا. كان هناك مقرعة باب كبيرة، لكن كان معي عصا. عندها فتحت الباب. كانت الفرنسية عارية تماماً. بقيتُ فاغرَ الفم. وسألتها: "مدام أم آنسة؟"

ضحكنا.

– مضت سنوات كثيرة على هذا: قال الهولندي. والآن أريد أن أطلب منك شيئاً.

3.

لم أكد أصل إلى كوبا حتى ذهبت إلى رأس هافانا البحري. لم أستطع الدخول. كانت منطقة عسكرية. تكلمت مع نصف العالم ولم أحصل على إذن.

عندما عدت إلى مونتيفيديو، مشيت إلى السد وبقيت وقتاً طويلاً أنظر إلى الهولندي وهو يعمل. دخنت سيجارتين أو ثلاثاً. عند سفح التل ارتفع لهب المصفاة. لم يسألني الهولندي عن شيء. قلت له إنني رأيت في هافانا، كلمات الحب التي كتبها هو هناك، سليمة، كما لو أنها نُحتت حديثاً في حجر الرأس البحري، في عام 1920 ، برأس مسمار.

وقائع الأرض العظيمة

1.

كنت في كوبا لأوّل مرة في منتصف عام 1964. كانت أوقات حصار كامل: يمنع مرور الأشخاص والأشياء.

سافرنا نحو ليما وبعدها إلى المكسيك. من المكسيك إلى ويندسور ومونتريال. انتظرنا خمسة أيام في مونتريال _ اسم منطقة بات على لوحات السيارات؛ ملكية خاصة على اللافتات حول البحيرات_ ومن هناك إلى باريس ومن باريس إلى مدريد.

هبطنا في مدريد صباحاً. لم يكن قد بقي علينا إلاّ أن نمرّ بأوقيانوسيا. ولكن علمنا في مدريد أنّ الطائرة ستغادر ليلاً إلى هافانا.

قرّرنا، أنا ورينا، أن نزورَ متحف البرادو. رينا، زميلة في وفد الذكرى السنوية لمونكادا، كانت جدة سمينة وحكيمة، معلمة عدة أجيال، في عينيها يلمع ذكاء لا يكلُّ ولها طريقة خاصة جداً في التنهد. أصبحنا أصدقاء في الرحلة الطويلة.

بفعل وفضل الحصار عُرِض عليّ، ظهرَ ذلك اليوم، تجربة رغبتُ بها دائماً: رؤية فرسان الغريكو كما رسمهم بيده بالضبط ، نور فيلاثكيز غير المخرّب بسبب النسخ و، قبل كل شيء، رسوم غويا

السوداء، المسوخ التي ولدت من روحه وبقيت معه في كينتا دِل سوردو حتى آخر أيّامه.

وصلنا إلى أبواب المتحف. كانت جادّة البرادو رائعة في تلك الظهيرة الرائقة من الصيف.

ـــ هل نحتسي القهوة قبل الدخول؟

كان هناك طاولات على الأرصفة. طلبنا قهوة وشيري مزاً.

لم تكن رينا تحمل ضغائن، لكنها تثاءبت عند تذكرها زواجها الأوّل. عاشت بضع سنين كأم رسمية وسيدة لمنزلها. وذات ليلة قدّموا لها في حفلة سيّداً. أعطته يدها فضغط عليها وظلّ ممسكاً بها، شعرت هي للمرة الأولى بكهرباء نادرة، واكتشفت فجأة أنّ جسدها كان قد عاش حتى تلك اللحظة أصمّ وبدون موسيقى. لم يَقُل أيٌّ منهما كلمة واحدة. رينا لم تره بعدها أبداً. الآخر، الرجل الذي غير حياتها، لم تكن تتذكر لا اسمه ولا وجهه.

طلبنا المزيدَ من القهوة والمزيدَ من الشيري.

تحدثت رينا عن غرامياتها ولم أنتبه لمرور الساعات. حين أردنا أن نتذكّر، كان الوقت قد تأخر كثيراً. لم نذهب إلى متحف البرادو، نسيتُ أنّ متحف البرادو موجود.

دخلنا الطائرة مغشياً علينا من الضحك.

2.

عندما عدت إلى كوبا، بعد ست سنين، كانت الثورة تعيشُ أصعبَ أوقاتها. كان موسم سكّر العشرة ملايين قد فشل. كان تركيز الجهود على قصب السكر قد ترك اقتصاد البلد أعرج. صار للأطفال أخيراً حليب وأحذية، ولكنّ اللحم في مطاعم مراكز العمل كان معجزة، ولم يكن هناك من بعض الفواكه والخضراوات شيء غير الذكريات.

بصوت رزين قرأ فيديل كاسترو أرقاماً مأساوية أمام الجمهور: "هنا تكمن أسرار الاقتصاد الكوبي"، قال.

- نعم أيها السادة الإمبرياليون! قال. من الصعب جداً بناء الاشتراكية!

كانت الثورة قد أسقطت الأسوار العالية. صار الآن السقفُ الملابس والطعام، الأبجدية والصحة، والكرامة الوطنية للجميع. ولكن، ألم يُدرِّب البلد قروناً على العجز والخضوع؟ بأيّ أرجل كان باستطاعة الإنتاج أن يواكِبَ تسارع الاستهلاك؟ هل تستطيع كوًبا الركض، إذا كانت قد بدأت توّاً تتعلم الوقوف على قدميها؟

تكلم فيديل مع حلول الليل في الساحة الشاسعة، عن التوترات والصعوبات. وتكلم بإطالة أكثر عن الأخطاء. حلل عيوب عدم التنظيم، الانحرافات البيروقراطية، الأخطاء المرتكبة. اعترف بقلة خبرته، بأنه تصرّف في بعض الأحيان بواقعية قليلة، وقال إنّ هناك من يعتقد بأنه موجود حيث هو لأنه يحب السلطة والمجد.

- أنا أعطيت هذه الثورة أفضل سنيّ حياتي: قال. وسأل وهو مقطب حاجبيه:

- ماذا يعني المجد؟ إذا كانت كل أمجاد العالم تتكوم في حبة ذُرة واحدة!

أوضح أن الثورة، عندما تكون حقيقيّةً، تعمل من أجل الأزمنة والبشر المستقبليين.

كانت الثورة تعيش بنبض قلب سريعٍ ودون نفس، أمام المضايقة والحصار والتهديد.

- يقول العدو إننا لدينا في كوبا صعوبات: قال فيديل.

الحشود، التي كانت تستمع بصمت، انقبضت وجوهها وقبضاتها:

- والعدوّ محقّ في هذا.

- يقول العدو إن في كوَبا سخطاً: أضاف. وأيضاً العدو محق في هذا.

- ولكن هناك شيء واحد يخطئ به العدو!

وعندها أكد أنّ الماضي لن يعود؛ بصوت مدو أكّد بأنّ كوبا لن تعود مطلقاً إلى جحيم المزارع الاستعمارية والذلّ الامبرّيالي، وردّت الحشود بصرخة مدوّية هزّت الأرض.

في تلك الليلة جُنّت أجهزةُ التيلكس معلنةً سقوطَ فيديل كاسترو الوشيك. لم يتمكن بعض الصحفيين، المدرّبين على الكذب من فهم شجاعة الحقيقة. كانت صراحة فيديل قد أعطت، في تلك الليلة، مقياسَ عظمةِ وقوّةِ الثورة. كنتُ محظوظاً لوجودي هناك، ولا أنسى.

.3

في منزله في هافانا، حاصرني بولا دي نيبس بالأسئلة عن مونتيفيديو وبونوس أيرس. أراد أن يعرف كيف كانت حياة ناس وأماكنَ عرفها وأحبّها منذ ثلاثين أو أربعين عاماً. وعلى الفورِ انتبهت إلى أنه لم يكن هناك معنى للاستمرار بقول: "ما عاد موجوداً" أو "نُسي". هو أيضاً فهم على ما أعتقد، لأنه بدأ بالكلام عن كوبا، عن هذا الذي سماه يوروبا_ الماركسية_ اللينينية، اختصار لا يقهر للسحر الأفريقي وعلوم البيض، وأمضى ساعات وهو يحكي لي القيل والقال عن المجتمع الراقي الذي كان يدفع له سابقاً كي يغني. : "روساليا أبريو كان لديها قردان. كانت تُلبسهما أفرولات. أحدهما كان يقدم لها الفطِور والآخر يجامعها".

أراني لوحات لآماليا بيلايث، التي كانت صديقته:

- ماتت من قسوتها: قال. عندما كان عمرها واحداً وسبعين عاماً كانت لا تزال آنسة. لم يكن عندها عشيق أو عشيقة قط.

اعترف بذعره من الديكة الحية والقرود الطليقة.

جلس إلى البيانو. غنى أغنية دروم: يا زنجيّتي. بعد ذلك غنى أي ماما إينِس وإعلان بائع الفستق. كان صوته مستنفداً جداً، لكن البيانو ساعده على أن يرفعه في كل مرة كان ينخفض فيها.

في لحظة معينة قطع الأغنية وبقيت يداه في الهواء. التفت نحوي وقال لي باستغراب:

_ البيانو يصدقني. يصدق كلّ شيء منّي، كلّ شيء.

.4

عندما انتهتْ أعمالُ لا كاسا دي لاس أميريكاس عرضَ عليَّ سيرخيو تشابلي أن نسافر إلى غران تييرا. طرنا في قشرة جوز فوق الأدغال. هبطنا في نهاية البلد. كانت جبال هاييتي تلمع، زرقاء، في الأفق.

- لا، لا: قال ماغويتو. كوبا لا تنتهي هنا. هنا تبدأ.

أراضي قمة مايسي جافة، رغم أنها على حافة البحر. يتلف الجفاف محاصيل الخضراوات والبقوليات. تتقاطع في مايسي الرياح الأربع، التي تحملُ الغيومَ وتبعد المطر.

أخذنا ماغويتو إلى منزله لنحتسي القهوة.

عندما دخلنا، أيقظنا خنزيرةً كانت نائمة عند البوابة. غضبت. شربنا القهوة محاطين بأطفال وخنازير وماعز ودجاج. على الجدار تنهض سانتا باربارا محاطة بتمثالين لبوذا وقلب للمسيح. كان هناك الكثير من الشموع المشتعلة. الأسبوع الماضي فقد ماغويتو حفيدة.

_ جاءت الساعة. أصبحت بلا لون؛ كانت كزهرة قطن. لا شيء يفيد حين تجيء الساعة. جميعنا نأتي لفترة من الزمن. وأحيانا يشعلون للواحد منا الشموع قبل مجيء الساعة ، كما فعلوا معي قبل ست وثلاثين سنة، ولا يصمد للغد، يقولون، وفي هذه الأثناء ينهض.

من الباب المفتوح على مصراعيه، رأينا صيادي السمك يمرون. كانوا قادمين من البحر، وسمك النهاش والهامور يتدلى من القصبات، نظيفاً ومملحاً، جاهزاً للتجفيف. خلفهم رفع غبار الطريق غيوماً من ضباب.

حين ظهرت في هذه المناطق أول طائرة مروحية، فرَّ الناس مرعوبين. حتى انتصار الثورة، كان المرضى المصابون بإصابات خطيرة ينقلون بالأيدي، على النقالات، عبر الأدغال، وكانوا يموتون قبل أن يصلوا إلى باراكوا. لكن لم يرتعب أحد حين وصلت طائرتنا الصغيرة إلى المطار الجديد، كان الملتحون قد بنوا أول مستشفى في لوس يانوس منذ فترة طويلة.

– الرجل الذي في عروقه دم لا يستطيع أن يكفّ عن التمادي: قال ماغويتو. إنه عيبي إن كان لي أعداء، فهم مختبئون. كنت راقصَ سون ودانثون،، صديقاً جيد، أشرب الخمر وأسهر. الجميع يعرفني من هنا إلى الأعلى.

وحذرنا:

– نحن هنا لسنا أصحاب مشاكل. نتخاصم لكننا لا نجرح بعضنا. أولئك الذين هم هناك في الأعلى، في غران تييرا، أسوأ من الذباب الأزرق.

في الطريق كان الوهج يجرح العيون. الرياح التي تهب منخفضة وفي حركة دوامة، غطت بأقنعة غبارها الأحمر الرجالَ والأشياء.

يكره أهل البلد الخفافيش. كانت الخفافيش تخرج في الليل من الكهوف وتنقض على القهوة. تقضم حبوب القهوة وتستخرج عسلها. تجف الحبوب وتسقط.

6.

باتانا العليا فوق المقالع تُهيمنُ على البحر. في الأسفل، أمام الرصيف الصخري، باتانا السفلى. الجميع هناك كانوا يُسمّون موسكيدا.

_ بين أبناء وأحفاد _ قال السيد ثيثيليو_ كنتُ أعدُّهم في الليالي السابقة، كان هناك ما يقارب المئة. لم يعد في المنزل امرأة. أكمل الآن السادسة والثمانين من عمري. سابقاً كنت أُربّي الماعز والأبقار والخنازير، هناك في الأسفل. هنا يبدو أنّ حظي مع البنّ. ماذا لو أنّني اصطدت؟ اصطدت أم ارتكبت إثماً؟ هل ما زلتُ أذكر؟

غمزنا: يبقى.

– يبقى شيء في الذاكرة وفي الدافع. وأضاف، بابتسامة تركت اللثة الدرداء مكشوفة:

– لسبب ما موسكيدا هي الكنية السائدة التي تتضاعف.

كنا عطاشاً. قفز السيد ثيثيليو موسكيدا عن الكرسي الهزاز.

– سأصعد: قال.

أمسكه أحد الأحفاد، أو أبناء الأحفاد، براوليو، من ذراعه وأجلسه.

تسلق براوليو الجذع الطويل مربوط القدمين. تهزهز فوق الأغصان، والساطور بيده. مطر من جوز الهند نزل على الأرض.

بالنسبة للسيد ثيثيليو، كانت مسجلة الصوت تُثير فضوله. أريته كيف تعمل.

– هذا الجهاز علمِيّ حقاً _ أعطى رأيه_ لأنه يحتفظ بصوت الأموات حياً.

حكّ ذقنه. أشار إلى مسجلة الصوت بالسبابة وقال: "أريدك أن تُدخِلَ هذا هنا". وتكلم وهو يهز الكرسيَّ مغمضَ العينين.

كان براوليو رئيس سجاني البطريرك. كانت ألوية الأحفاد وأبناء الأحفاد تتناوب على النوم. عند أقل إغفال، كان السيد ثيثيليو يهرب منهم على الحصان ويقطع الغابة بخببٍ متواصل، ويصل إلى باراكوا فجراً، ليغازلَ الفتاةَ التي كان يُجن بها، أو إنه كان يسير عبر التلال

إلى مونتي كريستو، التي كانت بعيدة بما يكفي، ليغني سيريناتات للفتاة الأخرى التي كانت تحرمه النوم.

لم تبدُ الثورةُ للسيد ثيثيليو أمراً سيئاً.

– كان الناس يعيشون معزولين للغاية، نوع من التكبر _ شرح لي_. الآن يتبادلون الثقافات.

كان قد اكتشف المذياعَ، وببغاء المنزل تعلّم أغنية للبيتلز، والسيد ثيثيليو كان قد علم ببعض الأمور التي كانت تحدث في هافانا.

_ أنا لا أحب الشاطئ. لا أذهب إلى هناك تقريباً. لكني سمعت أنّه يوجد في هافانا شيء يدعى بيكيني، وتبقى أجساد النساء عارية تماماً. ويحدث شيء هناك. ما لزوجتك يجب ألاّ يراه غيرك. ألست أنت من يساعدها؟ أنا رجل منظم جداً وما بين الشاطئ والرقص تدخل الخلاعة. كيف كانت تلبس زوجتي؟ من رأسها يا فتى، وتتعرى من قدميها.

كان يشغله الطلاق أيضاً. كان قد علم بأن هناك طلاقاً كثيراً وهذا ليس عملاً جيداً.

– ولكن يا سيد ثيثيليو – قاطعه سيرخيو–. هل صحيح أم لا أنّه كان لك أكثر من أربعين امرأة؟

– تسع وأربعون – اعترف السيد ثيثيليو–. ولكني لم أتزوج قط. من يتزوج يدفع الثمن.

ثم أردنا استدراجه، لكن السيد ثيثيليو لم يزحِ الستار عن الكنز. كان الجميع في المقاطعة يعرفون أن لديه كنزاً مدفوناً في كهف.

7.

كنا متجهين إلى قرية صغيرة تدعى لاماكينا. التقطت الشاحنة الناس. الجميع إلى الاجتماع.

ـــ بلاثيدو تعال، هيا بنا! لا تهرب يا بلاثيدو!

ـــ لم يُعلموني!

انتظروا الحافلة مغتسلين لتوهم ومكويي الثياب، النساء العجائز يحملن مظلات ملونة، الفتيات يرتدين ملابس العيد، الرجال يعرجون بسبب الأحذية الجديدة. في الشاحنة غطى الغبارُ في لحظة الجلدَ والملابس واضطرّوا لأن يُغمضوا عيونهم. هم عرفوا بعضهم من أصواتهم.

– السيد ثيثيليو؟ إنه أحد الشيوخ السابقين. عمره أكثر من مئة سنة.

– سيموت دون أن يقول أين هو الكنز. لن يُصلّي عليه أحد الصلاة الثلاثية.

– ما الذي تقولينه يا أورميديا؟

– أنّ روحه لن ترتاح، يا إيراديا.

– وكيف سيرتاح. وعلى كاهله كل هذه الخطايا والكمّ الهائل من التراب الذي سيكون فوقه.

– هل عليّ تراب كثير؟

– لا أراك يا أوربينو.

– لا، أبداً! فقط ما تحتاجه.

– لم يسألك أحد، يا أركونيدا.

كانت الشاحنة تقفزُ من حفرة إلى أخرى. كانت أغصان الأشجار تصفعنا على وجوهنا ومن الأشجار تنفصل قواقع ملونة. وبيديّ كنتُ أضعها، بين رجّة وأخرى، في جيوبي.

– لا تهلع، فالعالم لا ينتهي!

– العالم قد بدأ توّاً، يا أوربينو!

أيضاً كان يُسافر معنا عدة أطفال وكلبان وببغاء. كل واحد تعلق كما يستطيع. أنا كنت أحتضن نرجيلة.

بين الفينة والأخرى كان محرك الشاحنة يتوقف ونضطرّ لأن ننزل وندفع الشاحنة.

– أنا مختار: قال أوربينو. صالح لكل شيء عدا السفر.

كانت قد بقيت مسافة طويلة للوصول حين انثقبت إحدى عجلات الشاحنة.

– لا يمكن إصلاحها. لقد انتهت.

وانطلق الموكب في الطريق.

كل ما كان قد تبقى كان صعوداً.

نساء ورجال، أطفال وحيوانات، صعدوا الجبل وهم يغنون.

– وزنتُ الصوت، أرأيتم؟ ما أوسع صدري!

كانوا يمضون دبقين من العرق والغبار ويندفعون سعداء، تحت شمس الصيف، شمس الثالثة ظهراً، التي كانت تعاقبهم بلا رحمة.

من سيتذكرني
يوم أموتُ؟
وحدها الخابية
نظراً للماء الذي شربته منها.

أوربينو، الذي كان أعرج، سار متعلقاً بقميصي.

– أغني ما أعرف ولست مديناً للعالم بشيء ولا أخشاه: قال. هذا اللحن، هل تعرفه؟ إنه لنا. يدعى نينغون. إنه لحن من باتانا، ولكن من باتانا السفلى. يُعزف بآلة الماراكاس. وبقيثارة الأوتار السلكية الأربعة، وهو أيضاً من اختراعنا. في بلد باتانا، في ذلك الجبل المقفر، نضطرّ لأن نخترع. كانت قمم النخيل تلتهب أمام وهج أبيض: إن رفعت نظري أُصِبت بالدوار. فكرت: أن زجاجة بيرة مثلجة ستكون مثل نقل الدم.

– عشرة آلاف شيء يحدث هنا وفيديل لا يدري بها: قال أوربينو. أنت قل لهم في هافانا أن يرسلوا لي الأشياء التي وعدوني بها. لا تنسَ، آه؟

كان قد اشترى محركاً كهربائياً لورشة النجارة الخاصة به. كان قد استشار من قبل وقالوا له: نعم، اشترِه، هكذا تعطي كهرباء للنجارين بالإضافة لصناعة المفروشات للجميع. لكن المحرك لم يعمل قط وسخر منه الأرذال: هذه الحدائد الفارغة، قالوا له، هذا المحرك هو صفقة رهيبة، يا أوربينو، لقد نصبوا عليك.

– من دون المحرك، نبقى في ظلام. أتفهمني؟ قل لهم أنت أن يرسلوا لي قطعاً كي أصلح المحرك، والتي هي كل ما في داخله.

خلّفنا المنحدر وراءنا ورأينا البيوت الخشبية الأولى. بعض الثيران البرية عبرت الطريق وفرت مسرعة. تدلت من أشجار الموز البراعم البنفسجية، المنتفخة التي توشك أن تنفجر. وقفت أنتظر عجوزاً جاءت تجرجر ثوبها الأخضر.

– عندما كنت صبية، كنت أطير: قالت لي. والآن لا.

كانت كل غران تييرا في الاجتماع. لم يتذمر أحد، واستمرت النكات والأغاني إلى أن تحدث فلاح أشقر، بارز عظمي الوجنتين وقاسي الملامح، عن المنظمة والمهام. كان فنيَّ المكننة الزراعية الأهم في المنطقة.

من ثم دعاني أنا وسيرخيو لنأكل الموز المقلي.

كان قد تعلم القراءة والكتابة في سن الخامسة والعشرين.

8.

جمعنا كمية كبيرة من القواقع الملونة. أفرغناها بإبرة، واحدة تلو الأخرى، وتركناها تجف تحت الشمس. كنت مبهوراً من هذه العجائب الضئيلة، القواقع الملونة والتصاميم المتنوعة دائماً. كانت

تعيش في جذوع الشجر وتحت أوراق الموز العريضة. كل بزاقة كانت ترسم منزلها أفضل من بيكاسو وميرو.

أهدوني في باتاناس قوقعة يصعب العثور عليها. تدعى الناسكة. تطلب إفراغها مني الكثير من العمل. كانت البزاقة مخفية جداً في نهاية لولب الصدفة الطويل، ميتة وترفض تماماً الخروج. نشرت الناسكة رائحة مقرفة، لكنها كانت ذات جمال نادر. صندوقها بخطوط نحاسيّة اللون، ولها شكل الخنجر الماليزي، لا يبدو أنها خلقت لتدور كحذروف، وإنما لتفرد أجنحة وتطير.

9.

أخبرنا أوريليو أنهم كانوا قد حذروه: "لا تذهب إلى باتانا، فهناك يحرقون الناس ويدفنونهم خفيةً، بالإضافة إلى أن المتزلجين يمشون بسرعة كالممسوسين.

كنا في أسونثيون. كان أوريليو يرافقنا خلال النهار إلى جميع الأمكنة. ولم يكن ينام في الليل. كان يبقى معنا إلى أن يفر له أحد ما، هناك في الأسفل ثلاث مرات. كان أوريليو يقفز من الشباك ويختفي بين الأشجار الوارفة؛ ليعود بعد برهة ويبقى في سريره يدخن حتى الفجر.

– أنت شخص عقيم، يا أوريليو: كان يقول له سيرخيو.

كان يطرق بابنا في أي ساعة في الليل.

كان يخاف من الكوابيس. يركز على نقطة داخل الدائرة وحين يتمكن من النوم يأتيه مسمار ضخم وينغرزُ في صدره، أو مغناطيس ضخم لا يتمكن من التخلص منه، أو مكبس حديد يضغطه على الحائط ويكسر فقرة من فقراته. كان أوريليو من الجيش، الفصل السابع من سلاح المدفعية.

– يريدون أن يفصلوني. طلبت منهم الانتظار. أنا هناك بالقوّة، لأني أحبّ ذلك.

حاول الذهاب إلى فنزويلا ليقاتل. كانوا ذاهبين، هو وطلاب منحٍ آخرون، حين اصطادوهم. كلّمهم فيديل. قال لهم إنهم يافعون جداً، ومن الأفضل أن يدرسوا.

– عندما كان يأتي إلى غران تييرا، على متن الطائرة الصغيرة، اعتقد بأنّ عنده مهمة. كنت ساعياً، وكنت في فنزويلا أو بوليفيا. في المطار كانت الشرطة بانتظاري. هربت على سطح قطار.

.10

التقينا بأوريليو باكراً عند مخرج القرية. كان يحمل شوكة بيد ومنجلاً بالأخرى. قال لنا إنّه كان قادماً من قتل الأفاعي. كان يبحث عنها بين الصخور والأعشاب ويقطع رؤوسها ويكسر عظامها.

أرانا المنجل الذي كان لوالده.

– ذات مرة انتزعه منّي في كاماغوي، ماتياس الهاييتي. لم يشدّ بعنف، لا شيء من هذا. هم يعرفون كيف يفعلون ذلك. انظر سأضربك: قلت له، ورفعت المنجل. العجوز ماتياس لم يلمسني. صالبَ ذراعيه، ثمّ أفلتَهُما فأصبحتُ كالأعمى، لا أعرفُ، وكان هو يمسك بالمنجل من مقبضه.

وجدنا في المقهى سحابة من الفتيات.

– ماذا فعلتم بالقوقعة؟ سألتنا إحداهن. أهي معك، أيها الأسمر؟

احمر أوريليو خجلاً.

نصح سيرخيو، مسراً:

– هذه النحيلة تحب رقص السالسا.

كنّ يناقشن:

– خُلقت الألوان للأذواق.

– لا علاقة للملبس بالأمر. هذا لا يؤثر على جوهر الشخص.

– أبداً. أفضل فستان عرس هو الجلد.

– الواحدة تتزوج مرة واحدة للأبد.

– ماذا لو كان الرجل وغداً؟ عليك أن تعيشي معه كي تعرفيه.

– قولي يا ناردا. من أين كان ذلك الرجل الذي كان يقول إنه يعيش لكي يعشق..؟

– حسناً أنا لدي أخلاق أعلى من قمة بيكو توركينو.

– آه، يا إلهي. إننا نعيش هنا عصراً قديماً لدرجة أنني لم أعد أقاوم هذا.

كانت النحيلة تدعى بسمانيا. وقد اختارت اسمها، عندما لم يعد يروق لها اسمها السابق.

11.

كان بالقرب من هناك فرقة تُشيّد جدراناً. عرضنا المساعدة.

– بالنسبة لي، لا تعجبني من هؤلاء ولا واحدة: قال أوريليو.

عملنا حتى حلول الظلام. أصبحنا نحن الثلاثة بيضاً من الكلس وخشنين من الإسمنت.

اعترف لنا أوريليو بأنه كان قد جاء إلى غران تييرا ملاحِقاً فتاة. كانا قد تعرفا في هافانا، عندما ذهبت للدراسة. الآن يحبسونها بالقفل والمفتاح. هي التي كانت ترسل المراسيل الذين يصفرون ليلاً تحت النافذة. هكذا كانت تلتقي بأوريليو، للحظة، بين الأشجار.

لكن ما من أحد صفر في تلك الليلة وأوريليو لم يطرق الباب.

لم نره في اليوم التالي.

حين سألنا عنه، كان قد طار عائداً إلى هافانا.

– كان يريد سرقة القروية: قالوا لنا. أرسل الأب في طلبه.

كان والد أوريليو يتقلّد حول عنقه أشرطة القبطان الأول، الثلاث. كان عمر أوريليو ست سنوات وكان قد مضى أربعة أيام على هرب فولغينثيو باستيستا في طائرة. رأى أوريليو رجلاً ضخماً قادماً من شاطئ باراكوا. كانت لحيته تصل حتى صدره ويرتدي بدلة رسمية زيتونيّة اللون.

– أرأيت: قالت له الأم. هذا هو والدك. ركض أوريليو على الشاطئ. رفعه الرجلُ الضخم وضمّه.

– لا تبكِ: قال له. لا تبكِ.

أخبار

من الأوروغواي.

ماتت فتاة من سالتو أثناء التعذيب. سجين آخر ينتحر.

كان السجين في سجن ليبرتاد منذ قرابة ثلاث سنوات. انفعل ذات يوم، أو نظر نظرة ملتوية، أو أن أحد الحراس استيقظ بمزاج سيء. أرسل السجين إلى زنزانة التعذيب. يسمونها هناك "الجزيرة": معزولين، مجوعين، مخنوقين، في "الجزيرة" يقطع السجناء أوردتهم أو يصابون بالجنون. هذا السجين أمضى شهراً في زنزانة التعذيب. ثم شنق نفسه.

الخبر روتيني، ولكن هناك تفصيل يسترعي انتباهي: السجين يُدعى خوسيه أرتيغاس.

حرب الشوارع، حرب الروح

هل نحن قادرون على أن نتعلَّمَ التواضع والصبر؟

أنا العالَمُ، ولكنّني صغير جداً. عمر الإنسان ليس التاريخ، رغم أنه يجب الاعتراف بأن المرء يحبّ ذلك.

النظام

يخطر على بالي شيء أخبرني به ميغيل ليتين ، قبل خمس أو ست سنوات. كان قد جاء من تصوير فيلم "الأرض الموعودة" في وادي رانكيل، المنطقة الفقيرة في تشيلي.

كان الفلاحون المحليون يقومون بدور الكومبارس في مشاهد الحشود. بعضهم كان يُمَثِّل نفسه. آخرون قاموا بدور الجنود. غزا الجنود الوادي، وبالدم والنار انتزعوا الأراضي من الفلاحين. كان الفيلم يمثل وقائع المجزرة.

في اليوم الثالث بدأت المشاكل. الفلاحون الذين كانوا يلبسون الزي الموحد، كانوا على ظهور الخيل ويُطلقون الرصاص الفارغ، صاروا تعسفيين ومتسلطين وعنيفين، وراحوا يُضايقون المزارعين الآخرين بعد كل يوم تصوير.

حرب الشوارع، حرب الروح

كم مرّةً كنتُ ديكتاتوراً؟ كم مرة كنت محققاً، رقيباً، سجاناً؟ كم مرة حَرَمت الذين أحبهم من الحرية والكلمة؟ كم شخصاً شعرت بأني سيده؟ كم شخصاً أدنت لأنهم ارتكبوا جريمة أن لا يكونوا أنا؟ أليست الملكية الخاصة للأشخاص أكثر إثارة للاشمئزاز من ملكية الأشياء؟ كم من الناس استخدمت، أنا الذي ظننتُ نفسي على هامش المجتمع الاستهلاكي؟ ألم أتمنَّ أو أحتفل، سرّاً، بهزيمة الآخرين، أنا الذي بصوت عال كنت ألعن قيمة النجاح؟ مَن الذي لا يعيد إنتاج العالم الذي يولده داخل نفسه؟ مَن في مأمن من الخلط بين أخيه ومنافسه والمرأة التي يحب مع ظله نفسه؟

حرب الشوارع، حرب الروح

هل للكتابة معنى؟ السؤال يُثقل على يدي؟

تُنظِّم دوريات جمارك على الكلمات، محارق للكلمات، مقابر للكلمات. لماذا نُذعنُ لنعيش حياة ليست حياتنا، نُجبر على قبول ذاكرة غريبة كأنها لنا. حقيقة مُقَنَّعَة، تاريخ مرويّ من قبل المنتصرين: ربما ليست الكتابة في زمن العار أكثر من محاولة إنقاذ، الأصوات التي تشهدُ بأنّنا كنا هنا وكنا هكذا. طريقة للانتظار بالنسبة لنا نحن الذين ما زلنا لا نعرف، كما أراد إسبيرو: "اسمَ كلٍّ واحدٍ من الأشياء". من لا يعرف من أين جاء، كيف سيستطيع أن يعرف إلى أين سيذهب؟

مدخل إلى تاريخ الفن

أتناول العشاء مع نيكول وأدوم.

تتحدث نيكول عن نحات تعرفه، رجل موهوب ومشهور جداً. كان النحات يعمل في ورشة ضخمة، محاطًاً بالأطفال. كلُّ أطفال الحي أصدقاؤه.

ذات يوم سعيد كلّفته رئاسةُ البلدية بنحت حصان كبير لساحة من ساحات المدينة. جلبت شاحنة كتلة هائلة من الغرانيت إلى الورشة. بدأ النحات ينحتها، صاعداً على سلم، بضربات مطرقة وإزميل. راقبه الأطفال وهو ينحت.

بعدها غادر الأطفال في العطلة باتجاه الجبال أو البحر.

حين عادوا، أراهم النحات الحصان المنتهي.

سأله أحد الأطفال، مفتوحَ العينين جداً:

_ ولكن... كيف عرفت أنّ داخل ذلك الحجر كان يوجد حصان؟

أخبار

من الأرجنتين.

نجا لويس سابيني. استطاع الخروج من البلد. كان قد اختفى في نهاية العام 1975 وبعد شهر علمنا أنهم زجّوه في السجن. لا يوجد أثر لأرولدو كونتي. ذهبوا ليقبضوا على خوان جيلمان من بيته في بونوس أيرس. ولأنه لم يكن هناك، أخذوا أبناءه. ظهرت ابنته بعد عدة أيام. لا يُعرف شيء عن ابنه. تقول الشرطة إنّه ليس عندهم، والعسكر يقولون إنه ليس عندهم أيضاً. كان خوان سيصبح جداً. الكنة الحامل اختفت أيضاً. كاتشو باوليتي، الذي كان يرسل لنا نصوصاً من لاريوخا، عُذِّب ولا يزال سجيناً. كتّاب آخرون كانوا ينشرون في المجلة: باكو أوروندو دُرِز بالرصاص، منذ فترة طويلة، في مندوثا؛ أنطونيو دي بناديتو في السجن، رودولفو والش مختفٍ. عشية اختطافه، أرسل رودلفو رسالة يندد فيها بأن أحرف(A) الثلاثة هي الآن الأسلحة الثلاث، "مصدر الإرهاب ذاته الذي ضل طريقه ولا يستطيع شيئاً غير أن يُلجْلِج بخطاب الموت".

أحلام

كنتَ تريدُ ناراً وأعواد الثقاب لا تشتعل. ما من عود ثقاب واحدٍ أعطاك ناراً. كل أعواد الثقاب كانت مقطوعة الرأس أو مبلّلة.

كاليا لاكوستا، أيار 1977: كي نخترع العالم كلّ يوم

نتحدث، نأكل، ندخن، نمشي، نعمل معاً، طرق لممارسة الحب دون ولوج، والأجساد تتنادى بينما النهارُ يُسافرُ نحو الليل.

نسمع مرور آخر قطار. أجراس الكنائس. الوقت منتصف الليل.

قطارنا الصغير ينسابُ ويطير، يمضي ويمضي في الهواء والعوالم، وبعدها يأتي الصباح والرائحة تُنبئ بالقهوة اللذيذة والساخنة، المغلية لتوها. يخرج من وجهك نور نقي ومن جسدك تفوح رائحةُ بلل.

يبدأ النهار.

نعد الساعات التي تفصلنا عن الليلة القادمة. عندها نمارس الحب، قَتْلَ الحزن.

بين الجميع، إن أصغينا جيداً، نشكل لحناً واحداً

عابراً حقل السرخس أصل إلى ضفة نهر.

إنه نهار نظيف النور. تجري نسمة ناعمة. من مدخنة المنزل الحجري، ينتشر الدخان ويتماوج. في المياه يبحر البط. شراع أبيض ينسابُ بين الأشجار.

لجسدي، هذا الصباح، إيقاع النسمة والدخان والبط والشراع ذاته.

حرب الشوارع، حرب الروح

ألاحق الصوت العدو الذي أملى علي أن أكون حزيناً. يخطر لي أحياناً أن أشعرَ بأن الفرح خيانة عظمى، وبأني مسؤول عن امتياز أنّني مازلت حيّاً وحراً.

عندها يُريحني أن أتذكر ما قاله الزعيم ويلكا، في بيرو، متحدثاً أمام الأطلال: "هنا وصلوا. كسّروا حتى الحجارة. أرادوا أن نختفي. لكنهم لم يستطيعوا، لأنّنا أحياء وهذا هو الأهم". وأعتقد بأن ويلكا كان على حق. وجودنا أحياء: انتصار صغير. وجودنا أحياء، أي: كوننا قادرين على الفرح، على الرغم من الوداعات ومن الجرائم، كي يكون المنفى شاهداً على بلد آخر محتمل.

للوطن، مهمة يجب القيام بها، لن نشيده بطوب من الخراء. هل سننفع بشيء، وقت العودة، إن عدنا مكسورين؟

يتطلبُ الفرح شجاعةً أكثر من الحزن. تعودنا على الحزن في نهاية المطاف.

هارى لاكوستا، حزيران 1977، السوق

الخوخ مكتنز، عصارة خالصة تغرقك بحلاوتها، يجب أن تأكله، علَّمْتِني، أنت مغمض العينين. الخوخ الأحمر القاني، بلبِّه المكتنز والأحمر، تأكله وأنت تنظر إليه.

أنت تحب أن تُداعب الدراق وتعريّه بالسكين، وتفضل أن يأتي التفاح داكناً كي يستطيع أن تُلمِّعه بيديك.

الليمون يلهمك الاحترام والبرتقال يضحكك. لا يوجد شيء أظرف من جبال الفجل ولا شيء أكثر سخافة من الأناناس، درعه، درع محارب القرون الوسطى.

البندورة والفليفلة يبدو أنهما ولدا كي يُعَرّضا كرشيهما للشمس في السلال، يشتهيان البريق والكسل، ولكن البندورة في الحقيقة تبدأ بالحياة حين تختلط بالزعتر البري والملح والزيت، والفليفلة لا تجد قدرها إلا حين تتركها حرارة الفرن لحماً حياً وتقضمها أفواهنا بشهية.

تشكل التوابل، في السوق، عالماً خاصّاً. إنها ضئيلة وجبّارة. لا يوجد لحم لا يُثار ويفرز عصيره عندما تخترقه التوابل، سواء كان لحمَ بقر أو سمكاً، لحم خنزير أو ضأن. يحضرنا دائماً أنّنا لولا التوابل ما كنّا لنولد في أمريكا، ولفقدنا السحر على المائدة وفي الأحلام. في نهاية المطاف التوابلُ هي التي دفعت كريستوفر كولومبوس والسندباد البحري للمغامرة.

لأوراق الغار طريقة ساحرة في التكسّر في يدك قبل أن تقع بنعومة فوق اللحم المشوي أو السمبوسك. أنت تحبٌّ كثيراً إكليلَ الجبل وكبوش القرنفل وجوز الطيب والحبق والقرفة، ولكنّك لا تعرف مطلقاً إن كان ذلك بسبب رائحتها أو نكهتها أو أسمائها. البقدونس، بهار الفقراء، يمتاز على جميع باقي التوابل: هو الوحيد الذي يصل إلى الصحن أخضرَ وحياً ورطباً تعلوه قطرات طريّة.

بينما يستمر الطقس نحن مثله مقدسون قليلاً

أفتحُ زجاجة النبيذ. في بوينس أيرس، زجاجة النبيذ الفرنسي سان فيليبي السوداء والكرشاء. هنا، نبيذ دم الثور من ديماس تورّس.

أصبّ النبيذ ونتركه ليرقد قليلاً في الكؤوس. نستنشقه ونحتفل بلونه، متوهجاً على ضوء الشمعة.

تبحث السيقان عن بعضها وتلتف على بعضها تحت الطاولة.

تُقبّل الكؤوس بعضها. النبيذ سعيد بفرحنا. النبيذ الجيد، الذي يحتقر السكران ويصبح مُرّاً في فم من لا يستحقه.

يُبقبق المرق في القِدر، يطلق فقاعات مدّ بطيء لصلصة سميكة، محمرة، يتصاعد بخارها: أكلنا على مهلٍ، متلذذين، ندردش من دون عجلة.

تَناولُ الطعام وحيداً فرضٌ يمليه الجسد. معك، هو قداس وضحك.

أخبار

من الأوروغواي.

لقد أحرقوا مجموعات كتب وأرشيف مجلة مارتشا.

إغلاقها بدا لهم قليلاً.

كانت مارتشا قد عاشت خمسة وثلاثين عاماً. كانت تبرهن كل أسبوع، بوجودها فقط، على أن عدم بيع نفسها كان ممكناً.

كارلوس كيخانو، الذي أدارها دائماً، موجود في المكسيك. نجا زحفاً.

لم تعد مارتشا موجودة وكان كيخانو يصر على استمرارها، وكأنه يسهر عليها. كان يصل إلى التحرير في الساعة ذاتها دائماً ويجلس وراء المكتب ويبقى هناك حتى حلول الليل، شبح مخلص في القلعة المقفرة: يفتح الرسائل القليلة التي كانت لا تزال تصل ويجيب على الهاتف الذي كان يرن عن طريق الخطأ.

النظام

خطة إبادة: محق العشب، اجتثاث حتى آخر نبتة ما تزال حيّة من جذورها، سقاية الأرض بالشمس.

ومن ثم، قتل ذاكرة العشب. لاستعمار الضمائر، محوها؛ لمحوها، وإفراغها من ماضيها. القضاء على كل شاهد في المنطقة يشهد بأن هناك شيئاً أكثر من الصمت والسجون والقبور.

مُحَرَّمٌ التذكر.

تتشكل عصابات من المساجين. يُجْبَرون في الليل، على تغطية عبارات الاحتجاج التي غطت جدران المدينة في أزمنة أخرى بالطلاء الأبيض.

يُذيب المطر، من كثرة ما يسوط الجدرانَ، الطلاءَ الأبيض. وتعود الكلمات العنيدة لتظهر شيئاً فشيئاً.

أخبار

من الأرجنتين.

في الخامسة مساء، تطهير بالنار. في باحة ثُكنة الفوج الرابع عشر، في قرطبة، قيادة الجيش الثالث "تأتي لإحراق هذه الوثائق

الخبيثة، دفاعاً عن مخزوننا الروحي الأكثر عراقة، المكوّن من الله والوطن والبيت".

ترمى الكتب إلى النيران. من بعيد تُشاهد أعمدة الدخان العالية.

"لا أحد بطل لأنه ذهب، ولا وطني لأنه بقي".

بعد عشر سنوات من الصمت القسري، نشرت المجلة الأسبوعية أكي(هنا) هذه المقابلة في مونتيفيديو. جرت في 27 آذار مارس من عام 1984. طرح دانيال كاباليرو الأسئلة عبر الهاتف. أجاب غاليانو من منزله في كالايّا، في برشلونة. ما من مطبوعة في الأوروغواي ذكرت، حتى ذلك الحين، اسمه. كل كتبه كانت ممنوعة.

– ما إنتاجك الأدبي خارج البلد؟

– رواية، (الأغنية التي لنا)[1]، ونوع من الحوار مع ذاكرتي، تدعى (نهارات وليالي الحب والحرب)[2]، وأول مجلدين من ثلاثية (ذاكرة النار)[3]. المجلد الأول، الولادات، نشر منذ حوالي السنتين؛ المجلد الثاني، الوجوه والأقنعة، صدر في الآونة الأخيرة. بدأت الآن بالعمل على المجلد الثالث. ثلاثية ذاكرة النار هي كنهارات وليالي...، ولكنّها مع أمريكا: أعني حواراً مع ذاكرة أمريكا، أحاورها كما لو أنها شخص.

– هل هي على قاعدة (الشرايين المفتوحة)، ولكن بمحتوى أكثر أدبية؟

– الموضوع ذاته، بطريقة ما، ولكنّه مضاعف. محاولة لإنقاذ الذاكرة الحية لأمريكا، وخصوصاً أمريكا اللاتينية، بكل أبعادها، روائح، ألوان، آلام... أريد أن يشعر القارئ بأن التاريخ يحدث بينما الكلمات تحكيه.

---

[1] ترجمها رفعت عطفة، وصدرت عن دار الحوار سنة 2014.

[2] هي الكتاب الذي بين يديك، وقد اختارت له دار الحوار عنواناً آخر بالعربية: أشباح الليل والنهار.

[3] ترجم الأجزاء الثلاثة أسامة إسبر، وصدرت عن دار الحوار سنة 2014.

أن يشعر أن التاريخ يهرب من المتاحف ويتنفس ملء رئتيه؛ أن الماضي يصبح حاضراً. أمريكا اللاتينية لم تعانِ فقط من سرقة الذهب والفضة، والمطاط والنحاس والنفط. لقد صادروا ذاكرتها. اختطفوا ذاكرتها أيضاً. كي لا تعرف من أين أتت وكي لا تستطيع أن تعرف إلى أين تذهب.

– (الشرايين المفتوحة) لأمريكا اللاتينية العمل الأساسي الذي رسّخ مكانتك كمفكر ملتزم. هل منَ المحتمل أن تكتبها من جديد بنفس المصطلحات؟

– لا، لا، لا. سيكون هذا كدعوتي إلىّ جنازتي الخاصة. كتبتها منذ قرابة ثلاث عشرة أو أربع عشرة سنة. منذ ذلك الحين، تغيرت. أنا حيّ؛ أتغير كل يوم. أتحمّل مسؤولية الشرايين، هذا أجل، من البداية للنهاية. لا أندم ولا حتى على كلمة واحدة؛ وأعلم بأن (الشرايين المفتوحة) لم تكذب ولم تخرّف، وبأنها أفادت وتفيد لتظهر بأنه لا يوجد في هذا العالم أي غني بريء، ولتظهر كيف أن نقص التنمية ليس مرحلة نحو التنمية، وإنما هو النتيجة التاريخية للتنمية الأجنبية. ولكنّني الآن منغمس في مغامرة أخرى، أكثر شمولاً، أكثر استيعاباً، لا تكرر الشرايين وإنما توسع وتعمق المجال الذي فتحه لي كتاب (الشرايين المفتوحة). ربما لكونه اختباراً، يبدو لي كتاب الشرايين ذا بعد واحد كاف، أعني: طرح التاريخ بشكل مُكثّف جدّاً في بعده السياسي–الاقتصادي ولهذا يمكن أن يأتي، أحياناً، موجزاً قليلاً. ثمّ إنّني غيّرتُ، في هذه السنوات، أسلوبي إلى حد بعيد. علاج للتنحيف. أن تقول في كل مرة أكثر بكلمات أقل.

– في بوينس أيرس، في أزمنة الحرية هذه، انتشر كتاب الشرايين على نطاق واسع. كيف تنظر إلى أنّ الجيل الجديد، الذي لم يسمع عنك أبداً، يكتشفك؟

_ أعتقد بأنّ موضوع الانتشار على نطاق واسع مبالغ فيه. لنقل إنه حسن الحظ. يسعدني أنّ هذا الكتاب الملعون بالنسبة للديكتاتورية الأرجنتينية والديكتاتوريات الأخرى التي أثنت عليه بمنعه، عاد ليظهر في بوينس أيرس. ولكن الأمر لا يتعلق فقط بهذا الكتاب، الذي يعني القليل. إنها آلاف الأشياء التي تحدث... تستشعر الأرجنتين ما كان قد بدأ بالحدوث في بلدنا. الأرجنتين تتحرر من قيدها وتكشف الستار. الشعب يريد معرفة ما المسألة، بعد هذه السنوات من الصمت والخوف. واضح أنه يمكن منع الماء. أما العطش، فلا.

– خطّ سيرك وعملك ينتقلان عبر طرق الصحافة والأدب. ما هو تعريفك لكلا النشاطين؟

– الصحافة، كما أظن، هي شكل من أشكال الأدب. أنا لا أشاطر قدسية الكتاب كشكل وحيد من أشكال التعبير الأدبي. بممارسة الصحافة يمكن صناعة أدب سيئ، ولكن هناك أيضاً كتب مقيتة للغاية. تخضع الصحافة لطوارئ وتوترات تُضعف من مستوى نوعيتها، ولكنّها أيضا تمنحها قوةً وسحراً. هل الأدب هو الخلود والصحافة هي الراهن؟ بعض الكتاب الأمريكيين اللاتينيين الراسخين _ خوسيه مارتي، كارلوس كيخانو، رودولفو والش_ قدموا أفضل ما لديهم في الصحافة.

– معروف بأنك كنت من أوائل الممثلين لجيل قرر المراهنة على وطن شريف ورحيم وعادل.. أمام الصعوبات الهائلة لتجسيد هكذا تطلعات، هل شعرت في لحظة ما بأنك يائس؟

– كيف لا؟ وأكثر من مرة. أنا أرتاب، وأنصح بعدم الثقة بالرجال الخشبيين. بوبول فوه، الكتاب المقدس للمايا، يحكي بأن الآلهة صنعت بعض الرجال من خشب، كنوعٍ من الاختبار، لكنه لم ينفع:

رجال الخشب يشبهون الإنسان ويتكلمون كالإنسان، ولكن ليس فيهم دم ولا نَفَس، وبالتالي لم يكن لديهم يأس.

– ما الذي ساعدك أكثر كي تتغلّب على الاستعمار العقلي وتطمينات أخرى استمالت الأوروغواي الذي وُلِدْتَ فيه والذي أطلق عليه اسم "أركاديا المعتدلة"؟

–الواقع. واقعُ بلدٍ في أزمة، كان يضرب بالهراوة ويطرد عماله الشباب. أركاديا كهذه كانت قد أصبحت موضوعَ حنين أو نكتة عندما دخل جيلي المُعتَرك.

– يمكن الاعتراف بأنواع مختلفة من المنفى. تراك شعرت به، بطريقة ما، داخل وطنك، متى قررت عدم استخدام كنيتك الأولى علناً؟

– قبل الكتابة، كنتُ أرسم. كنت أنشر رسوماً كاريكاتيرية في المجلة الأسبوعية الاشتراكية سول (شمس). كنت أوقّعها باسم جيوس، لأن أوجيس له وقع واضح بالقشتالية، وليس إقلالاً من قيمة سلفي الويلزي. حين بدأت الكتابة، وقعت بغاليانو، التي هي كنيتي الثانية؛ وهكذا تابعت. على مر السنين سمعت أكثر التفسيرات تبايناً حول هذه المسألة، بما فيها نزاعات عائلية وهمية وغيرها من الهراء. موضوع "المنفى الداخلي"لم يكن لدي. ولكن من المعروف جيداً أن الاسم لا يهمُّ في هذا العالم حيث يمكن لسجنٍ أن يُسمى، على سبيل المثال، ليبرتاد (حرّية).

– كيف هو استعدادك لتقبل النقد؟ ذات مرة قيل إنه إلى جانب ذكائك الحاد لديك شيء من أسلوب نخبوي، شيء يُشبه الأرستقراطية الفكرية. تراها كانت وقفة شباب في رجل عرف النجاح في وقت مبكر جداً؟

– نقد، أتقبله جميعه؛ ولكن رجاء، أن يكون مواجهةً. لا أحب هذه الـ"ذات مرة"، وأقل منها "قيل..."متى؟ مَن؟ وهذا ليس كي

أدافع عن نفسي. أعرف أنّنا نحن الكتاب في حديقة الحيوان البشرية موجودون في قفص الطاووس؛ وليس من السهل الخروج منه. على كل حال، لم أؤمن قط كما لا أؤمن الآن بما يسمى بالنجاح، ولا بالإيدولوجيا الرجعية التي تجعل من الحياة نظام مكافآت وعقوبات؛ وأشعر بأني أبعد سنيناً ضوئية كثيرة عن أيّ إغراء نرجسي.

– هل غَيَّرك المنفى كثيراً؟ كيف تُعَرِّفه؟

– علمني المنفى مزيداً من التواضع وصبراً جديداً. أعتقد بأن المنفى تحدٍّ. يبدأ بكونه وقتاً للتوبة، ناشئاً من عجز أو هزيمة، ويتطلب تواضعاً وصبراً لتحويله إلى وقت للإبداع ولاتخاذه كجبهة أخرى للنضال. عندها ينظر المرء إلى الأمام ويكتشف أنّ الحنينَ جيد، اختلاجة أرض، علامة على أنّ المرء لم يولد من سحابة، ولكن الأمل أفضل. العملية ليست سهلة مطلقاً، خاصة لآلاف وآلاف العمال الأورغوائيين المحكومين بالاجتثاث تحت سموات بعيدة جداً، في بلاد تتكلم لغات أخرى وتشعر وتفكر بطريقة مختلفة، وحيث المنفى كفاحُ يومي بذراع مقطوعة. لقد حالفني الحظ. تمكنتُ من العمل دائماً في مجالي ولم أتوقف قط عن الكتابة، وكأني أنكر مارتين فيرّرو، حين قال إن البقرة التي تنتقل من مرتعها تؤجل مخاضها. لقد أثبتَ لي المنفى أنّ الهوية ليست مسألة إقامة ولا وثائق: أنا أوروغوائيّ، عشتُ أينما عشت، ولو حرموني من جواز سفري. وفي السنوات العشر هذه، التي هي في طريقها لتصبح إحدى عشرة سنة، فقدتُ شَعري ولكن لا شيء آخر: تضاعفت عندي عاطفةُ التضامن، الدافعُ المتواصل للإبداع والحبِّ والقدرة على السخط أمام الظلم. أنا كنت دائماً وما زلتُ مع الآخر.

– دون الوقوع بالنمطية، ما الأفكار التي توحي لك بها، عودة محتملة إلى الأوروغواي؟

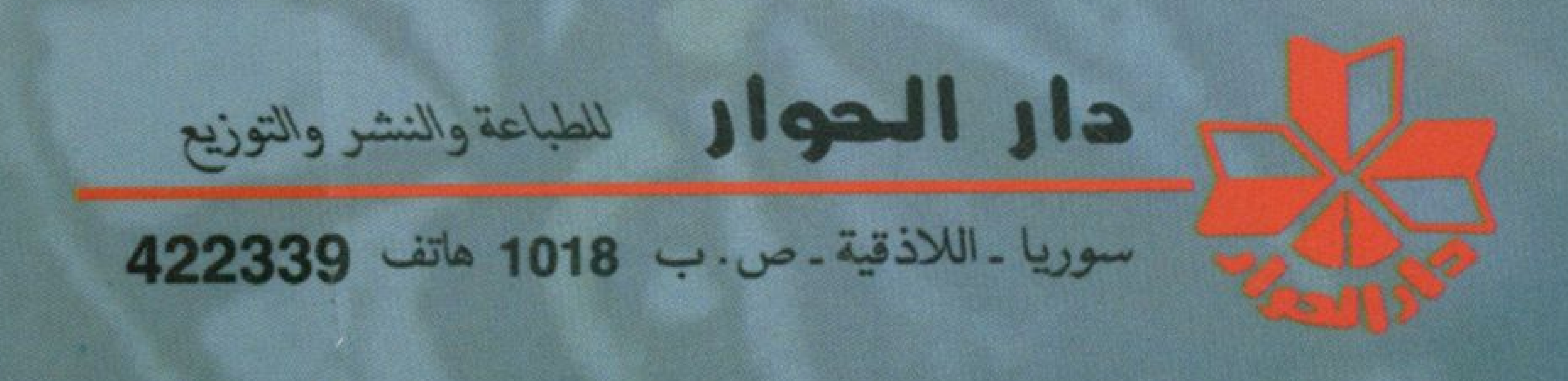
_ قلق. أعتقد، وأتمنى، أن يكون هناك قريباً عفو وحرية في بلدنا. ولكن، والعمل؟ هل سيكون هناك عمل لنصف مليون غادروا الأوروغواي مجبرين على العيش خارجه؟ الأوروغواي الذي راح يبيع سواعد للخارج. منذ سنوات عديدة، النظامُ يفيضُ عنه الناس. أما البلد، فلا: في نهاية المطاف، للبلد مساحة أكبر بخمس مرات من هولندا وسكان أقل بخمس مرّات منها. نفت الديكتاتورية الكثير من الناس؛ لكن النظام الذي احتاج للديكتاتورية كي يبقى دون تغيير، نفى ناساً أكثر. وثمة قلق آخر: هل سنتبادلُ، نحن الذين ذهبنا والذين بقوا وكان عليهم تحمل هذه السنوات الصعبة للغاية، تسميم الهواء؟ هل سنتبادل الامتحانات؟ هل سنقع في اللعبة التافهة للحقد واللوم، متناسين أنّه ما من احد يصبح بطلاً بذهابه، وما من أحد يصبح وطنياً ببقائه؟ إذن هناك قَلَقَان. كل ما عداهما فرح.

امرأة ورجل يحتفلان في بيونس آيرس بعيد زواجهما الثلاثين. يدعون أزواجاً آخرين من تلك الحقبة، أناساً لم يروهم منذ دهر. وفوق المفرش المصفر والمطرز لحفل الزفاف، أكل الجميع وضحكوا وشربوا النخب.

يلعب المدعوون لعبةَ من مضى على موته سنوات أكثر. يتساءلون فيما بينهم: منذ كممن السنوات أنتَ ميت؟لا، لا، يقول بعضهم لبعض: عشرون سنة،إنك تصغّر من عمرك. مضى عليك ميتاً خمس وعشرون سنة. وهكذا. حكى لي أحدهم، في المجلة، هذه القصة عن الشيخوخة والانتقامات التي حدثت في بيته الليلة الفائتة. انتهيت من الاستماع إليه حين رنّ الهاتف.

كانت رفيقة من الأورغواي، معرفتي بها قليلة. بين الحين والآخر كانت تقابلني لتمرِّر لي معلومات سياسية، أو كي ترى ما يمكن أن نفعل من أجل منفيين آخرين بلا مأوى ولا عمل. ولكنّها الآن لم تتصل بي لهذا السبب. اتصلت بي هذه المرة لتخبرني بأنها واقعة في الحب. قالت لي إنّها وجدت أخيراً ما كانت تبحث عنه دون أن تعرف عما كانت تبحث، وإنها تحتاج لأن تقول ذلك لأحدٍ، واعتذرت عن الإزعاج. قالت إنها اكتشفت أنّ من الممكن تبادل الأشياء الحميمة، وإنّها تريد أن تحكي لأنه خبر جيد، أليس كذلك؟

أخبرتني بأنهما ذهبا معاً إلى مضمار سباق الخيل لأوّل مرة في حياتهما، وبأنّ بريق الخيولِ وبلوزاتِ الحرير أبهرهما. كان معهما نقود قليلة وكانا قد لعبا بها متأكّدَيْن من أنهما سيفوزان لأنها كانت أول مرة، وكانا قد راهنا على الخيول الأكثر ظرافة وعلى التي كانت أسماؤها أكثر هزلاً. لكنهماخسرا كل شيء وعادا سيراً على الأقدام سعداء للغاية بروعة الحيوانات وإثارة السباقات. ولأنهما أيضا كانا شابين ورائعين وقادرين على كل شيء. الآن، قالت لي، أموت رغبةً بالخروج إلى الشارع والعزف على البوق ومعانقة الناس والصراخ بأني أحِبُّه.


دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339


9 789933 477820